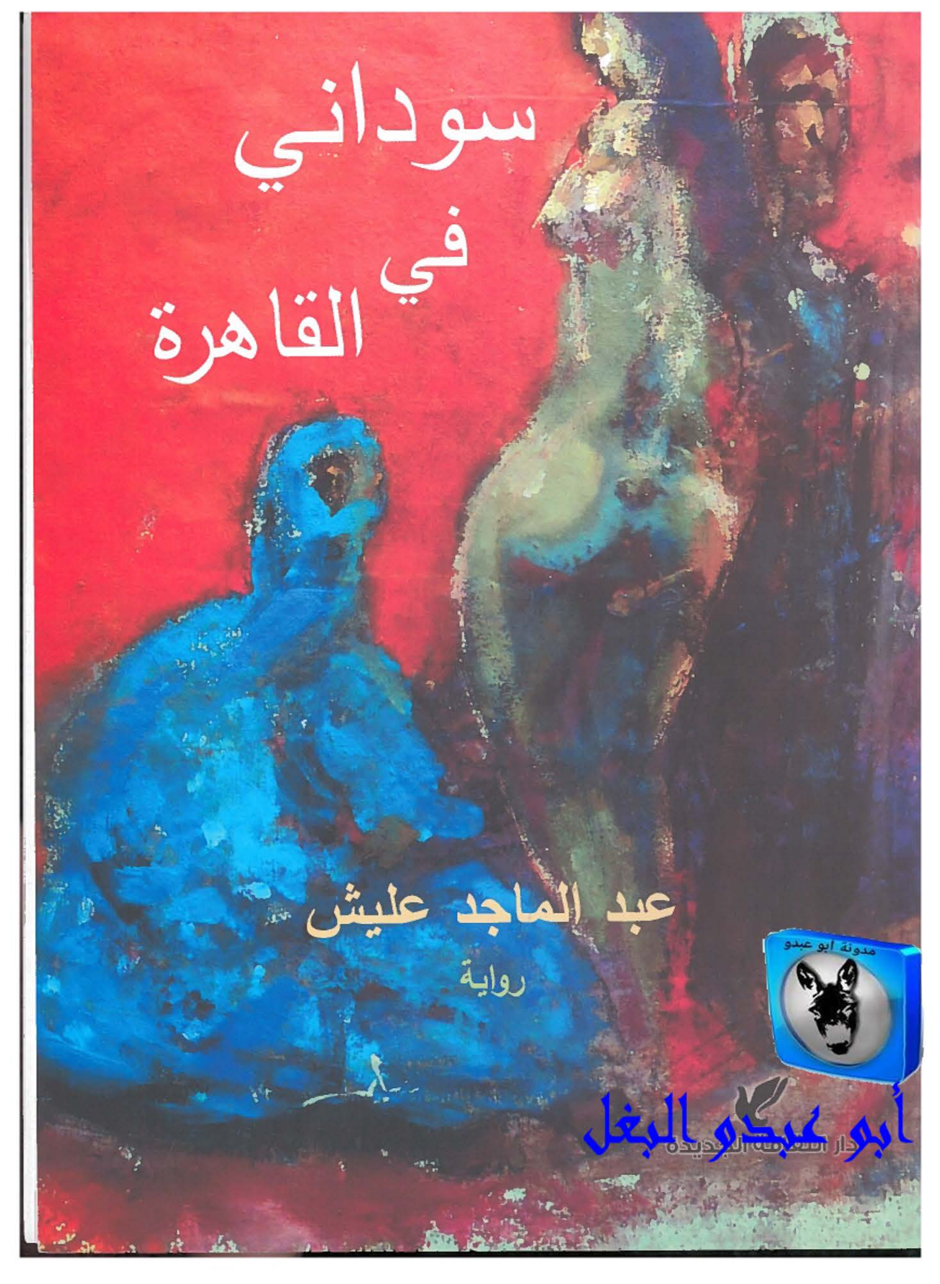

سوداني
في
القاهرة
عبد الماجد عليش
رواية
مدونة ابو عبدو
أبو عبدو البغل

سوداني في القاهرة

رواية

سوداني في القاهرة

رواية

عبد الماجد عليش

الطبعة الأولى ٢٠١٤ م

الناشر
دار الثقافة الجديدة
" شركة ذات مسئولية محدودة "
٣٢ ش صبري أبو علم، باب اللوق، القاهرة
ت وفاكس: ٢٣٩٢٢٨٨٠
e-mail: elguindimohamed93@gmail.com
http://www.facebook.com/Dar.Elthaqafa.Elgedeeda

عبد الماجد عليش

سوداني في القاهرة

روايـــة



دار الثقافة الجديدة

الإهــداء

إلى: مشاعر محمد ساتي...

علَمت الكثيرين اللغة الإنجليزية، على مدى ربع قرن، وهذا فعــل يُعطــى للحياة معنى.. ويمنحها قيمة..

وساعدتني بصبر غير تقليدي...

وأم الولدين..

(١)

الخوف هو ما يُحركها، يُحرك خطواتها ببطء وحذر شديدين قلت لها محاولا إظهار تعاطفي: لن أتركك تصطدمين بشيء. وردت أختي مُستخدمة نغمة صوتها التي تريدها أن تسلك عبر أذني إلى دواخلي: إنها- من زمان- متوكلة على الله. وما غاب عن سمعي ما تضمنه جوهر نغمة الصوت من إثارة مُصاحبة دوماً للسفر: أجواء مطار الخرطوم ، أبواب السيارات تُفتح وتُغلق، وخطوات متعجلة وهرولة، وصياح الصبية والمودعين مع نداء مايكروفون المطار، ورائحة الأجساد المعطرة، وصرير عجلات ما يضع عليه عمال النقل حقائب المسافرين إلى داخل صالة المُغادرة. اللحظة لحظة حياة بالنسبة لها، هي تحقق هدفاً سعت إليه على مدى زمن، وسعيت لتعطيلهُ وتأجيلهُ ما وسعني. مرض السكر أصاب شبكية عينيها ومنذ التشخيص الأول في الخرطوم لم يكن هناك أمل في العلاج، وفى القاهرة أكد المصريون أن ما تبقى من قدرة العينين على الإبصار هو مقدار قليل سيزول مع مرور الوقت إلى ظلام كامل، ولكنها ومنذ خمسة أعوام تداوم بإصرار على الرحلة طلباً للعلاج.

كل من ينظر إلينا ينظر بنظرة تُرسل تعاطف يؤكد بها لِذاتـــه كونه ممن صادفوا نجاة ما أثر تلك المعركة الكبيرة. وكنت أجتهدُ إخفاء كوني ممن تبعثر وتناثر، يتنفسون الهزيمة وتأبى أرواحهم مغادرة أجسادهم.

عند بوابة الدخول لصالة المغادرين: فتح شاب- لا عمل له- جوازات السفر وأخذ يتصنع النظر والفحص. أكرهه منذ ما قبل ميلاده، وبمقدار ما يحس ويعتز مزهواً بوجوده. وشأن الغالبية، هو على يقين من استحقاقه لحال أفضل مما هو عليه بكثير. وسمعت صوتاً من خلفي يقول:

- طائرة المصرية... الميزان مفتوح.. ادخلوا...

وفاضت الإنسانية في تلك اللحظة، فأعلن صوت: سأوصل لك الحقائب حتى الميزان. انت خلي بالك من الحاجة. ولحظت ابتسامتها الخبيثة- التي تنتقم بها من ذاتها - ضمن حوارها الداخلي. كانت قد حجت ونالت لقب الحاجة، ولكن المرض تكالب على أختي الوسطى حتى أحالها إلى الحال الذي تبدو عليه: هيكل لجسد طفل في نحو العاشرة مع النظارة السوداء وعصا المكفوفين الشهيرة. مرض السكر هو الغدر مستتر، وأقراص ضبط ضغط الدم تضبط، لكنها تجهل منبع الوجع السابق لفقدان البصر. وجع لا يكف مُتدفقاً يغمُر روحاً لا تعرف كيف أتت، ولا تملك عن ماذا ولماذا، ومن أين وإلى أين؟ وجع يسري في العروق مع الدم والغضب والحزن والتوتر ويصبح الشحوب الشديد هو السمة الدائمة على الوجه.

تحركت الحقائب في جهاز للكشف عن الممنوع وتقدمنا خطوتين: لحظت أن محتويات أحد الأكياس الذي كنت أحمله قد تناثرت على

الأرض: موبايلات، فلاشات، نظارة طبية، وأقراص ومراهم. فتركت يدها وتقدمت خطوة لكي التقط ما تناثر.

تقدمنا نحو موظفة التذاكر وأحسست في خطواتها بفرحة تُسابق خطواتي وصوت دقات العصا في بلاط المطار يرتفع كنغمة إعلان عن انتصار تؤكده نغمة صوتها: أول مرة نسافر سافرنا من هنا.. أيوه أنا متذكرة!

ناولت موظفة شركة الطيران الجوازات وتذاكر السفر. تواصلت عمليات الحرب الأهلية النفسية: انكسرت العملية الأولى لموظفة الطيران: عملية (نظرة العين) إذ انكسرت قدرتها على التحكم في دواخلها، ودفق لها خوف يخصها دفقة ضلالات من ضمنها تعاطفها مع أختي. ومن جانبي بذلت جُهداً مُضاعفاً كي لا تكتشف عين لا أحس بها نظرة الذكورة الاستكشافية الغريزية الأولى بحثاً عن غنائم الأنوثة. بنت من المُهاجِرات من جميع الاتجاهات إلى جميع الاتجاهات: ملامح جاهلية مع روج عصري وملابس لا تتسق لوناً وخامة وحداثة الألفية، مع كريمات يفوح منها الغش بأكثر مما تُضفي مطلب النضارة والإشراق.

- أختي مريضة.. لا ترى كما ترين، وبسبب السكر والضغط تعانى من الغثيان. أرجو أن توفري لنا مقعدين جوار الحمام.

وقبل أن تجيب البنت تقدمت أختي لتحكى ما فعل السكر بشبكية العين وكيف أفقدها ذلك بصرها، وضمنت الحكي سؤال للبنت عن اسمها.

البنت شأن كل البنات خائفة من شيء، أو من كل شيء، خائفة تترقب ذلك الشيء الذي هن في انتظاره على مدى ثوان حياتهن، ثم يتضاعف خوفهن بعد ذلك فلا يقين ولا ضمان. وجمعت كل ما لديها في صوت اعتذار:

- جئتم متأخرين جداً... صعب والله مقعد جوار الحمام.. و..

نيران المليشيا الحاقدة تكون دوماً اشد عُنفاً: ظهر محارب قصير القامة، مربوع، من طراز تلك المخلوقات التي صادفت طينة خلقها في لحظة نفخ الروح فيها لعنة أو شؤماً أو وباء أو كسوفا أو خسوفا كليا. أولئك الذين تلتقي بهم لأول مرة وتكون آخر مرة فتمقتهم ويمقتونك وكأنما ثأر قديم. أعلن بحسم وهو يتحرك مُنصرفاً لفراغ آخر:

- في آخر الطائرة كي لا تزعج الركاب عند التقيؤ.

استلمت من الموظفة أوراق لتعبئتها وكارت للصعود إلى الطائرة، وتقدمنا، يدي في يدها وهى تصر على الدق بعصاها بقوة على بلاط المطار تأكيداً لجملة أشياء. حتى توقفنا أمام الكاونتر الخشبي المُصمم للمسافرين لكي يدونون بيانات سفرهم. أخرجت القلم ووضعت الجوازات ثم بدلت نظارتي الطبية المخصصة للمسافات بالنظارة التي تساعدني على القراءة والكتابة.

لن ينمحي من ذاكرتي يوم أخذت دموع غزيرة تسيل بلا توقف من عيني مع ألم شديد، وسمعت أمي تحكي للنسوة أن بياض العين صار في لون الدم. مساء اليوم التالي أخذوني للطبيب الذي أعلن بعد فحص طبي في غرفة شديدة الظلام أن عيني اليمنى بها حول ولا علاج سوى الجراحة، وقال أن الجراحة إذا أجريت وأنا طفل فالحول سيزول ولن تفقد العين كفاءتها البصرية، لكن إذا تأخرنا فسنفقد..

أبي لم يأخذني للطبيب بل كانت أمي هي من يأخذنا ما حل طارئ طلب دواء وشفاء لكنه أعلن أن الأطباء السودانيين يقتلون كل من يتقدم لهم طلباً لعلاج بسيط فكيف بمن يسلمهم نفسه لجراحة؟ ومنذ قرار أبي بأن أكمل حياتي أحول العين صار الحول هو الجرثومة- السر، المكونة لمسار حياتي. مثلما لكل شخص جرثومة- سر، هي مركز وجوده ومدار حياته ما تدفقت الأيام وتوالت الأعوام.

كان الحل هو النظارة الطبية التي صحبتني طيلة ما سار وصار من عمري. لم تفعل النظارة شيئاً، لكن تحالف الحول وأبي فعل بروحي كل ما بها من جروح وندوب لا تنفك تجرح ولا تبرح. أدخلني أبي إلى معركة الوجود أو الفناء بدون إمداد بزاد إعداد واستعداد ثم انسحب عائدا لذاته، لم يكن بجانبي عند كل التفاتة وحاجة، لا: بل كان في مواجهتي أحياناً، ربما لم يكن يقصد، ربما لم يكن يدري، ربما لم يعرف أبداً.

ظهر شاب ذو جسد يشي بتدريبات المعسكرات الخفية التي لا يكفون عن إنكار وجودها، ومُخففاً من مخزون العنف المختزن بداخله. نطق بصوت يوحي بانتماء لا يزال للإنسانية: السلام عليكم... إن شاء الله عندكم قلما زائدا؟

أعرف أنهم يختارون فرقة القتلة المحترفين من أميز المتفوقين أكاديمياً عبر كافة المراحل الدراسية وحتى ما بعد درجة التخرج الجامعية. أختي يصعب عليها الانتباه إلى إضافته لحرفي (الألف واللام في طلبه لقلم (القلم) و(الزائد) ناولته قلما:

- مشكلة في البصر كما ترى، وفقدت نظارتي التي أرى بها، سأبحث عنها وأرجو أن تتكرم فتعبئ لها بياناتها ريثما أعود.

وقلت لها أن لا تتحرك أبداً وتحركت مُبتعداً، وحينما عدت وجدت البيانات مُعبأة ولم أكن أتوقع أن أجده.

اجتزنا المدخل الذي عليه ضُباط الجوازات، وذلك بعد أن دق الضابط بالختم في صفحة من الجواز لِيُبين تاريخ مغادرتنا للخرطوم. تقدمنا لصالة الانتظار التي يتم فيها فحص آخر ثم جلسنا في انتظار الإعلان عن موعد إقلاع الطائرة.

في صالة الانتظار يستكشف السودانيين بعضهم البعض بالنظر وبالشم وبقياس ما على الجسد من ملابس وزينة، وباختلاس النظر

للأجهزة: ما بين موبايل ونوعه وسعره، ولاب توب وشركته، وآي باد. حالتنا الماثلة سهلت إصدار حكم جماعي سريع: فرغم أن مظهرنا كان يُعلن عن انسحاب طوعي ومبكر من لِهاث سباق الحياة: ملابس في غاية التواضع على هياكل في غاية الهزال، وأوجه شاحبة كئيبة لا تسر الناظرين: رغم كل هذا فلا شيء يلجم رغبة التشفي إن انفلتت.

في صالات الانتظار في المطارات يمر الوقت ببطء. الحيل متعددة، وأقدم الحيل وسيلة لكسر الوقت كانت الصحف، الآن تُنافسها الشاشات المعلقة التي تعرض مباريات كرة القدم وتُغرى بإعلانات عن مختلف الأشياء. والبعض يحاول اللحاق بإيقاع لحظة عصرية من خلال شبكة الانترنيت. يبقى الأصل في أن أعظم تسلية للإنسان هو الإنسان ذاته. التحديق عياناً بياناً، أو خِلسةً واختلاساً. الإنسان: أقدم مخلوق محارب لا يكف حتى في قمة حالته الإنسانية عن التحسس ولا يتوقف عن التلصص وعن اختلاس النظرة بطرف العين، وفضول قتال لهفة لِمعرفة ما تحتوى حقيبة اليد النسائية تلك التي فُتحت، والعلكة التي تتحرك في ذلك الفم. وذلك الحديث ما بين أب وأم وأطفال، أو أخت وأختها، صديقة وصديقتها. يظل هو الإنسان: يحاول أبداً الاقتراب من الإنسان ويحاول التحدث معه يحاول معرفة شيء ثم أشياء ثم كل شيء، ويستمر الرصد المتأمل الصامت. أختي تتحدث بدون انقطاع. ظللت لوقت طويل أتعلل بأن مصر فيها ظروفا استثنائية ويمكن أن تنتظر، لكن جاءت لحظة نفذ فيها صبرها وانهارت تبكى مُطالبة بالإسراع بمنحها حقها في التمسك بأي بصيص أمل قيد الاحتمال.

بين يدي جواز السفر الذي استخرجته لأول مرة في حياتها حينما ذهبت للحج. كان ذلك قبل عام من غدر السكر بِشبكية عينيها. وتوقفت عند تاريخ ميلادها. إذا وجدت من الإناث من تذكر تاريخ ميلادها

الحقيقي فهذا استثناء! ووجدت أن أختي أنقصت سنتين من تاريخ ميلادها الحقيقي. ومن خلال البصيص المتبقي لها رأتني وقالت لي بصوت فيه خبث:

- أيوه أحب أكون صغيرة، بالمناسبة أنا لسه إنسان ولم أمت بعد، حتى لو كنت عمياء عندي حق أعيش والا انت عايزني أدفن نفسي بالحياة؟

لم يكن ممكناً أن أقول لها أن إخفاء الأنثى لعمرها هو جزء من غموض الأنوثة وأسرارها وان لا عبث أكثر من محاولة التفسير. لا مُعاداة للأنثى سوى محاولات تفسيرها وِفق منطق. تهُب فجأةً ثم تهمد وتخبو لتعاود ثانيةً من جهة غير تلك ووفق إيقاع مناقض، لذلك تشاهد ما يصدر عنها من فعل كمثل ما يتلقي الآخر، ثم تصبح وهى في لجة المُفاجأة مُلزمة بالدفاع إصراراً وعِناداً وتبريراً ومُكابرة. الفعل الوحيد الذي لم تفعلهُ الأنثى منذ وُجِدت هو الاعتذار. لا تعتذر أبداً، ولكنها تُفعِل بمهارة هي أقوى منح الخلق لهن: الدموع! ولحظة تسيل الدموع تكتمل الأنوثة وتضطرب بوصلة الذكورة وتختلط الاتجاهات ثم تنعدم الرؤية.

-وفى النهاية الحياة عملية حسابية حصيلتها صفر.

نطقت الجملة الأخيرة بصوت مرتفع وحالما سمعتني رددت بصوت مسموع: الله يرحمه ويغفر له. كانت جُملة لا يكف والدنا عن ترديدها. وحالما تذكرتها انفتح باب مخزن أبي في ذاكرتي وراحت الصور والأصوات تتدفق.

في صورة الجواز شبه كبير بينها وبين والدنا. أورثها ملامح بينها وبين أي لمحة جمال مسافات. كانت عينيه جاحظتين بشكل مُلفِت للنظر وأنفه أفريقي ينفي أي عرق عربي في سلالته. تاريخ ميلادها الأصلي

يوافق ما بعد العام الذي أرجع فيه أمي إلى عصمته الشرعية بعد طلاق استمر لأربعة أعوام، ولم يكن صعباً استنتاج أن أختي الوسطى جاءت للدنيا كنتاج لأول ممارسة للجنس بعد الطلاق، فهل مأساتها في كونها نتاج لِلحظة مضاجعة الضرورة تلك! إذ لا يتم التوقيع النهائي عند الصلح ما بين زوجين إلا بمداد ماء الجنس. وربما يكون غالبية الأبناء نتاج لحظات صلح لحظة المضاجعة. ماء الحياة الذي يدفقه الذكر لتلقيح الأنثى لا يحتوى- فقط- على الجينات فلحظتها تكون أرواح الاثنين مُشبعة بروحانيات هي زُبدة ما بينهما من رغبة في إنتاج مشترك، أو النقيض. ويظهر في الإنتاج جوهر رغبتهما في بعضهما البعض، ويظهر ما كان مُضمراً أيا كان.

ليست لحظة الصورة، بل في كل لحظة في مسار حياته مع أمي ومعنا على مدى أربعين عاما وحتى مضى والدنا مُغادراً الدنيا. بعجز كامل عن النسيان أو الغفران ظل يحكى لي ولأخواتي حين يحتد مع أمي عن حادثة الطلاق، بل ويعلن عن ندمه بشأن زواجه، ثم عظيم ندمه بشأن سوء حظه الذي تواطأ مع القدر ففرضا عليه العودة ثانيةً. قال إنه اشترى لأمي عند الزواج ذهباً بمبلغ ستين جنيها. الدنيا كانت في بداية الخمسينات من القرن الماضي. ستون جُنيهاً تحصل عليها نتيجة بيع نصيبه في ميراث تم تقسيمه. كانت وقتها مبلغاً يصنع مستقبلاً ويحدد مصيراً. قال إنه لم ينتبه إلى أنها كانت تتصرف في الذهب وتصرفه في السوق عن طريق أحد الجيران وبدون أن تشاوره أو تعود إليه بالخبر عما فعلت ولماذا فعلت. حتى سأله- محض صدفة- الجار الذي كانت ترسله للسوق ليصرف لها الذهب عن سر حوجته الدائمة للسيولة المالية إلى حد صرف الذهب، ولا عبء معيشي عليه وليس لديه حياة خاصة تستنزف الذهب، إلى سيولة دائمة؟ قال إنه أصيب بدهشة صاعقة وحينما

سألها أُصيبت بإغماء من الرعب. كان له جملة قاسية يرددها كلما حكى ما أسميته سرقة الذهب الكبرى (بس يا ابني، ومن تلك اللحظة نفسي زهدت تماماً في الدنيا بكل ما فيها) وكنت أحس بمدى ألمه لكنني فشلت في تفهم عجزه عن المسامحة والنسيان. فالحياة لا تكون أبداً من خلال فرصة واحدة، ولا تتوقف بسبب غلطة واحدة، ولا تتدفق وفق محاولة واحدة هي الأولى والأخيرة.

المحاكمة السرية العلنية ما بين الأبناء والآباء لا تنقضي أبداً: أحياء أموات. وأعلنت له بصوت عال ويدي تشير إلى أختي:

– هذه هي النتيجة.

نظرت إلي بدهشة وقالت بانزعاج:

– بسم الله، مالك تتكلم مع نفسك بصوت عالي!؟ الناس يقولوا علينا أيه؟ عمياء ومجنون؟ يعني فضيحتين بدل فضيحة واحدة؟

أبي على المقعد المواجه لي ويرفض أن يغادره. يحدق في ولا ينظر إلى أختي ويدها على عينيها ويدها الأخرى على المسبحة تجر حباتها بين أصابعها بعدد معلوم لها في سعى قد يُستجاب له في لحظة ما.. فتسترد بصرها. لم أحببه يوماً حباً خالصاً مثلما لم يحببني أبداً حباً خالصاً.كانت أحاسيسه مشوشة دوماً بشأني وإن كان النفور هو الغالب. بين.. بين. أمر لا يحتمل. الطفل يحتاج إلى والديه يتدفقان فيه حنان بلا شواطئ. يطمع الأب بدايةً أن ينال حظوة الأبوة ثم فيما بعد يضع اليد على نجاحات الأبناء ويسير بها زهواً واختيالاً. الأطفال يحسون منذ النظرة الأولى، منذ دفقة المشاعر الأولى مُتجِهةً إلى دواخلهم. يشعرون بمن يحبهم، أو بمن يتصنع محبتهم، أو من ينفر منهم. ذلك الإحساس الذي يسلك سبيله إلى دواخلهم يسكن فيها بلا فراق.

كان ملتزماً في عمله، لكنه لم يسع أبداً إلى زيادة دخله الشهري. لم يعبر بخاطره ولا عفو خاطر أن يمارس عملاً إضافياً، أو أن يسافر لدول البترول. المرتب الشهري لتوفير ما تيسر من وجبات، وخروف الأضحية. الحياة لا تستحق: كانت تلك إجابته الوجودية لخاصة نفسه، لكنه وحد الإجابة على أربعة بنات وابن وزوجة لم يكن يُريدها. وبعد ثلاثة عقود من المعاناة وتحمل الأم الشجاع توفر مرتب إضافي من البنت الكبرى ثم مرتب من أختها، وكان هو على أبواب المعاش. استمر في مشروعه في طلب الأمان الشخصي وكان يؤكد أنه يدعو للكل. زادت جرعات العبادة والدعاء والأوراد في نداء استغاثة لا ينقطع طلبا للغوث من غدر القدر. خوف الدائم من كل شيء، خوف عاصف لم تُسكنه كل جرعات القرآن والأوراد. وظلت النتيجة: الحياة عملية حسابية نتيجتها صفر.

أعلنت له بصوت أعلى من السابق:

- نحن صفرين الآن.. فهل أنت مبسوط؟

قالت أختي: اسمع، والله تنطق كلمة تاني أقوم وارجع البيت، لو ما عايز تسافر معي أنا لم أجبرك. أيه عدم الذوق وعدم الإحساس ده؟

كانت تلك أعوام عسر. خلالها كان يهددنا بالموت عند طلب الطعام إذ ما أن تطالب أمي بمال مهما قل مقداره إلا وينفجر ثائراً، ولا يتردد أبداً في الدعاء علينا بالموت واحداً تلو الآخر مُصوباً أصابعه نحو كل منا على التوالي. كنت أحس بزلزلة تزلزل كياني ويجتاحني ضعف تام أغمض عيني واحلم بوالد آخر. كم رجل تمنيت حلماً أن يكون لي أباً وكم والداً في الخيال جعلت منهم قُرة عين لي؟ أما في الواقع فلم يكن أمام أخواتي سوى خلع الزى المدرسي والبقاء في البيت .

طبيعي جدا أن تأتى أخته وأن ترافقها أمي مع نساء من أهلها إلى منزل الداية التي قامت بتقطيع الأعضاء التناسلية لأخواتي، ثم أحكمت الإغلاق بخياطة محكمة لِجراحتها البدائية غير الإنسانية. ولم يصادفني من دمر الختان الفرعوني جهازه العصبي مثلها.

الرجل الذي سمح بأخذ بناته لإجراء الختان الفرعوني لهن كان قارئاً مُطلِعاً على كل ما تنتجهُ مكتبة مصر: كل ما يكتبه سلامة موسى ومحمد مندور وطه حسين، وما صدر عن دار الهلال. يحتفظ بديوان الشعر العربي كاملاً. مجلة الرسالة والثقافة وحتى العدد الأول من مجلة العربي. الطليعة اليسارية، ووجدت تعليقات بخط يده بقلم رصاص على كتاب ما العمل؟ لفلاديمير لينين! مجلة الآداب والمسرح. وهو نفس الرجل الذي كان مرابضاً لا يتغيب أبداً عن درس الفقه في خلوة المسجد. وبعد الصلاة والدرس يعود ليستلقي بمزاج شديد على فراشه مستمتعاً بدقات (هنا لندن هيئة الإذاعة البريطانية) متتبعاً أخبار العالم وصراع الاشتراكية والرأسمالية وسباق اكتشاف الفضاء.

ربما لم يكن لديه ما يكفى لإطعام خمسة أطفال، لكنه كان متواطئاً في الخنوع لتراتبية التصنيف الاجتماعي له ضمن المُعسرين ما يحدده في وضع اجتماعي أقل، وعليه أن يعلن خضوعه علانية. ربما لهذا كان يسخر من فشل بناته سرا وعلانية، وكان يهدم ما بقي فيهن بإعلانه لهن أن بنات إخوانه ينجحن بينما هن لن يعرفن للنجاح سبيلاً! ثم ينصرف إلى منزل أمه وأخته، ويأتي بقية إخوانه فيجتمعون لإعادة إنتاج ذواتهم: شرب القهوة وإعادة تصنيف الناس من موقع أعلى، ثم ينهضون وهم الأفضل بدون شك وقد صار الغيب مضموناً في جيوبهم بالمقدار المعروف من الأوراد والتسبيح وتلاوة القرآن ثم الصلاة.

الخوف والإحساس بالنقص والعجز عن القدرة على أي فعل إيجابي هما سبب السقوط المتكرر للبنات في مختلف مراحل الدراسة. أمي كانت تسقط مريضة كل يوم ما بين آلام الباطن ووجع الظهر المزمن، ومشاكل الغدد التي جفت ونضبت وكفت وهى بعد في الثالثة والأربعين. لم أره يوماً يرافقها إلى طبيب، نسوة من أهلها يُرافقنها، وكان الرعب يشلنا ونحن نرى الغرفة الوحيدة تغلق عليها وهى تتقيأ باستمرار أو حين تصرخ من الآم الظهر. في المدرسة كان طبيعياً أن تعجز أختي عن التركيز،ويتركز عجزها في مُتابعة مسائل الرياضيات، وعندها يصبح أكثر من طبيعي أن تنهال صفعات مُدرسة الرياضيات عليها بشكل يومي، عادياً يحدث هذا في مدارس كان يحدث بها ما هو أبشع للأطفال من الجنسين طبيعي إذن أن ترسب أختي في امتحان الشهادة الابتدائية، وطبيعي أن ترسب أيضاً عند مُحاولة الإعادة. لا أحد هناك يمد يد المساعدة في مذاكرة أو توجيه أو حتى تشجيع. المنزل مشحون بكل ما هو قابل للانفجار في كل ثانية ومع الرسوب المُتكرر تتراجع الثقة بالنفس إلى ما دون الصفر فتتزايد كراهية الذات.

لعبة الزواج جزء من لعبة التراتبية. النسب إلى فلان، صهر فلان الذي أخذ بنت فلان الذي كان، أو الذي هو أصلا.. ومن زمان! في الجوهر: الرجال يعقدون صفقات في فضاء الوعي الجماعي البدائي وبدون أن يحسون، وفى المظهر يبدو الاختيار شخصياً جداً، بل أن قصص الحب ولا أروع! مدججين بشهادات أعتى قلاع العلم الأوربي وتنتهي بهم خطواتهم لبنت العم والخالة. الظاهر أنه لم يكن يعرف كيف أو ربما كان لا يرى ضرورة بدأ الرجال يتقدمون ويخطبون بنات أشقائه وبنات الأخت ضمن خطتهم لاستمرارية الحياة لا إنكارها. ولأن إنكار الحياة كان موقفه وشعاره يكون طبيعياً أن يتم تفاديه هو شخصياً عبر

تجاهل تام لبناته، فيزداد مقته للوجود، ويفور بُركان السخط: هناك سبب وراء كل هذا النحس.الزوجة المغضوب عليها: أيوه، انتي السبب انتي السبب. هو ضحية لكل هذا الإخفاق، أو لم تنته الحياة منذ سرقة الذهب الكبرى؟ إذن لن يصادف البنات نجاح في تعليم ولا زواج.

أيام الحياة تتعاقب وتوالى تعاقبها يزيد من نمو جسد الطفلة إلى جسد أنثوي عبر زيادة إفراز الهورمونات إلى حد إعلان التحولات التي تتبدى للأعين وتلك التي يتم إخفائها لارتباطها بالنجاسة والشياطين. كان الرعب مسيطراً على كلماته وهو يكرر: لا تلقوا بقطع القماش التي عليها دم الحيض في المرحاض لأن الشياطين تسكن في المرحاض وستضربكم!الدم ونجاسته، والجسد وضرورة سُترته، الانتباه والحذر التام من العين التي تخترق الأجساد فتؤذى. والحذر البالغ من الذات – ذات نفسها– وما قد تؤذى به نفسها.

استمرت أختي ترسب واستمز أبي يسخر من محاولاتها. لكن كان لابد أن تغادر مرحلة الابتدائية فقد أكملت تحولات البلوغ. المرحلة الثانوية الوسطى هي ما بعد الابتدائية وما قبل المرحلة الثانوية. مرة أخرى نفس الرجل صاحب الاشتراك الشهري في مجلة قضايا السلم والاشتراكية يحدد بحسم: لا داعي لمواصلة التعليم فهي بنت فلتجلس في المنزل. قالت أمي إنها ستعمل. بدأت في تعلم خياطة الملابس، لكن سعر ماكينة الخياطة ماركة سنجر كان سبعة جنيهات وسبعة جُنيهات كان رقماً كبيراً. مرضت أمي مرضاً شديداً واضطر أخوها لدفع رسوم أختي الدراسية في مدرسة شعبية للراسبين.

ثلاثة أعوام أخرى أعقبها سقوط في امتحان الوصول للمرحلة الثانوية ما قبل الجامعية وهذه المرة كانت جاهزة من تلقاء نفسها فسارعت بالالتحاق بوظيفة مشرفة على أطفال روضة في الحي.

هل كان يدور في دواخلها ما يدور في دواخل كل بنت من بنات حواء في سن المراهقة؟ أم كان هناك سعي مستمر منها بوعي أو بدونه لقتل كل نزعة أنثوية تومض في ظلام دواخلها؟ البنات يتحولن إلى أمهاتهن- لا مناص- إلا في حالات بالغة الندرة ينفرن منهن نفوراً استثنائياً مُلغزاً إلى الأب؟ ولم ترَ لدى أمها حتى الكحل، أو اهتمام بنقش زينة الحناء أو طقوس التزيين بالدخان والعطور الشعبية. حتى الملابس ألوانها فيها بُعد عن الاحتفاء بالحياة. لكن الإنسان أبداً أسرار وهناك دوماً ومضة حياة أخيرة تتراقص: كانت تهتم بالزرع (أصص الورد) ترعاها فترة، ثم تهملها، ثم تعود إليها. لا صداقات مع بنات. فالتحذير كان واضحاً بل صارماً:الابتعاد عن بنات الناس (بنات- الحلة) اللاتي يأتي منهن الفساد. اختار لبناته ما ظل يجاهر مفاخراً به: هو بلا حياة جنسية وشهواته تحت سيطرة جبروت عقله وهو ليس كمثل من تذلهم هزة الجماع وما الرعشة وثواني القذف سوى مذلة حيوانية لا يسعى لها طلباً سوى الإنسان الضعيف. وربما لاحظ وتظاهر باللامبالاة أن بنات أخريات في العائلة أنجبن وصرن أمهات، ضمن سباق الكائنات العبثي والذي بقدر ما هو بلا معنى فبِقدر ما هو مطلوب.

كانت إجابة بناته إجابة موقن بأن أب كهذا لا يمكن أن يتم لهن زواجاً ولو من مساح ارض يعمل تحت إمرته. فصرن يقمعن أي مظهر من مظاهر الأنوثة ضمن احتفاء بالحياة. وظهر الحجاب وزادت جرعة التدين وارتفع معدل التركيز في الطعام في النوع والكمية، والتحقت الكبرى بالتدريس ثم اختها. كان يقول أن التعليم هو العمل الوحيد المضمون للبنات لأن الرجال لا يعملون في مدارس النساء. وكن يومياً يجتمعن بعد وجبة الغذاء للحديث عن كم الأخطاء الذي ترتكبه أولئك الغافلات، وعن الخسارة التي تلحق بهن وعن الندم الذي سيلحق بهن بسبب الجري خلف الرجال. كل الحديث يدور عن الصواب.

لا حبيب سرى ولا رجل علني، بل لم تحك يوماً عن تعرضها لمعاكسة في الطريق. لا حلم ولا فارس للأحلام؟ ولكن إلى متى؟ ففي كل حياة لابد من حدث درامي كبير. فمتعة القدر الكبرى هي العبث بمصائر الأحياء! في الغالب أن يوم اليقين كان هو يوم ظهور التليفزيون في بيت الجيران. للصورة تأثير أقوى. كنا نذهب سوياً ونجلس على الأرض ونتابع ما يظهر على هذه اللوحة الزجاجية والتي يظهر فيها أناس يفعلون أشياء متعددة ويتحدثون وتظهر سيارات وطائرات. هل كان التلفزيون- الشيء، هو الحبيب السري الأول لها؟ ربما! لأن تعلقها به استمر طيلة العقود التالية. وكانت تقضى وقتها شديد الخصوصية معه. تنظر باستغراق وبحذر. وحتى بعد أن فقدت القدرة على الرؤية ظلت تتابع التليفزيون استماعاً.

كانت تقوم بتوفير جزء من مرتبها في صندوق شهري وساعدها التوفير على التسجيل في مدرسة ثانوية عليا مسائية. بعدها تقدمت لامتحان الدخول للجامعة فرسبت، دفعت الرسوم مرة ثانية وتكرر عدم النجاح، ثم في المرة الثالثة نجحت والتحقت بجامعة. جزء من مرتبها كانت تدفع منه رسوم لمكتب تعليم الطباعة على الآلة الكاتبة. وأنجزت عُدة كورسات وأصبحت تعرف الطباعة.

وفى نفس العام ظهرت لها فرصة عمل كطابعة في كلية جامعية تلك لحظة تذكرها فيها القدر. القدر يراجع أسماء البشر يومياً ويتم التداول حول مصير هذا وذاك! وما يُمتحن به هذا، وما يُرسل إلى ذاك دون أدنى ذرة تعب (هبة من القدر) ولكن البشر كثير،البشر أكثر مما يتسع المزاج العبثي للقدر الذي جاء بهم تسليةً لانهائية عبر مختلف تقلبات حيواتهم! صادف إذن اسمها – وكان عادةً يسقط سهواً أو عمداً- صادف ابتسامة قدرية.

الابتسامة القدرية تحولت إلى مكيدة قدرية. طلب بنك إسلامي استثماري طابعات على الآلة الكاتبة، مع دورة تدريبية على جهاز الكمبيوتر- أول أنواع الكمبيوتر- فقدمت أوراقها. لماذا يوجه القدر ضرباته القاصمة للضعفاء؟ تم اختيارها للعمل في البنك كطابعة! قالت أن الاختيار وقع عليها بسبب سرعتها في الطباعة. ربما ولكن!؟ كانوا بحاجة إلى خام: مُحافظة جداً، لا ترى ولا تسمع ولا تتكلم ولا ترغب في أي شيء. لا مال ولا رجال وحتى كحل العينِ تُخاصمه. هي إذن بنت اللحظة ومطلبها لمكتب المدير وكيف لا وهي تؤكد فيما بعد إنها رأت أسامة بن لادن يتردد على مكتب مدير البنك ويدير أموالاً ولم تكن تعرف من هو وأي نشاط استثماري لديه، لكنها تذكره جيداً: طويل ونحيل وجلبابه ناصع البياض والمسواك لا يفارق فمه، والصندل الخفيف الذي يرتديه.

مع مرور السنين وتحول اتجاهات المال الإسلامي الاستثمارية إلى اللعب المكشوف مع شبكات المال الدولية ضمن مُسميات العولمة وانفتاح السوق الدولية والمناطق التجارية الدولية الحرة: مع التحول ومرحلة تخفيف اللحية لم تعد مُلائِمة لمكتب المدير.أصبحت هناك متطلبات للحظة الجديدة للمال الإسلامي- الاستثماري وهو بصدد إعلان زواجه السري من المال الربوي الرأسمالي العالمي. أصبحت بنت البنك المطلوبة بنت مُحجبة بحجاب يكشف- ضرورة- عن ملابسها الداخلية (إظهار رقم) ولا ترى حُرمة أو خجل في البقاء مع المدير في مكتب مغلق بعد ساعات العمل الرسمية حتى يكتفي العمل فينطق حلالاً من الدقة المفرطة: الحمد لله على نِعم الله، ثم يخرجان معا إلى مكان لتناول وجبة الأسرة الخرطومية في مرحلة الدولة- الإسلامية العصرية التي - الأسرة- لم تعد ترى نشازا في وصول بكرهم المصون للمنزل بعربة

المدير أو أخوها في الله- في العمل، من بعد صلاة العشاء ولا عورة ولا نكران ولا خجل. مُحجبة أم ليست مُحجبة؟ مُحجبةً- طبعاً! أما الفحل المجاهد فأمامه جهاد آخر في منزله حيث أم العيال والعيال. صلات المصاهرة ما بين شبكة المال الإسلامي والرأسمالي الكافر تضمنت: تجارة العملة ومضاربات البورصة، إعداد وتأهيل الكوادر العصرية الإسلامية الاستثمارية، أسواق التقنيات وتوسيع سوق الإعلام بمختلف أنواعه، سوق الإعلام الفضائي، تحويل التعليم في مختلف مراحله إلى بيزنس - استهلاكي.

لم يكن في مقدورها الانتباه إلى ما يدور حولها. حدثت في البنك أمام عينيها أحداث لم تُنبهها إلى أن الموجة القادمة لا يصلح معها تصنيف صواب أم غير صواب. البنت التي لعبت في قسم التحويلات الأجنبية مع حبيبها في قسم آخر، ولم تكن محتاجة إلى مال لكنها استطاعت تهريب أكثر من نصف مليون دولار- مُتعة وإثارة وشطارة مع حبيب هو غيرالحبيب الخطيب التقليدي. وكان ختام المشهد الهروب إلى بلاد تمنح جنسية وجوازا غير اللجوء والحصانة. والبنت التي كانت تتعامل مع التجار والوكلاء ورجال الأعمال وتسافر إلى سوريا وإلى الدوحة وتأكدت كمليونيرة بالضبط في لحظة إعلان القبض عليها وحبسها. ومن الحبس مباشرة إلى مقر إدارة شركاتها! بعد أن دارت أموال شركاتها دورتين لا غير على مدى عامين لم تعد تطيق حر الصيف ولا عذوبة ماء النيل، وأضحى قدراً أن يخرج المال الأجنبي ليلحق بأموال في بلاد أخرى. قامت بتصفية قانونية علنية لشركاتها وهاجرت إلى ماليزيا. والبيزنس هناك أيضاً إسلامي. لم تنتبه-أختي- أم لم يكن بمقدورها أن تنتبه؟

بمنطق الواضح الفاضح أعلن مدير متلائم مع مرحلة المال الاستثماري- الإسلامي الجديدة عن حاجة مكتبه لسكرتيرة تجلس وترقد

على الطاولة ضمن برامج ترقية الموارد البشرية. فوراً تم نفيها إلى مكتب فيه موظفة متقدمة في السن وكهل يقضى آخر سنواته استعدادا للمعاش وصبى للشاي. وأخذت تقضي وقتها في الاستماع للقرآن وقراءة الصحف حتى جاءت مرحلة الخصخصة فكان طبيعياً أن تكون في أول قائمة المغادرين. أخذت مُستحقات خدمتها ووضعتها كوديعة استثمارية تعيش من عائدها. ومنذ أن ظهر اسمها ضمن المفصولين لم تكف عن الدعاء على الظالمين.

حاولت البحث عن عمل ولكن كان الوقت متأخراً جداً ولم تعد هناك حتى مجرد هُدنة ليضمد جرحى المعركة الكبرى جراحهم. يتطاول ليل من كان يعمل في وظيفة ثم يجد يقظته تحسب ساعات الليل حتى إذا ما أصبح الصباح، لا عمل لديه ليذهب إليه، فتتثاقل الثواني والدقائق وتتوقف تماماً الساعة. بدأت في خياطة وتطريز الثياب النسائية لمدة عام حتى فوجئت في صباح نحس بداهية عينيها. اتصلت بي لتخبرني أن طبيب العيون أكد لها أن السكر قد أتلف شبكية عينيها، طالبةً مني مرافقتها للعلاج بمصر.

ظهرت سيدة في منتصف الثلاثينات وجلست بجوارنا، معها طفل في السادسة أو أقل. مُخالفةً للسودانيات في المطارات: لم تهتم لا بنقش قدميها ويديها بخضاب، ولا بزينة حُلي ذهبية. اسكيرت أسود، وتى-شيرت أبيض واسع في جسد عصري، وحقيبة يد سوداء. كل الجمال في إهمال مثير لخصلات من تسريحة الشعر تُعيد كل لحظة تجميعها، وخيط خفيف يكاد يكون شعر أو هو شعر ملتصق بالعنق، إثارة استكملها وضع ساق على ساق بما سمح بكشف لون بشرة فارقت اللون الأبيض إلى ما هو أجمل. أنثى من اللائي تكتمل أنوثتهن بشيء ناقص في مظهرهن:

انشغال عفوي، استغراق في ما لا بوح به. أهي يسارية مُتقاعِدة صارت تعمل في منظمات أجنبية؟ أم أنثى في دنيا تسع كل الاحتمالات؟

وهمست في أذن أختي أن تسألها عن الفنادق في القاهرة؟ وعن أسعارها؟ المهم أن نسمع صوتها.

حين تتحدث أختي مع كائن من كانٍ يخرج صوتها مُرتبكاً خُافتاً وكأنها على ثقة من أن الرد سيكون قمعياً. وسمعت همسها بدون تمييز لتفاصيل السؤال، لكنني استمعت أيضاً لصوت واثق يُعلن أن طائرة أخرى ستحلق بها إلى لندن.

ما أن يتم الإعلان عن بدء إجراءات الصعود للطائرة حتى يمارس السودانيين إحدى عاداتهم فيهبون في لحظة واحدة ويسارعونٍ جميعهم في لحظة واحدة إلى باب واحد وكل واحد منهم أكثر إصراراً على أن يكون الأول متقدماً حتى على زوجته وعياله! غير ذي ثقة من أن ما بين يديه يؤكد له أن الطائرة لن تقلع أبداً بدونه سيما وأن لديه رقما محددا لمقعد بعينه. تزاحمنا معهم، ثم أعلنت أن أختي مريضة وأن الزحام يكتم أنفاسها. وأخذت أدفعها في وسط الحشد المتجمع أمام الباب، وشممت رائحة الجسد السوداني الذي لا تجدي معه قوة تركيبة مادة العطر وكثافتها. على مضض أخي مقت تركونا نتقدم، ونظر العسكري إلى الجواز وإلى كارت الصعود للطائرة، ثم تقدمنا لنصعد إلى الباص الذي ينقل الركاب للطائرة. وقلت لها وأنا أضغط بيدي على يدها بقوة لكي أشجعها أكثر: أن تُجمع كل قوتها وترفعٍ قدمها اليمنى لتصعد إلى الباص. جلست هي على كُرسي وظللت واقفاً. ولما توقف الباص قرب الطائرة قلت لها أنٍ تنزل بهدوء، وإن سلم الطائرة طويل لكننا سنصعد بهدوء ولكن أيضاً بسرعة حتى لا يتضايق الركاب المتلهفين مثلها للجلوس على كرسي الطائرة.

كانت تصر على أن تُظهر عصا المكفوفين: وأخذت تدق بها سلم الطائرة مع كل درجة سلم تتجه بها إلى أعلى، وكان جسدها كله يرتجف ومن فمها كانت آيات القرآن تتردد بصوت مسموع. عند باب الطائرة مد مضيف مصري يده وأمسك بيديها وقادها إلى الداخل ثم نادى على مضيفة، فنظرت إلى كارت الصعود وقادتها وأنا خلفهما عبر ممر الطائرة إلى آخر مقعد. جلسنا، وما أن حاولت أن أمد يدي لكي أساعدها في ربط حزام المقعد حتى سبقتني بحماس إلى ربطه، ورفعت رأسها إلى أعلى وكأنها تُعلن عن شيء كان قد تم إضماره ما بينها وبين نفسها. كانت لحظتها: أخيراً ستصل إلى القاهرة وستقابل طبيب العيون الذي سيفحص عينيها وسيقرر لها علاجاً سيُساعدها في الحفاظ على ما تبقى لها من قدرة على النظر. كانت تقول بثقة إنه سيُقرر لها جلسة علاج بأشعة الليزك ونظافة للعدسة الاصطناعية، وهذا سيُزيل العتمة السوداء التي أصبحت تمنع حتى ذلك القليل المُتبقي والذي كان يسمح لها- بصيص- برؤية الناس فصارت لا ترى سوى هياكل سوداء تتحرك. وقالت إنها ستقابل دكتورة الغدد والسكر وضغط الدم، وستسمع منها أسباب العرق الغزير وأسباب الألم في الكلى، وأسباب الإمساك المزمن، وهل لديها أعراض مرض خطيرة يُنذر بقصر عمرها؟

بدون تفسير، ومنذ المرة الأولى وهى تعلم: لاشيء يُرعبني كالطيران. لكن فرحتها كانت فوق خوفي وفوق كل شيء. قادتني خستي لاختلاس نظرة لتعابير وجهها في لحظة فرحها الممزوجة بجنون ما! فمجمل الأحاسيس ما بين فرح وحزن وغضب وحب وكره ويأس عند درجة ما.. ممزوجة بالجنون أو نتاجه أو قمته أو جهد مضاعف لإخفائه. ربما تكون ذكرى ممن أكد لي أن الجنون هو أعلى درجات صدق الذات في مواجهة هزلية تفاصيل الوجود ما بين نجاح متفق عليه،

أو إخفاق مختلف حوله، في سباق السعي الحثيث للإنكار وللفرار. حاولت أن أشغل نفسي بِمُتابعة أوجه الركاب وهم يفتحون خزائن الطائرة ويضعون حقائبهم في داخلها ثم يغلقونها. يتحركون بثقة شديدة في ممر الطائرة وكأن لا شيء سيحدث. لا حل سوى إطالة النظر باستغراق للركاب للهروب من جنون حديثها المبتهج من موضوع إلى موضوع. أخشى ما أخشى لحظة يشتد حصارها بالكلام فينطلق مني لفظي قمعياً ويعقبه تواً ندم متوتر! لا يوجد أقسى من قمع رغبة الآخرين في الكلام: أن تنهر الآخر، أن تزدريه بنظرة حاسمة تحدد له مكانته ومقداره، نظرة كرصاصة قاتل محترف. لا يوجد أقسى من الصمت المترفع أو الاستماع المُتصنع.

– نقابل دكتورة كريمة الليلة... علشان نبدأ طوالي.

– لم نصل إلى القاهرة بعد؟ لماذا لا تفكرين في أن هناك احتمال أن تسقط الطائرة؟

– إن شاء الله نصل بالسلامة.

وسرحت في أن هذا الحديد الطائر لو سقط منه فقط مسمار صغير، أو تعطل أي من الأجهزة بسبب سوء الحظ، أو لمجرد عبث القدر بمصائر البشر، فسرعان ما سنتحول من حشد أحلام وآمال وطموحات وتوقعات ومعاني لآخرين، إلى عناوين في صفحات الصحف وفي مُقدِمة نشرة أخبار الفضائيات عن أسرار الطائرة المنكوبة.

في هذا بالذات أجد تشاؤم والدنا مقبولا لدي: كان يقول إنه ما عبر جسر النيل الأبيض ما بين ام درمان والخرطوم إلا ويبدأ في التسبيح (يا لطيف.. يا لطيف) من مدخل الكوبري وحتى يخرج منه، في الذهابِ وفي الإيابِ وعلى مدى أربعين عاماً، مؤكداً أن الحياة بقدر ما تتدفق

بالمألوف وتُغرى باستمرار الإيقاعِ الرتيب بقدر ما تضمر، وفى ثانية فقط، حين تكشف بما يصعق مغيراً كل مألوف. فقط في ثانية يمكن أن يصير كل الموجودين بكل حيواتهم إلى لا شيء، ويُلزم التغيير آخرين بِعقود جديدة مع الحياة وأيضاً بدون أي ضمانات .

– أنا عارفة إني أضايقك بالكلام، ولكن انت عارف إني كنت في سجن! منذ ستة أشهر لم أخرج من البيت! ولم أتحدث مع أحد ولم أقابل أحد ولم يسمعني أحد! حاولت الذهاب إلى مركز المكفوفين، وذهبت المرة الأولى والثانية ولكن المواصلات عقبة كبيرة! من يأخذني إلى هناك وأنا ما عندي إنسان يهتم بي؟ محتاجة إلى زول يأخذني إلى هناك ثلاثة مرات في الأسبوع.

فاحت رائحة الطعام وملأت الطائرة، وبين الركاب سرى توتر غريزة الكائن المحارب. يا للكائن المحارب لحظة نداء الغريزة وانكشاف الحال! المضيفة المصرية تدفع عربة رُصت فوقها زجاجات بلاستيكية متعددة الأحجام ومُعبأة بأنواع من المشروبات: تسأل الراكب ثم تسكب له ما يريد. خلفها مضيف يدفع عربة ويسأل الراكب:

– لحم والا فراخ؟

السوداني الذي يطلب غير الفراخ نادر جداً، أما المستحيل فهو ذلك السوداني الذي سيعتذر عن طعام الطائرة. يمد المضيف يده بصينية بلاستيكية يجذبها من جوف العربة ثم يناولها للراكب الذي يكون مُستعداً بإنزال جزء من المقعد المواجه له على شكل طاولة يضع عليها ما يتلقى من الطعام. وتناولت من المضيف صينية لأختي وأخرى لي بعد أن نطقنا سويا وفى لحظة واحدة:

– فراخ.

صندوق بلاستيكي مُغطى بقصدير وفى داخله قطع ساخنة من الدجاج تعوم في أدام مخلوط بخضار بِجواره أرز، قطعة من الجبن، وعلبة صغيرة جداً بها سلطة فواكه، وعلبة بلاستيكية صغيرة بداخلها خضارطازج. قطعة خبز. قطعة جاتوه، ثم في طرف الصحن أكياس صغيرة بداخلها ملح، وفلفل، وسكر. ملعقة وشوكة وسكين من البلاستيك، شريحة خشبية رفيعة مدببة الأطراف لتنظيف الأسنان ومنديل معطر.

الطعام هو لذة الحياة بالنسبة لها، منحها التعويض. فتحت العلبة بحذر وقلت لها أن تتجنب الأرز، وفى ذهني أن أي زيادة في كمية الطعام ستقود إلى امتلاء المعدة مما سيقود إلى التقيؤ. نكهة البهارات مع سخونة الطعام لحظة حياة بالغة الكثافة. قالت لي: ناولني الشوكة والسكين. تحب الأكل وِفق النسق العصري، تحب النظام والنظافة وترتيب الأشياء. أمسكت بهما وبدأت تركز جيداً في المكان الذي تنبعث منه رائحة الطعام والحرارة.

عليم بأن خستي لن تُفارقني حاولت أقصى ما أستطيع زجر نفسي عن متابعة تفاصيل وجهها. مثلها مثل البشر، لحظة حيوانية وإنسانية الإنسان. وقلت لها أن الفراخ أمامها مباشرة فارتعشت يداها.

تناثر الأرز فتناثرت الذكريات وجاء الأب. ما أن توفر الطعام حتى نزل للمعاش وهو مطمئن أنه قد أنجز رسالته الدُنيوية على أكمل وجه. كان قد حصل ضمن خطة الإسكان الحكومي على قطعة ارض وقام ببيع جزء من معاشه لبنك للحصول على سيولة نقدية لبناء المنزل. مرة أخرى وأخيرة ظهرت له فرصة للاختيار. كان بحالة صحية جيدة، ولديه مهارة وخبرة في عمله الذي قضى فيه أكثر من أربعين عاماً، لكنه لم يفكر أبداً في مواصلة العمل من اجل تأمين أضافي لبنات بلا أزواج

ولا أبناء. لا شيء يسندهن لمواجهة حياة كان هو بالذات يصفها بأنها: قتل وضرب ونهب وسفك دماء.

أكلت قطعة الجاتوه وقالت إنه رائع، فتناولت القطعة من صينية طعامي ووضعتها في حقيبة يدها ووضعت معها الجبنة فضحكت. كنت قد لاحظت منذ السفر السابق أن لديها هذه العادة، وهى أن تأخذ ما لم تأكله من طعام الطائرة معها:

- ليه نتركها لهم؟ دفعنا لهم!؟

سألتني عن المنديل المعطر الذي يوجد في صينية الطعام، فوضعته في يدها. فتحته ودعكت يديها وهى تردد: الحمد لله. سألتها عن حبة السكر فقالت إنها تناولتها قبل الأكل. وساد الصمت انتظاراً لمجيء المضيف الذي سيقدم الشاي أو القهوة.

يسود سكون شامل في الطائرة بعد الطعام: استرخاء ما بعد الأكل، وتخفت الأصوات، يغرق كل في عالمه. أخرجت مسبحتها ووضعت أصابعها على عينيها وبدأت تقرأ في الأوراد بالعدد المطلوب لشفاء العين. الدعاء سلاح قديم في أسرة تأسست على الدين وقدرة الروحانيات الخفية.

حبست أنفاسي عند إعلان الكابتن عن الاقتراب من مطار القاهرة، لكن طالت مُدة تحليق الطائرة منذ إعلانه ولحظة هبوط الطائرة التي توقعتها، وانفتحت نافذة القلق والتوتر، ومدة الطيران تطول، والطائرة تحلق عالياً. ونظرت إليها ووجدتها غارقة في ترديد الدعاء خاصتها. مرت دقائق أخرى طويلة.. طويلة جداً والطائرة تحلق أعلى فأعلى وكأن لا هبوط قد أُعلن عنه، وتأكدت أن الطيار، لأمر ما، عاجز عن الهبوط. أخذت ألعن أختي وألعن لحظة قرار السفر وألعن لحظة جلوسي أمام موظفة الحجز والتذاكر.

- الطيار عاجز عن الهبوط؟

ابتسمت دون أن ترد، ورفعت لي المسبحة وكأنها تحيل الأمر للمسبحة.

- ألا تسمعين؟ صوت الطائرة متغير؟ وأصوات غريبة تنبعث من كل هيكل الطائرة والطيار أعلن عن الهبوط منذ وقت طويل وهو يلف ويدور ولا يهبط!؟

كان وجهها نسخة من وجه أبي الذي لم يكتف بكراهيته الشخصية لي بل أخذ يؤكد لأخواتي أنه لا يخشى عليهن- من بعد وفاته- من أحد أو من شيء سواي!

لماذا؟ ظللت أفكر في سر تفضيله للبنات وانقضى وقت طويل مُثقل بجسام الحادثات ما بين إنكار ومحاولات للتودد المُصطنع المصحوب بصد ابن لحظته، مع محاولات للبحث عن حل وسط ووساطة، حتى اكتشفت أن الأمر ليس في يده. لحظتها ضحكت دون ارتياح، لكنني ضحكت بانشراح وهو يستميت متشبثاً في دفع العجلة التي عليها حقائب السفر. انفتحت نافذة في دماغي فيها ملفات قديمة كنت قد برمجتها على أن تظهر (عند الحاجة) وانتبهت إلى أن فيروسا ما.. قد نشط وتمكن من اختراق برنامج ذاكرتي فبعث ما أخذ يظهر أمام عيني:

(ما دامت الحياة فسيدوم إنكار الوالدين بضمير مستتر جداً لتفضيل خفي جداً لواحد من الأبناء- الأخوة، على الآخرين). وهذا شأن فطرى غريزي لابن آدم الذي لم تتكشف بعد كل أسراره، بل لا زلنا على قناة انتظار كشف أسرار الأسماء، ولحظات اللقاء والفراق وأسرار لحظات التلقيح، وشارات نجوم السعد والنحس. وستجد دائماً حالة تفضيل للأصغر آخر العنقود على الكبير- البكر. وكم أب لم تُسعفه سرعة بديهة لتقديم تفسير أو تبرير عن حالة تهميش الابن الأوسط الذي يظل مثل هدف مشكوك في صحته: يصفر الحكم إعلاناً وتأكيداً بصحته لكن يظل

على مدى العمر، تسير الناس به بالشك والريبة. وحكى لي عمنا الطريفي- رحمه الله- في تبريره للمفاضلة بين الأبناء: إنهم كما الفاكهة لا اختلاف على حلاوتها ولكن كل ثمرة بنكهتها. ويعاكس تبرير عمنا الطريفي ما شهدناه وعشناه على أيام عسر خالتنا (أم سهمين) والتي كان لها تسعة من البنين والبنات ولم يكن معها ما تسد به خواء البطن وكانت أيام (قفص الحمام وقِلة الطعام) ولا مناص من الصراحة، ووضوح العودة للحظة التأسيس الأولى: فالجوع هو الفيروس الأصل وهو الطاقة المكونة لكل وجدان سوداني. وسؤال الحوجة للطعام- حتى وإن توفر- يظل الشبح المطارد للذات الخرطومية. وصاحب الدخل الأكبر في الأسرة يظل هو المفضل للأب وللام. وفيما ورد عن عمنا المكي- رحمه الله- أنه كان لا يرى في الدنيا سوى ابنته الموظفة في البنك، والتي ما أن فقدت وظيفتها حتى صارت حمى الملاريا أحب إليهِ منها وسرعان ما صعدت اختها صاحبة الدخل الشهري الثابت إلى مكانتها في قلبه وصارت المفضلة وجدانياً له.

قلت له ونحن أمام ضابط الجوازات:

- قدم جوازك.. مش انت بتقدس الانضباط!؟

وحين عكست الأدوار- ذات مرة- وجدت أن غالبية الأبناء يحملون ويحلمون بكره الأب في أعماق أعماقهم لكنهم يحاذرون مجرد طفو المستور في الأعماق على السطح، وتستغرق الآباء كما الأطفال فرحة الامتلاك وأنانية الاستحواذ على ذات بشرية بكل مواردها.

في صالة المطار الواسعة، الحقائب أمامنا والكمبيوتر- المحمول، على كتفي. قلت لها: انت تحتاجين لراحة قليلة قبل أن نخرج للشارع، وقالت لي إنها بحالة جيدة ويمكن أن نخرج فوراً. لابد أن أقول شيئا مُقنعاً أبرر به أو نخرج فوراً! لو تتركني لدقيقتين فقط في ممر جانبي.

في لحظة ما يُصبح الاستسلام هو الخيار الوحيد المتاح. أخرجت من حقيبة يدها خمسة ورقات من فئة المائة دولار وأعلنت أننا سنذهب سوياً لتحويل الدولار إلى عملة مصرية، وحال ما وقفنا أمام موظف البنك أصدرت صوتاً بنغمة جزلة لموظف البنك:

- ازيكم يا مصريين.. رجعنا لكم تاني من السودان.

- منورة يا حاجة.

أخذت أتلفت تقديراً بأن لحظة تحويل الفلوس هي لحظة مناسبة للظهور، ولكي استلم الإشارة. كان صوت أختي مشحوناً بالحياة وهى تحكي لموظف البنك أنها كانت موظفة في بنك لأكثر من عشرة أعوام، وأنها ضحية من ضحايا الخصخصة. تتحدث وتُسمِعُ صوتها وتسمع صوتها، كمن ينطق متلذذاً بلذة الإحساس بالنطق والإصغاء. وضعت جزءا من المال في جيبي، ثم ناولتها ألف جنيه وقلت لها إنه لابد أن يكون في يدها مال، وإنه إذا حدث أي شيء، فعليها الاتصال بالسفارة، وعليها أن لا تتعامل مع أي شخص، السفارة فقط هي التي ستساعدها إذا لم أكن موجوداً لأي سبب.

وضعت يدها مع يدي على العربة التي يرص عليها المسافرون حقائب السفر، التفتُ مرة أخيرة: لا أحد هناك ولا شيء على المقاعد. سرنا باتجاه الخارج. تحسست المال الذي يمد دوماً بإحساس مقدس مُستمد من كونه يصنع كل شيء وكونه يمنح ذلك اليقين بالقدرة وبالحصانة وكونه يحث على الإقدام. المال ملك وقائد، ومن ذا الذي لا يهتز في مواجهة الملوك والقادة؟ ومن لا يسعى خلفهم كي ينال رضاهم؟

غندما خرجنا من صالة الوصول وتقدمنا بخطوات بطيئة كنت أنظر وسط حشود المستقبلين. رأيت سيدة ملامحها مصرية لكنها ترتدي

ثوبا سودانيا وكانت ترفع ورقة عليها اسم أختي ورقم تليفون واسم شارع ورقم عمارة ورقم شقة. تجاهلتها ومشيت فمشت خلفنا. لم تتحدث. التفت مرة أخرى ولم أجدها، ولكن أمامي وكأنه يسد الطريق، شاب أصلع قوى البنية لا اثر للحياة في عينيه وصوته بارد:

- تعال يا زول.

ذاكرتي تحتفظ بعنوان، ورقم تاكسي محدد سيوصلني. رحت أدفع الحقائب المرصوصة على العربة بيد وعلى كتفي الكمبيوتر المحمول، وبيدي الأخرى كنت امسك بيدها خوفاً عليها من الزحام ومن سرعة حركة المبصرين.

- أختي مريضة.. لو ضايقتنا وحدث لها أي شيء فأنت السبب.

- ليه كده يا بيه؟ تديني وِش على طول؟ اصبر عليا بس.

أحاطوا بنا ولم يعد أمامنا مساحة واسعة للإفلات منهم، مجموعة من السماسرة وسائقي التاكسي، ووكلاء وكالات عقارية وشركات لتأجير السيارات، ومندوب من كل شركة سياحية ومروجين محترمين لخدمة المتعة المنظمة بدقة وفوق مستوى الشبهات. لم يكن أمامنا مساحة مناورة كبيرة: أعرف المصريين منذ سابق، فكيف بهم الآن وقد عز المال؟ رغم مظهرنا بفقر فاضح إلا أن المصري يُطارد المليم الذي هو به عليم في جيبك حتى يُدخله جيبه، والصيد ماثل أمامهم أسهل مما يتخيلون: هيكل لرجل أصلع الراس، قصير هزيل البنية، وعلى عينيه نظارة طبية تؤكد أنه لا يستطيع أن يبصر أمامه بضعة سنتيمترات، ولا مجال أمامه للتلفت لأنه يمسك بيد (حاجة) أقصر منه وأشد منه هِزالاً وعلى عينيها نظارة سوداء وفى يدها عصا المكفوفين. في مصر يصعب الإفلات من أشياء لا عد ولا حصر لها، ومن أصعبها الإفلات من قواد الشقق. كنا متجاورين في هايس- ميني باص- في المقعد الخلفي وعلى

المقعد الأمامي جوار السائق جلس الأصلع. وقال أن المكتب الذي سيأخذنا إليه هو أرخص مكتب في مصر كلها، موضحاً:

- والله ما فيش فيها أي مصلحة، والله مش غير الأجر، بس علشان الحاجة، ربنا يشفيها بعد العملية.

حدث ما كنت أخشاه. قالت إن رأسها بدأ يدور وإن غثيانا شديدا يتعبها. إذا بدأت تتقيأ فلن يتوقف القيء بدون معالجة، والمعالجة تفرض الاحتياج لمستشفى. طلبت من السائق أن يهدئ من السرعة، أو أن يتوقف إذا كان بالإمكان. بصوت واهن قالت: لا..لا.. وأخذت تهمس بأن بمقدورها أن تتحمل حتى نصل. توقفنا أمام لافتة مكتوب عليها: عقارات، بيع- شراء- شقق مفروشة- إيجار سيارات. نزلنا خمسة سلالم إلى شقة أرضية بابها من الزجاج الثقيل وتكرر نفس المشهد الذي يتكرر كل عام منذ خمسة أعوام. جلسنا في غرفة ضيقة بها كنبة وكرسي، وملحق بالغرفة صالة أضيق منها. جدران الغرفة مغطاة بالآيات القرآنية، وعلى طاولة المكتب المصرية الخشبية الشهيرة تناثرت أوراق ودفاتر وأختام وأقلام وجهاز كمبيوتر قديم واختاروا ركن الغرفة للخزانة الحديدية الضخمة. فكرت: معروضة لجلب الثقة؟ أم معروضة للبيع بأكثر مما هي مظهر للكثير من المال المحفوظ؟ أم بها مصائب؟ وظهر شاب صغير السن ورحب بنا مُصراً أن نشرب الشاي. وقالت أختي إنها تريد أن تصلي الظهر والعصر معاً. لحظتها أحسست بغيظ شديد: لا القيامة ستقوم حتى نصل إلى الشقة ولن تتوقف الصلاة أن تمهلت. وقلت لها بهمس أن الزمان والمكان لا يسمحان الآن، فردت بغير همس وبعنف:

- هل تضمن لي أن أعيش حتى نصل للشقة؟ يمكن أن تُقبض روحي في أي ثانية؟

المصريون بلا مثيل في الفضول: تلصص واستراق سمع ومتابعة بنظرة العين الناطقة. أعلن المصري الشاب سهولة موضوع الصلاة، وقفنا وأمسكت بيدها وبعد خطوتين في الصالة توقفنا أمام باب صغير مغلق.

– اتفضلي الحمّام يا حاجة، الميه السخنة على أيدك الشمال.

أبعدتها ثم دخلت إلى حمام لا يوجد في الدنيا أضيق منه. رائحة تخنق. نظرت بدقة كي أحدد بالضبط مكان المقعد. خلطت الماء البارد مع الساخن ثم فتحت الباب وقدتها خطوة واحدة للداخل وأوقفتها أمام صنبور الماء وقلت لها إن الماء موزون الآن، وإن المقعد خلفها بالضبط. وأحسست بصوتها محرجاً وهي تهمهم بكلام ضمنته دعوة لي بالهداية. جلست صامتاً ولحظت أن المصري يتفحصني بتركيز. كاد دماغي أن يتتبعه لكن إشارة تعاطف معها من مركز التفكير نبهتني إلى أن مريض السكر يواجه (زنقة التبول) وأنها منذ ساعات لم تتبول. الصلاة هي الإعلان التبريري الوحيد لأن التبول عندها عيب ومما يجب إخفاؤهُ.

سألني المصري الشاب وهو يضع الشاي أمامي:

– هو حضرتك يعنى.. من نفس بلد الحاجة؟

– أنا مسلم لكنني لا أصلي ولا أصوم. السودانيين فيهم مسيحيون وفيهم وثنيون والغالبية مسلمين، انتم عندكم ملايين المصريين مسلمين ولا يصلون.

رد بحماس:

– لا والله... ساعة الآذان كله يرمي اللي في أيده ويجرى على المسجد.

سمعنا صوت باب الحمام يُفتح واندفعت منه الرائحة فقمت وتقدمت وأمسكت بيدها وأغلقت الباب باليد الأخرى. قالت:

- أين اتجاه قبلة الصلاة؟

جاء الشاب بكرسي خشبي ووضعه بزاوية معينة، وساعدتها على الجلوس عليه ثم قال لها إن هذا هو الاتجاه الذي نُصلى عليه، وابتسمت حين وجدت الاتجاه بالضبط في مواجهة خزانة الأموال.

خرجنا من الغرفة لنجد الذي اختطفنا من المطار مُنهمكاً في مكالمة تليفونية. واستنتجت أن الحديث يدور حول تقسيم الغنيمة، اقتربت منه قائلاً:

- يا أخي نريد أن نخلص.. أين الشقة؟

ضحك ضحكة من ظفر واطمئن. ووضع يده على كتفي.

- مالك دائما غضبان يا سوداني؟

نظرت إليه ثم قلت بهدوء:

- سنأخذ الشقة هذا أكيد. اسمع: لدى احتياجات إذا لم توفروها لي فسأنصرف الآن.

- أيه!؟ عايز أيه حضرتك.. انت تؤمر؟

- شغالة! أحتاج إلى شغالة.. لأن أختي مهما يكن هي ست، وفى النهاية لا أستطيع أن اخدمها إلى أقصى حد. يعنى افرض دخلت الحمام واحتاجت إلى أي شيء هل أقدر أدخل عليها الحمام؟ أو لو لا قدر الله وقعت في الحمام هل سأدخل عليها؟ لازم شغالة؟

- آه والله حضرتك بتتكلم صح جداً! حاجيب لكم ست كبيرة تخدمها أحسن خدمة وتشرف عليها آخر حاجة.

ما أن نطق (ست كبيرة) حتى أدركت أنني لم أكن مُوفقاً في كلماتي، ولم يعد أمامي سوى الإعلان الصريح. ظهر أحمد (المنتظر) لكتابة العقد وحالما أبصرته أسميته الطرف الرابع. شابٍ طويلٍ وقوي وملتحي على الطريقة السلفية وكله على بعضه جوهراً ومظهراً قنبلة بدائية. وأخذا يتهامسان لفترة حتى صحت فيهما بأنني سأنصرف.

جلس على الكرسي وأصدر إعلاناته وأولها أن الشقة بمائتي جنيه في اليوم، ثم آية قرآنية، وما أدراك ما فلوس التأمين، ودعاء، وأتعاب المكتب، والحمد لله وسبحان الله الذي قادكم إلينا غير مصادفة أهل الخير لأهل الخير وهذا في وجوهكم السمحة.

تيقنت، فوقفت قائلاً إنني أريده في كلمة على انفراد، فجاء معي للخارج:

- لن أستطيع أن أقضي أيام العلاج بدون امرأة أفرغ فيها سُمى، أحتاج إلى شغالة تراعي أختي وتراعي احتياجاتي.

وبصوت الداعية الذي يحسم أمراً شرعياً بديهياً:

- يا سبحان الله! ودي فيها كلام!؟ اطلب اللي انت عايزه! لو تحب تبات معاكم؟

وأحسست بارتياح وهو يدوس على أزرار الموبايل ويقول:

- إيناس، تعالي على الشقة بسرعة!

وجدت أختي واقفة خلف الباب تستمع. ملأني غيظ شديد. لماذا تتصنت على الحديث؟ ربما تخشى على فلوسها!؟ المال مالها ومن حقها أن تطمئن على كيفية صرفه.

قام بتصوير صفحات من جوازات السفر، ثم ناولني عقدِ الإيجار. ارتكبت خطأ بوضع العقد في جيبي دون أن انظر فيه قائلاً: موافق. فهب واقفاً وهو يقول:

- يلا بينا على الشقة.

كنت قد بدأت أشعر بتعب السفر، لكن اسم إيناس ولد طاقة أعانتني على تحمل مشوار إضافي. توقفت العربة أمام عمارة من تسعة طوابق في شارع سكني، وأخذ أحمد ينادى على بواب العمارة الذي ظهر، صعيدياً في أوائل الأربعينات. حملوا لنا الحقائب وظللت ممسكاً بيدها وظل الكمبيوتر المحمول على كتفي. لكن قبل أن نجتاز مدخل العمارة سمعنا نباح كلب مرتفع.. فتوقفنا، بل أن أختي استدارت بدون تردد وهى تردد:

- لن أسكن في مكان به كلاب.. الكلاب نجاسة ومكروهة.

ظهر الطرف الرابع كوسيط موضحاً أن الكلب كلب صاحب العمارة ولا يتجاوز أبداً باب الشقة. والآن ينبح - فقط - لأنه التقط رائحة غريبة، رائحة ناس أجانب. وجاء البواب ليقول أن الحقائب داخل الشقة. وقلت لها: إنها غلطتي أنا... لقد تسرعت.

الشقة المصرية التقليدية والمألوفة: الصالة وبها طقم الجلوس والتليفزيون، وطاولة السُفرة والكراسي المُتهالكة أو المُستهلكة. تقدمت بحثاً عن الحمام: نظرت للمقعد وتفحصته وضغطت بأصبعي على زر التصريف، لم أهتم كثيراً بالبانيو فلم أحب الاستحمام أبداً بل عندي دهشة من إصرار الناس على ممارسته كعادة يومية، بل مرتين خلال يوم واحد. التفت فوجدته خلفي وقال لي بفخر:

- وفي كمان حمام تاني.

وتقدم في الممر وفتح باب فدخلت ونظرت لمقعد وحوض. وقلت له، كي أكسر فرحته الزائدة: ما فائدة حمام بدون إضاءة؟ أين اللمبة؟

المطبخ المصري دائماً ضيق، وطبيعي أن تنبعث الروائح من أركانه، لكن ما أحسست به هو وكأن ماء راكدا تحت البلاط غير

النظيف، أو كأن الجدران مسقية بالماء حتى يكاد السيراميك يتساقط. لكن كان الوقت مُتأخراً جداً على الاعتراض حتى على ماسورة تتلاحق نقاط الماء منها كلسان مدود نكاية في طويل لسان توهم قُدرته على مواجهة سعة حيلة المصريين.

الغرفة التي وضعوا بها حقيبة أختي كانت سيئة التهوية، لكنني ارتحت لقربها من الحمام وطالبتهم بإغلاق باب البلكونة الموجود في غرفة النوم الكبيرة التي كان بها سرير النوم الكبير ودولاب غرفة النوم المصرية الضخم والذي يمتد حتى السقف.

كررت الخطأ مع الطرف الرابع حين جلسنا على طاولة التوقيع فلم أهتم كثيراً بالنظر إلى بنود العقد ووقعت فقط مكان ما وضع إصبعه قائلاً: وقع هنا حضرتك ثم اكتب رقم جوازك.

أخرجت الفلوس وبدأت في العد. ناولته المُستحق عن الأيام التي سنقضيها، ثم مال التأمين وحق المكتب. همس في أذني بأنني لابد أن أعطي الشاب الأصلع الذي جاء بنا من المطار أي شيء فناولته مائة جنيه، ثم أجرة سائق العربة الهايس- ميني باص- وبدا وكأنه يريد أن يقول شيئاً فقلت بغضب:

- هل جئنا لنسكن؟ جئنا للعلاج، أختي مريضة أمامكم، لماذا تتصرفون هكذا؟

وضعت عقد الإيجار في جيبي وبدا مُرتاحاً وهو يناولني المفتاح:

- إذا احتجت إلى أي شيء كلم إيناس.

- أين هي؟

- على وصول.

أغلقت باب الشقة وقلت لأختي أن تذهب للحمام وتُغير ملابسها. أمسكت بيدها لكي أوضح لها للمرة الأولى ممر الشقة وغرفتها والحمام. ومشت ببطء شديد وهى تتحسس بيدها على الحائط. دخلت إلى غرفتها وجلست على السرير وفتحت حقيبة السفر وبدأت في إخراج حاجياتها، أشياء جلبتها معها. وقلت لها إن أفضل ما في الأمر إن غرفتها على بعد خطوة من الحمام ولن تحتاج إلى أن تمشى أكثر من خطوة واحدة خاصة بالليل.

- أين ستنام؟

- في الكنبة في الصالة وهذه عادتي، تعرفين أنني لا أطيق غرف المصريين.

- لن أتركك لوحدك، النوم موت فكيف تتركني طيلة الليل لوحدي في هذه الغرفة وأنت هناك في الصالة؟

أخرجت معجون أسنان وصابونة استحمام، وقالت إنها تريد أن تستحم فخرجت من الغرفة ودخلت المطبخ وفتحت الأدراج، وأحسست بالغيظ. ليس فقط الكتمة ورائحة العتة، بل الأواني القديمة وكل شيء ناقص.

انتبهت على صوت جرس الباب وفى نفس اللحظة ارتفعت نغمة الموبايل الذي جئت به من الخرطوم تعلن عن وصول رسالة، تقدمت نحو الباب، ونظرت للرسالة ويدي تفتح الباب لتشاهد عيناي وجها مصريا كما خُلق الوجه المصري، وحفظت كلمات الرسالة في ذاكرتي.

صحيفة الرأي العام: ٢- ٦- ١٩٦٢:

قال شاهد الاتهام وهو موظف في أحد البنوك إنه اعتاد ارتياد منازل بنات الليل بقصد دراسة طبيعة ودوافع الفتيات والسيدات على

البغاء وقال أن هدفه من وراء ذلك إعداد بحث عن هذا الموضوع وقال إنه شاهد المتهم يجلس بين عدد من بنات الهوى ويتحدث بلهجتهن ويأتي بحركاتهن..

الطرحة على موديل الإسلاميين لكن بدون أي دلالة. والعباءة السوداء ستر لملابس لا يُراد أن تتكشف للناظرين.

ما تدفق الزمان مُتدفقاً بالناس إلا وأسمعني صوتاً مُطابِقًا لِصوتِ إنسان آخر صادف سمعي، وما نظرت في وجه واحدة إلا وكان تَكراراً مُتشابهاً- مُتطابقاً- وبنت حواء أُخرى بمكان آخر. في لحظة تحدث لحظة الكشف هذه، إيناس وسناء. سلمت علينا إيناس باحتراف جمع بين افتعال الأدب والرزانة مع التحليق الاستكشافي. كانت تقرأ وتستكشف في الذين جاءت لتأكل أكبر مقدار ممكن من أموالهم. وارتاحت تماماً حينما كسرت لها أول حاجز بل أهم حاجز قائلاً:

- ألف شكر مدام إيناس على تشريفك لنا، دي أختي المريضة اللي تحتاج لمساعدتك.

ولأنها لحظة التأسيس الأولى للعلاقة بيننا ناديتها: مدام إيناس! عمداً هدمت أكبر حاجز أمام المصري- الضعيف- كونه في مكانة اجتماعية أقل، وملزما دُوماً بالانتباه إلى أن يكون خاضعاً لمن يتعامل معه.

انتبهت إلى إشارة من الموبايل تكرر المطلوب:

إرسال تقرير عن التغيير الذي حدث في المزاج الجنسي في الخرطوم خلال أعوام.

رأيت سناء في عربة جديدة، وكانت مشغولة مع موبايلها، تنظر فيه، فلم ترني أنظر إليها، ولما رفعت رأسها ونظرت إلي تحدد كل

شيء في تلك اللحظة. النظرة الأولى التي تقول كل شيء، ولحظتها تلقى مركز المعلومات في دماغي رسالة عن شخصيتها: شخصية من ركب المجازفة مفارقاً محطة الحذر. وابتسمت وأنا أمد يدي لأصافح يدها وإشارات التنبيه تضج في جسدي عما صدر بشأني من مركز تنبيه دماغها وانكشف في نظرة عينيها. تمثلت أمامي مشكلتي مع بنات حواء بشأن نفورهن من الهيكل الهزيل للذكر الماثل أمامهن. الأنثى لا تمتلئ استعداداً للخضوع سوى لذكر قوي يسكنها، استحواذاً غير منطوق مُسكناً لها بعض من قلق مُمض تتدفق به حياتها ما بين أدرى ولا أدرى وأرغب ولا أرغب، مع الاعتراض الدائم والامتعاض المستمر صمتاً وجهراً. هززت رأسي لأطرد هاتفاً روحياً عن انتظار الأنثى لأسطورة خلاصها الأزلية: توقها لرجل يجتمع فيه الأب- الوالد، ثم ابن البطن والأثداء، دون التوقف الأزلي عند محطة المُلقح الذي تتم الاستعانة به ما دعت حاجة. كانت ترتدي ثوبا سودانيا خفيفا متعدد الألوان، ولما جلست على المقعد المجاور لها كشف الثوب المرفوع عن ساقيها حتى بداية فخذها عن حديث قوى، عن نعمة جمال ساقين صُنع جميل مُحب للجمال. لون بشرتها مفارق للبياض الخالص ولا يلحق أبداً بخالص السمرة. سمعت صوتها المُطابق لصوت إيناس:

- نمشي على الشقة؟

- عندي مواعيد .

أخذت تنظر أمامها وكأنها على انتظار، ثم قالت:

- انت جاهز؟

أخرجت الفلوس وبدأت في العد. وما أن رأت الأوراق المالية حتى تحرك شيء فيها فتناولت موبايلا آخر من حقيبتها وتحركت أصابعها في أزراره بسرعة، وسمعتها تسأل إن كان البيت جاهزاً؟ ثم التفتت إلي وقالت إننا سنذهب عند صاحبتها في مكان قريب.

كان استعداد أختي للالتقاء بكائن من كان يفوق الوصف، ولهذا لم يكن صعباً أبداً على محترفة كإيناس أن تصل بسرعة إلى احتياجها. وبدأت في الحال في دفق الحنان في الحديث، وفي الاهتمام عند الاستماع، وفى ضخ التعاطف بالدعاء وبتأكيد أن كل شيء ممكن وسيتم بإذن الله.

قلت لإيناس إن الشقة غير نظيفة وضروري أن تبدأ في نظافتها، فقالت إن الوقت سيتأخر، وإن حظر التجوال سيداهمها لأنها تسكن بعيداً. وقالت إنها ستأتي غدا لتنظف الشقة والاهم الآن أن تشترى لنا شوية بقالة.. ماء وشاي وطعام، لنعيش عليها.

– سأنزل معك لنشترى.

– لا.. نكلم السوبر ماركت بالموبايل وهم يجيبوا الحاجة.

وبدأت لعبة (لا رصيد في موبايلي) فناولتها موبايل أختي الذي تبقى به منذ الزيارة السابقة ما يسمح ببضعِ مكالمات. ونظرت لِها وهى في لحظة التقمص كسيدة الشقة تضع ساقاً على ساق مُخاطِبةً السوبر ماركت. وأخذت تحدد لهم ما يبعثونه لها. قصيرة وممتلئة بزيادة عكس جسد سناء. لو ثمة امتياز في إيناس فمن نصيب عُشاق الأنوثة المُفارقة للحياء مهما تفننت الأنثى وبالغت في تمثيل دور الاحتشام إلا على غشيم، أو معتوه شهوة فاقد للتمييز. تنتمي للجيل الكلاسيكي. وأحسست بحزن خفيف عليها وأنا انظر للكمبيوتر المحمول ومقدار ما يختزنه ومقدار ما لا يكف عن ضخه على مدار الثانية في سوق العرض والإغراء وِفق تقنيات حديثة تهدد سوقها ورزقها.

من الحمام الثاني ناديت على إيناس وقلت لها بصوت مسموع إن الحمام بحاجة إلى لمبة، فقالت إنها ستتصل بالسوبر ماركت لتطلبها، أو نشوف الكهربائي. وقلت لها ونحن في غرفة النوم الكبيرة إن الإضاءة

ضعيفة إلى حد كبير. ولما نظرت للأعلى رأيت عنقها قصيراً وممتلئ بلحم. التصقت بها.. بيد واحدة وبدون أن تهتز أبعدتني، وبهدوء تام قالت:

- مش أنا.. أنا حاجيب لك اللي نفسك فيه، لو دلوقتي عايز ممكن أجيب لك واحدة أقل من عشرين سنة وتبات معاك بخمسمائة جنيه.

الصمت مع سرعة العربة يُهددان فرصة حديثها. قاعدة الجملة الأولى، أول جملة تنطق بها. وظللت في الانتظار. البعض معتاد على أن يستمع ويظل في انتظار مبادرة الآخر ببدء الكلام. استمر هدير الموتور والانشغال في القيادة والتركيز في الطريق عبر الزجاج لكن لكل شيء في الحياة نهاية لكي تبدأ بداية جديدة. ضغطت على الفرامل عند إشارة حمراء والتفتت إلي وسمعت الجملة الأولى:

- أنا اسمي سناء.

- وماذا يفيد الاسم؟

- شنو!؟ تقصد اسمي ما عاجبك ولا انت تقصد شنو؟

ضحكت وأنا أنظر إلى عينيها تضجان بمزيج أسئلة وشكوك وتوتر عن زبون مفارق للمألوف. القاعدة الأولى هي قاعدة الاسم غير الحقيقي، ومع كل اسم شريحة برقم.

- المهم إنك جميلة، والأهم كمان أن يكون البيت مضمون وما في مشاكل، أنا أخاف جداً.

- لا.. ما في حاجة، بيت صاحبتي وراجلها سافر إلى أمه ومعه الأولاد. وكلنا بنخاف وكلنا عندنا أهل وأسرة وكلنا طالبين السترة.

كان علي أن أبذل جُهداً سريعاً للنفاذ إلى دواخلها، قبل مرور الوقت وفقدان المبادرة. تحليل مفرداتها مع نظرة العينين وهى تنطق.

- العربية إيجار ولا ملك حر؟

ردت بحماس وفخر:

- إيجار!؟ أنا! عندي (بيزنس) كده مسافرة له في الخليج والصين لو (زبط) حاركب (الكامري) بتاعت الوزراء.

فجأة انتبهت وقلت لها:

- لازم نقف أمام أول صيدلية! لازم نشتري واقي ذكري!

ردت بهدوء:

- في البيت موجود.

- لا ..لا.. أحسن نشترى من هنا للضمان، عايز اطمئن.

أوقفت العربة ووجدتها تنظر إلي بفضول مغتاظ. دفعت باب الصيدلية الزجاجي ورأيت بنتين من بنات الزمان المختلف حوله: هل هو آخر الزمان، أم هو أول الزمان؟ البالطو الأبيض دلالة على أنهن طبيبات- صيدليات، أو صيدليات- طبيبات. ألقيت بالسلام وقلت إنني أريد واقي ذكرى مستورد.

البنات الصيدليات يتورطن بشكل شخصي حال طلب الواقي الذكرى. يتخبطن إنكاراً رغم جهد للإخفاء يتبدى في نظرة العينين وفى نبرة الصوت وفى كل ما تُرسله لغة الجسد: ما بين حلال وحرام ورغبة، وحرام أكيد وشهوة لا تنتهي، وأيا كان ورغبة لا تفارق ولا تكف، رغبة مصحوبة بسرحان عن اقتراب وقوع الحدث العظيم الذي تنقضي الأعوام في انتظاره ثم تنقضي في تقويم الذات به.

سألت وأنا أنظر:

- مصنوع في أي بلد؟ لازم يكون من أوربا؟

ردت بعنف:

- لا أعرف.. ممكن تشوف بنفسك؟

كنت أتعمد إطالة الحوار ما أمكن ولم أصادف من ظلت السلعة عندها مجرد سلعة، دون أن تفلت إلى عوالم الذكرى المقدسة لديها عن موضع مستقر السلعة. ينفتح صندوق الواقي على ألوان أحلام، وعلى رائحة خيالات وضلالات ويتدفق الحرمان.. متزوجات أو غير متزوجات..

فتحت صديقتها الباب وتقدمتنا إلى داخل البيت. كانت ترتدي قميصا خفيفا وقصيرا ووجها مغطى بكريمات لتبديل لون البشرة من الأسود إلى الأبيض. فتحت باب غرفة فقالت لي سناء:

- قروشها!؟

أخرجت خمسين جنيه وناولتها لسناء فناولتها لها. وأشارت لي بالدخول إلى الغرفة ثم وقفت تتحدث معها. كانت غرفة ضيقة وبالقوة أُدخل فيها سريرين خشبيين وتسريحة شعر نسائية بمرآة. وفى مسافة وهمية كانت هناك شماعة عليها ملابس. لون الجدران أصفر ودخلت سناء فشوشت علي.

قالت إيناس إنها تأخذ مائتين جنيه على اليوم الواحد لكن نسبة لظروف أختي المريضة ستأخذ مائة جنيه.

- أنا جاهز بس خمسمائة كثير جداً، هنا مستحيل وأختي موجودة.

- في شقة قريبة من هنا ممكن نمشى فيها وتقضي مع البنت ساعتين وأنا أكون مع أختك وبعدين آجي آخذكم.

- لا ..لا... افرضي حصل أي شيء، من سيهتم بها؟ هي لا ترى فكيف أجازف وأبعد عنها وبلدكم مشاكل، البنت تيجي هنا في شقتي مش أنا اللي أمشي شقة لا أعرفها.

- طب ما قلت لك أجيبها هنا واشغل أختك بالكلام... واكلم البنت ما تعملش حركات دلع ولا يطلع منها أي صوت.

- أنا جئت من بلدي مخصوص لأسمع الصوت.

- ده انت حكاية!؟ أيه!؟ أقولك آخر كلام: أجيبها هنا تبات معاك وأختك ما لهاش حق تتكلم. مالها ومالك؟ مش انت الراجل والفلوس فلوسك؟ انت حر في تصرفاتك؟

ضحكت ولم اقل لها أن معادلة الفلوس والرجال لا تزال عندي مربكة ما بين الفلوس تصنع الرجال، أم الفلوس تمسخ الرجال؟ لم أحاول أبداً المجازفة بحماقة التصنيف كوني بدون فلوس رجل أو شبه رجل أو كائن في طريقه للرجولة أم كائن يفارق الرجولة! أيا كان.. لم أقل لإيناس أن الفلوس فلوسها.

- سنذهب الآن للدكتورة وستقرر لنا فحوصات، سنخرج غداً لإجرائها، سيحجزون أختي لفحص السكر لساعات. دخلي البنت الشقة، وسأعود وأقضي معها الوقت ثم أعود لمعمل الفحص والتحاليل.

- خلاص كلمني الصبح بدري، الساعة عشرة البنت جاهزة، وفي سوريات كثير و..

- لا.. مصرية.. أنا جئت من أجل بنت مصرية.

خرجنا من الشقة واتجهنا نحو الشارع الرئيسي.. أمسكت إيناس بيد أختي وأخذت تتحدث معها. طال الوقت دون أن يظهر تاكسي، تحركنا لمسافة وتوقفنا. وبدا وكأن عربات التاكسي لا تمر بهذا الشارع. وقالت إيناس:

- الناس هنا كلها عندها عربية خصوصي والتاكسي بدون زبائن.

أخيراً ظهرت عربة تاكسي وقالت إيناس للسائق إنها ستنزل في الجراج ثم يذهب بنا إلى روكسي. فتحت باب العربة وركبت جوار السائق وركبت هي بجوار أختي.

أغلقت سناء الباب بيد وبيدها الأخرى وبحركة بارعة ضربت الاسكيرت- الجينز- الذي كانت ترتديه فسقط في لحظة. أول ما صادف عيني من عريها خيط شعر رفيع جداً ممتد من العانة ويجذب النظر إلى حيث السر- المعلوم، الذي يزداد غموضاً كلما تبدى. ووجدتها على أطراف أصابع قدميها- جالسة في مواجهتي وأنا جالس على حافة السرير، ومدت يدها في داخل البنطلون وتناولته وأدخلته في فمها.

- اخلع ملابسك.

- لا.. لا داعي.

مرة أخرى أدخلتهُ في فمها وأخذت تضغط عليه في تجويف فمها ما بين قبض وبسط ثم تخرجه وتمرر لسانها عليه. كان تركيزي على عينيها، لكنني أحسست بأنني يجب أن افعل شيئاً فأحطت صدرها براحة يدي ووجدته صغيراً عكس ما تخيلت وحركت يدي إلى إبطها فوجدته مبتلاً بعرق خفيف.

ناولتها الواقي ففتحته بيد محترفة وفي ثانية تمدد على مقاس انتصاب ذكري وحجمه، ثم استدارت دون أن تقف وتناولت المرتبة من السرير الثاني ووضعتها في المساحة المتبقية من الغرفة وهيئت جسدها على وضع جعل مؤخرتها في مواجهتي ووجهها منحني للأسفل. لم يصدر عنها أي صوت، وكان جسدها بارداً مُفتقداً حتى لتلك القشعريرة المُصاحبة لدخول جسد في جسد. ضغطت مرة وأخرى، ثم اقتربت بوجهي من أذنها:

- ممكن أدّخله في مكان تاني؟

استدارت مُنتفِضة بِعُنف، وواجهت عينان فيهما شر لا أول له ولا آخر:

- عرفتك مجنون من البداية؟ عملية عملتها بمليون ونصف في دُبري، تيجي انت تمزقها لي الآن بمائة جنيه!!!

ضحكت، وحين حاولت أن أسيطر على الضحك انفجر الضحك مُسيطراً. ورأيت نظرة عينيها تتغير من الغضب إلى دهشة حذرة. تزايد معدل ضحكي وهى عارية على المرتبة وذكرى خارج ملابسي مرتخياً في انتظار نتيجة النقاش.

- اسمع، ما عندنا وقت ست البيت راجلها اتصل بها وقال إنه على وصول. بالله خلصنا وخلينا نمشى، ولو ما عندك مزاج، أو ما قادر، ادفع لنا، واقطع وجهك عنا.

أمام مدخل العمارة التي نأتي إليها منذ خمسة أعوام عاودنا الهم بشأن السلالم. منذ أن جئنا للدكتورة كريمة قبل خمسة أعوام والمصعد لا يعمل، وصعود السلالم مصحوب بفوبيا السقوط. وظلت تردد:

- أصبح عمياء ومكسورة.. من سيتحملني؟

بعد درجة السلم الأولى وساقها النحيفة تمتد في الفراغ ما بين درجة السلم والثانية، يتضاعف خوفها واضطر إلى صرف كلام وإلى محاولة خلق توازن في حركتي متوازن مع رد فعل نفسي يسمح للساق اليسرى باللحاق باليمنى في خطوة طبيعية، وكل هذا في ثواني تستغرقها خطوة من درجة سلم إلى أخرى. وسرعان ما ينكشف حالي إذ ينكشف مدى محدودية تعاطفي وتظهر لهجتي القاسية: أن تكف عن ما لا لزوم

له، فترد بآيات القرآن مع كل درجة سلم، ثم أخيراً تظهر اللافتة التي عليها اسم الدكتورة. اجتزنا مدخل العيادة ومثلما هو معتاد نظر الجميع إلينا. ووقفنا أمام الممرض المسئول عن ترتيب مقابلة المرضى مع الدكتورة.

سألناه عن الدكتورة فقال إنها موجودة لكنها لن تستطيع أن تقابلنا لأننا جئنا متأخرين ويمكن أن نسجل لمواعيد ثانية. خرجت من أختي نغمة الصوت التي تستدعي التعاطف، وبدا وكأن دموعها تسيل فعلا وهي تقول إننا قد وصلنا قبل ساعات من الخرطوم وجئنا مخصوص للدكتورة، وأكنت:

- قل للدكتورة أن السودانية جاءت وهى ستقابلني... الله يجزيك خير.

جلسنا في كنبة مرتبكين ومتوترين. صالة واسعة تناثرت فيها كراسي وأكثر من كنبة كبيرة ولحظت أن هناك أكثر من دكتور لأن هناك أسماء تتردد: يفتح الباب ويغلق ثم صمت ويفتح باب وتكون على الأيادي أوراق الفحوصات ونتائج صور الأشعة وعلى الأوجه ما يؤكد أن الكل قد وقع في مصيدة ما.

لم يكن بمقدورها أن تصمت أكثر، فقطعت سرحاني الممتد بقولها إنها تذكر أول زيارة للعيادة، وقالت:

- سبحان الله، كنت أرى أحسن من الآن، الآن أرى دهمة فقط، الحمد لله.

وقف الممرض أمامنا لِيُعلن موافقة الدكتورة على المقابلة، فنهضنا لمكتبهُ لِدفع قيمة المقابلة، وسأل وهو ينظر في شاشة الكمبيوتر عن الاسم بالكامل ثم تاريخ آخر مقابلة ثم أعلن عن قيمة المقابلة. فكان الطبيعي هو الصمت التام عند دفع الزيادة المتوقعة.

عدنا للكنبة وقالت أختي مُتهكمة:

- ودكتور العيون! تفتكر الزيادة حتكون كم؟

- عشرة أضعاف لأنه من الإخوان.

- انت تظلمه. هو أبدا مش من الإخوان... هو متدين جداً بس انت عندك عقدة من الدين والتدين... وبعدين انت سألته وقال لك إنه ليس من الإخوان.

حاولت مواصلة الحوار لكنني كنت في غاية الإرهاق، وكنت مشغولا بما تبقى في جيبي. إذا ما استمر الصرف بهذا المعدل فسنواجه مواقفا في غاية الصعوبة.

كيف بدأ الحوار بينها وبين الرجل الذي ظهر فجأة وجلس مواجهاً لنا هو وزوجته. في العقد السادس من عمره وزوجته في منتصف الخمسينات. أكيد أنني لم أكن هنا، وأكيد أنني كنت هناك لحظة بداية الحديث:

- نحن من الخرطوم.. من العاصمة.

- يعنى انتم من الشمال ولا من الجنوب.

- من الشمال.

- أنا اشتغلت في شرق السودان في بلدة اسمها كسلا.. في الري والمياه والخزانات.. والله فيها أحلى فاكهة ذقتها في حياتي، كلها بساتين، ومزارع خضراء.

من فاكهة كسلا وعذوبة مياه النيل، إلى النيل والإثيوبيين وسد النهضة، والسفر والطريق البرى بين مصر والسودان والذي سيفتتح خلال عام أو اثنين، وانفتحت مساحة تسمح لها ببداية حكايتها لولا ظهور الممرض وإعلانه أن الدكتورة ستراها الآن. تفاديت نظرات من

معه التي قدرت أنها مكلفة بنقل شفرة، فطبيعي أن يتواجد مصري خدم في السودان في مرحلة من مراحل حياته في عيادة، لكنها مصادفة بزيادة أن يظهر متأخراً في نفس العيادة ولا يجلس إلا مُواجهاً لنا مباشرةً على وفرة الكراسي، والصمت التام الذي كله كلام من مرافقته. وطبيعي أن لا يكون موجوداً لحظة خروجنا من المقابلة، فالرسالة قد وصلت.

رحبت بنا دكتورة كريمة بِلُطف وتهذيب، وأخذت تستمع لشكوى أختي المختزنة. قالت إنها تحس بأن الفشل الكلوي يقترب منها، وإنها متيقنة أن ثمة ورم كامن في جسدها، وطلبت من الدكتورة أن تقسم لها أن كان أجلها قد اقترب أم لا؟ وابتسمت الدكتورة كريمة وقالت بتأكيد: دي بالذات ولا اكبر دكتور ممكن يعرفها، أصل مالهاش علاقة أبداً بالطب. ونظرت إلي نظرة فيها كلام، ثم نهضت وهي تطلب منها أن تنهض للكشف عليها على طاولة الكشف الطبي. قمت وساعدتها ممسكاً بيدي أختي حتى الستارة التي تستر الكشف الطبي ثم توقفت، توارت خلف الستارة وكانت الدكتورة خلفي تماماً. وبعد الفحص ساعدتها الدكتورة على النزول من الطاولة، وقادتها حتى المقعد.

– نبدأ بالتحاليل، الحمد لله أنا مش شايفة حاجة مش كويسة.

وقالت إننا يمكن أن نأتي لها بالنتائج في فترة العمل الصباحي.

لم يكن همي ونحن ننزل السلم ما كنت أسمعه من نعي لذاتها ونهايتها. الذي انتهى كان هو المال. حتى الألف جنيه التي صرفناها من المطار كنا قد دفعناها لتكملة الإيجار. ولم يعد في جيبي غير عشرين جنيها، وكنا في حاجة لرصيد لكي تتكلم مع البيت في الخرطوم، وكنت أحتاج إلى شريحة جديدة.

لم نجد صرافة (مكتب لتحويل العملة) وقدرت أنهم يغلقون مبكرين خوفاً من الأحوال العامة. وتحيرت وأنا على ثقة من أن سائق التاكسي

مهما كان شهماً فلن يقبل بالعشرين جنيها. ولما سألت مجموعة شباب- عولمة، على الطراز الأمريكي، عن صرافة وجدناها مغلقة قالوا إنها أقفلت أصلا قبل فترة طويلة. وبان على وجهي خيبة أمل وخوف أو توتر فقال أحدهم:

- كم معك؟

- خمسون دولار.

التفت إلى أحدهم وقال له:

- خد اللي عايزين يصرفوه.

ربما بسبب أختي ومظهرها وعصا المكفوفين.

سرحت وأنا أسمعها تحكى لسائق التاكسي وهو يحكي لها: السكر غدر بشبكية حماته ثم أمه، وأكد لها أن نصف الشعب المصري مصاب بالسكر، وفكرت في أنهم يستهلكون مبالغ مهولة في أدوية السكر وأحسست بالهم: إذا كانت الخمسمائة دولار قد تلاشت خلال وقت قصير فكيف سيكون موقفنا؟ لم أسالها أبداً عنٍ ما معها من المال للعلاج؟ أو لتكاليف الرحلة كلها؟ هي لا تخبرني أبداً عما تحمل من مال. وكنت أفهم إحساسها هذا: كونها تعيش دوماً وفق إحساس الفريسة! إحساس بأن انقضاض غادر قادم في لحظة ما. لا شيء سوى الحذر وطلب الأمان من القدر ذاته بالاعتراف له بخوف معلن من سطوته، وبرشوته بإظهار كل ما يمكن من إذعان له. نشأتها كلها محكومة بإحساس المطارد، للحظة، هي عشرة أعوام وجودها في البنك، تشاغلت عن ذلك الإحساس ، وسرعان ما جاءت حادثة الفصل من العمل فتجدد ضعفين إحساسها بالريبة والتوجس. وأكد لها مناخ التسعينات والألفية أحاسيسها وتيقنت أن لا سند لها سوى ما لديها من مال قليل، فصار سرها وساترها الواقي.

قلت لسائق التاكسي أن يتوقف أمام كشك يبيع رصيد التليفونات. نزلت ونظرت لأرقام التاكسي وحفظتها. في الكشك سيدة في أوائل الخمسينات، جوارها صبية في نحو العاشرة أو تزيد بنحو عام لا أكثر، الصبية تحمل نفس ملامح السيدة ليس فقط تأكيداً لأمومتها أو أي قرابة، بل تأكيداً لكونها صائرة إليها لتصبح هي- أمها- مجدداً. وتخيلت مكان ما ترقد بعد منتصف الليل وباقي الأسرة، والمصريين الذين يستميتون للبقاء أحياء، ونظرت لها ثانية بتقدير أكثر، لكن الإنسان حزمة من العادات التي لا تفارق أبداً. داهمتني عادتي، إذ ما رأيت أنثى إلا وألح عليّ تواً معرفة مُصادفة يوم دورتها الشهرية: هل ابتدأت؟ انقضت؟ في يومها الأول أم الثالث أم الأخير؟ لا يزال فيها دم- نعم أكيد - دم الأنوثة لم ينقطع عنها بعد. لكنها اعتذرت عن توفير شريحة إلا منتصف نهار الغد. اشتريت رصيدا بخمسين جنيها وعدت للتاكسي لأجد الحديث مستمراً بين السائق وأختي.

توقفنا أمام محل لشركة الاتصالات. كان شاباً من الشباب الحديث الذين لا يلتحقون بالإخوان تنظيمياً ولكنهم روحياً مُلقحين منهم فمُلحقين بهم روحياً أيضاً. تنز من كل مسام في أجسادهم قطرات شهوة استهلاكية تحرسها بقعة داكنة في جبهته من أثر السجود. وطالبني بإثبات شخصية حينما طلبت شريحة جديدة، فناولته جواز السفر. أخذ يدق في أزرار الجهاز وينقل في البيانات ثم مد يده.

- الفلوس.. حضرتك.

ناولته فوضع أمامي كارت عليه الشريحة.

قدت أختي من التاكسي إلى مدخل العمارة وكان التعب قد تمكن منا تماما. ضغطت على زر البواب مرة والثانية فردت زوجته تستفسر؟ فقلت لها:

- نحن السودانيين العيانين اللي أجرنا الشقة عصر اليوم.

انفتح الباب ولحظت أن يدها ترتجف من الإرهاق، فقلت لها ونحن في المصعد بأنني سأجهز لها كوب شاي بنصف ملعقة سكر كي يُنشطها قليلا. سمعت صوتاً من أصواتها التي تأتي من مجاهل يُحدد بأنها فقط تريد أن تنام، تحركت خلفها في الممر فلم تكن قد اعتادت - بعد- على المكان. ودخلت إلى الغرفة التي بها شنطة السفر خاصتها فمضيت الي الحمام المظلم وغسلت وجهي. ثم دخلت للمطبخ ونظرت، تناولت برتقالة وزجاجة ماء ووضعتهما على الطاولة في الصالة التي بها الكنبة التي اخترتها للنوم. سمعت حركتها في الحمام. ثم خطواتها الحذرة وهى تتقدم في الممر نحو الصالة. نبهتها إلى عتبة صغيرة فتوقفت، ثم بحذر غريزي مدت يدها اليمنى للحائط، ثم بحذر أشد مدت قدمها اليمنى تتحسس وتقيس المسافة ثم مدت قدمها اليسرى، ثم تقدمت نحوي وهى تقول إنها توضأت للصلاة وسألتني كيف سيكون اتجاه قبلة الصلاة؟

سؤال صعب لآخر شخص يمكن أن يتوجه له. اتصلنا بإيناس فوضحت لها كيف تضع الكرسي بحيث يكون على اتجاه القبلة. بدأت تصلي فقمت إلى غرفة النوم وتناولت المخدة والبطانية وعدت بهما للكنبة في الصالة. كانت تقرأ في أوراد الحفظ والتحصين وتحرك إصبعها بشكل دائري في الهواء. فتحت التليفزيون وبحثت عن قنوات سودانية، ثم القناة التي تشاهدها هناك في الخرطوم، ثم قناة القرآن الكريم. وسألتها عن القناة التي ترغب فيها، فقالت إنها تريد أن تنام لأنها تعبانة جدا. قلت لها إنني يمكن أن أجهز لها كوب شاي أو أي شيء قبل النوم. لكنها رفضت. قلت لها أن يوم غد سيكون يوم الفحوصات وبالتالي ستكون صائمة لوقت طويل. قالت لي: أين ستنوم؟ فقلت في

الكنبة هنا في الصالة فقالت: لن أتركك لوحدك. قمت مكرهاً وجئت بمخدة أخرى وبطانية ووضعتهما على الكنبة الثانية مؤكداً أن الكنبة لن تكون مريحة بالنسبة لها وأن في إمكانها أن تنوم في الغرفة، لكنها أكدت أن النوم موت. لم يكن الوقت مناسباً للخوض في تفاصيل عمن سيموت وكيف ولماذا؟ أو كيف سيدفع أيا منا الموت عن الآخر إذا ما انشب الموت أظفاره في أي منا بما عُرف عن لامنطقيته وعبثية اختياراته ثم استخفافه بكل التحصينات الإنسانية ما بين حذر صحي وكشوفات دورية ودعاء متصل بطول العمر.

ابتسمت حين دخلت الحمام الكبير المضاء ونظرت في المرآة. فقط مسافة ما تم تسجيل بياناتي في جهاز كمبيوتر الشركة ومسافة ما وصلت إلى الشقة، كانوا قد أرسلوا إليّ على الرقم الجديد. نظرت للأرقام المشفرة التي ظهرت على المرآة وحفظتها، ثم خرجت من الحمام وتناولت الكمبيوتر- المحمول- من الغرفة واتجهت إلى الصالة وأوصلته بالكهرباء. سمعت صوتها تسألني عما أفعل؟ فقلت: الكمبيوتر! وجئت إليها وسألتها إن كانت بحاجة إلى شيء؟ فقالت إنها تريد أن تسمع القرآن. تناولت الريموت وضغطت على زر فتحولت القناة إلى قناة القرآن.

تمددت على الكنبة وأغمضت عيني مسترخياً. كان اليوم مليئاً بأحداث مرهقة، وسمعت صوت تنفسها المنتظم، لكن النوم كان يجافي عيناي حال ما يكون جسدي مرهقاً. وفكرت أنها مسكينة وأن الحياة قاسية، وسناء مسكينة وقست عليها الحياة، وإيناس، والبنت التي ستأتي غداً.

(٢)

كان أمتع الأشياء لدي هو أول سيجارة أدخنها في الصباح بعد كوب الشاي، لكن عبثية الأقدار ما أن تتيقن من اكتمال متعة الإنسان خالصةً بشيء إلا واحتالت بحيلة تفسد بها، فصارت متعة سيجارة الصباح ذكرى، وبقي الشاي في الانتظار.

وضعت كوب شاي سادة بدون سكر صناعي أمامها، فاليوم ستظل صائمة إلى حين إجراء الفحص. وضعت في يدها القرص الذي يضبط لها ضغط الدم وانتظرت حوالي عشرين دقيقة لضمان سريان الدواء في جسدها ثم قلت لها ما كنت متأكداً من إنه سيزيد من توترها:

- نحتاج لصرف دولارات للفحوصات وللمواصلات، وممكن تظهر لنا احتياجات أخرى.

كانت صامتة تماماً. فهل هي أحلام مُحبطة تطاردها بهواجس؟ أم يقين عُسر صرف المال على الإنسان؟ اعتذرت عن إزعاجها، فالبلاد تغير حالها. نهضت ومشت بخطوات واثقة وكأن خريطة المكان قد ترسخت في ذهنها وساد صمت. ثم ناديت عليها فردت بأنها ترتدي ملابسها. أخذت أنظر حولي مُفكراً في أنني أضعف ما يكون الآن، وهى تظن أنها أضعف من يكون الآن. ناولتني خمس ورقات من فئة المائة

دولار فوضعتها في جيبي مُردداً كلمات الاعتذار وهى تردد بأنها راضية. لم تقبل برمجة الاقتناع في دُماغي مُفردات تأكيد رضائها بصرف المال، ولم تقبل برمجة الذاكرة حفظها فأعادتها لها. لا ينكشف الإنسان كمثل ما ينكشف في لحظة إنفاق المال ولو على ذاته! الكائن المحارب ولوٍ تبدى في تمام تتكره بأصباغ الإنسانية والإحساس بالآخر لوجعه روحاً وشخصية ما فقده منٍ مال. تقدمت بخطوات بطيئة وحذرة نحو باب الشقة وكنت خلفها تماماً، لم أمد يدي لكي أساعدها حتى تحس بقدرتها على الحركة دون مساعدة.

ما أن ظهرنا في الشارع حتى ظهر تاكسي وتمهل وكأنه يقول لنا تفضلوا. فتحت الباب الخلفي وركبت أختي، ثم فتحت الباب الأمامي وركبت بجوار السائق. قلت السلام عليكم فرد السلام لكن عينيه كانتا على مرآة السيارة تتفحصان أختي:

- ميدان الحجاز، معمل التحاليل الطبية.

سائق التاكسي في منتصف العمر، من البشر الذين لا يُظهِر تعاقب السنين آثاره فيهم. عينيه بنظراتهما الحادة أو الثابتة أو الواثقة تؤكدان أن خلفيته عسكرية. وساد صمت الاستكشاف الغريزي الأول، لكن أختي لم تكن تطيق صبر صمت فكشفت الحال بسؤال عن المظاهرات.

- الجزيرة.. كل يوم تذيع عن المظاهرات اللي في كل الشوارع.

- لا..أبداً..!

هل أعجبتها الثقة في صوته مع نبرة رجولية متحدية؟ نغمة صوتها جاءت تختلط فيها أنوثة مقموعة تحاول أن تتبدى في نطق حرف (ج) مطلياً بمسحة أنثوية، والصوت في مخارجه مجاصر بالخوف حد الموت من رقيب الحلال والحرام الداخلي.

ضحك ضحكة هادئة وهو يرد:

– حد عاقل يشوف الجزيرة يا حاجة؟ طبعا لازم تذيع مظاهرات كل يوم لأن ده شغلها. السودان بتصدق الجزيرة ليه؟

هل الضحكة على الجزيرة أم على السودان؟ أم عليهما معاً؟ أم علينا نحن؟

وانتبهت حين أعاد السؤال:

– السودان بتصدق الجزيرة ليه؟

نظرت إلى وجهه: كان يضغط كي يتلقى مني إشارة. خلعت نظارتي الطبية ذات الإطار الكلاسيكي الضخم. في داخل الإطار (الفريم) رقائق مبرمجة للبث– إرسال وتلقي – لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة، ولم انتظر لأتأكد مما بداخل جسده، لكنني تيقنت من أنه مُلِم بتدريب الضغط في الحديث، وواصل مُنتقلاً إلى أختي:

– يا حاجة الإخوان عايزين يعملوا فوضى هنا لأمريكا علشان أمريكا تتدخل وتقسم البلد زى ما عملت عندكم.. بس هنا ما ينفعش.

أخذت أختي تحكى قصة حياتها. وارتحت لأن الحكي ينسيها الدوار ويبعد احتمال التقيؤ. وارتحت أكثر لأن البنت ستكون جاهزة بعد ساعة وسأعود للشقة لأجدها في انتظاري.

أمام العمارة التي بها معمل التحاليل الطبية توقف التاكسي. نزلت وفتحت لها باب السيارة وساعدتها على النزول مُتحاشياً تماماً النظر إلى عينيه. تناولت الكمبيوتر– المحمول، الذي وضعتهُ بِجوارها.

منذ خاطبني بالسؤال وخلعت النظارة لم أضعها في عيني. وحين نظرت إليه مُتسائلاً عن حق المشوار كان كلانا يواجه امتحاناً قاسياً يتعلق بتدريبات لغة العيون، وكيفية تحويل الخواطر والأفكار إلى لغة

بصرية مُموهة باستخدامِ الحواس وبتحريك عضلات الوجه. أيا كانت الجهة التي دربته أو الخبرة التي تراكمت لديه فقد قضى- بدون ذرة شك- وقتاً طويلا في وحدة محترفة.

لحظت ونحن نتقدم في السلم أن أختي تمسك بنظارتها في يدها اليسرى! سألتها لِم لا تضعها على عينيها؟ فصمتت. وبدأت رائحة المطهرات والمحاليل الطبية تصل إلينا. كانت تقف بنت مصرية من الأحياء الشعبية، ترتدي بالطو- طبي أبيض، وشاب مصري من الطراز الأصيل. مصري خالص لم يتغير بأي مؤثرات من طوفان المؤثرات الذي كاد أن يُغرق المصريين. سلمنا وتناولت البنت الورقة التي بها التحاليل المطلوبة. نظر الولد في الورقة ثم حرك أصابعه في كي- بورد الكمبيوتر المفتوح أمامه وأخذ ينظر ثم خاطبها:

- حضرتك كنتي عندنا قبل سنة وأربعة شهور يا حاجة؟

ضحكت بجزل وأزيد وهى ترد:

- أيوه، أصلي بحب مصر.

وقع في أذني منطوق بحب وتنغيمها مُتسقاً تماماً مع وضعية النظارة بين إصبعين في يدها اليسرى. تريد أن تُعلن حبها لشيء. الحب قمة الانتماء وتُريد أن تبلغ قمة ما، تريد أن تحب وأن تجاهر بالحب وبين أصابعها نظارة تحركها! غاية الخسة مني أن أتجسس عليها في لحظة من لحظات خصوصيتها، لكنني ومنذ زمان بعيد كتلة من الخسة المندسة في وسطهم وعبثاً أحاول أن اكف.

سألت البنت عن تكلفة الفحوصات والتحاليل ولما نطقت الرقم خرج مني ومن أختي صوت استنكار أكثر منه صوت دهشة. كان ضعف المبلغ قبل عام وأربعة أشهر، وسارعا معاً: البنت المصرية والولد،

بالإعلان عن أن كل شيء تضاعف سعره. وهناك فحص إضافي لم يكن موجودا في ورقة العام الماضي، سألنا، فرد بأنه تحديد نسبة نشاط الخلايا لقياس احتمالية الأورام السرطانية. وكان هذا كافياً بزيادة لكي تظهر بنت أخرى وتمسك بكتف أختي ثم تحركنا جميعاً، إذ صرت والولد المصري خلف البنات وهن ممسكات بها باكيةً بصوت عال وتردد خلاص.. خلاص. وفى مواجهة التليفزيون بالضبط اختاروا لها مقعداً وتمت موافقة جماعية صامتة على محطة القرآن.

– لم يقولوا أي شيء وهذا فحص عادى جداً ولن يكون هناك شيء. توقفي عن هذا البكاء، إلا إذا كنتي تريدين أن ترتاحي من أشياء أخرى.

– خلاص.. مبروك عليك.. ارتحت مني!؟ انت أصلاً ماذا تريد منا؟ ماذا تعرف عنا؟ عمياء وضغط وسكر وكمان أورام؟ أنا دنيئة فعلاً لأنني أتمسك بالحياة، والحياة ذاتها ترفضني في كل شيء.

وقفت أمام المصري وقلت له إنني أريد منه خدمة وهي أن يبدأ الفحوصات ويُمهلني وقتاً. ثم بحركة رجل ذو مال، أخرجت الدولارات ورفعتها أمام وجهه. فرد ببساطة:

– اتفضل حضرتك، ولما ترجع تلاقى كل حاجة تمام.

علي السلم فكرت أن إيناس لابد أن تكون قد استيقظت الآن. اتصلت واستمعت للجرس يرن بدون أي رد. اتصلت مرة ثانية، لم ترد. هل ما زالت نائمة؟

دخلت إلى محل شركة اتصالات ووجدت بنت شابة تقف خلف الكاونتر. الرجل الذي يقف في ركن المحل كحارس أو كساعي ميت منذ ما قبل! لا الزى– الكفن، ولا الجنيهات سيبعثانه لمواصلة الحياة.

وسرحت في حيل البعض إصراراً على استمرار تدفق الموت في الحياة تحملاً لِما لا يُحتمل. رفعت الكمبيوتر- المحمول ووضعته أمامها على الطاولة وقلت لها إنني أريد أن اشترى (كونيكت- موصل) يمكنني من الدخول في الشبكة- الانترنيت، وسألتها إن كان بالإمكان أن تبرمج الجهاز على كود الشركة؟ وإن كان بالإمكان أن تقوم بتعبئته برصيد؟ لم ترد بكلمة وبدأت في توصيل الجهاز بالكهرباء. أحسست أن ثمة شيء. أخذت تدق في أزرار الجهاز بعد أن أخرجت الكونيكت- الموصل، من صندوق تناولته من الرف، ثم في لحظة انتبهت إلى أن الشيء المُخالف المألوف هو شعر البنت: إذ لما انحنت لتدقق أكثر في الجهاز سقطت خصلة من شعرها كأجمل ما يكون، وسرت لثواني دفقة حياة في كل جماد أعادت الحياة ساخنة. يسارية؟ ربما، أو ربما من القِلة القليلة ممن لا يزالون يحاولون البقاء على قيد الحياة.

حين تكونِ الأنثى على يقين تام من أن الذكر قد ثبت نظراته على جسدها مُستغرقاً في تفاصيله تتظاهر هي بالانشغال الشديد فيما تفعل. لون بلوزتها أزرق خفيف مع خطوط بيضاء، وتلك المسافة ما بين زر وزر آخر والتي يتبدى من خلالها لون آخر أزرق بدون خطوط بيضاء. وهل أجمل من اختلاس نظرة للسوتيان النسائي حين غفلة؟ تتحدث عن النظام وعمله، والبرنامج وترتيب الخيارات. وكنت أُرتب في الخيار الثالث وهو أن لون سروالها أزرق خفيف، وسير السروال أبيض مع وردة بيضاء أو نجمة بيضاء في ذلك الموضع بالضبط. هي من طراز البشر الذين يضعون كل شيء بتنسيق في موضعه.

- كده نكون خلصنا... انت معايا يا افندم؟

- أكيد معاكي.. بس لو ممكن؟

وأخرجت الدولارات ملوحاً بها بحركة توحي بأن المبلغ بسيط:

- أين أجد صرافة قريبة؟

- ثالث دكان على اليمين يا افندم.

خرجت وأنا أفكر أن البنت إذا لم تأت اليوم فسأنفجر. واتصلت مرة وأخرى ولكن الجرس يرن وهى لا ترد. وأحسست بدماغي يتحرك بمعدل سرعة أعلى من المعتاد، وللحظة ويدي على باب الصرافة اظلمت عيناي ثم تزايد وميض مركز تنبيهات دماغي. ما أن دفعت باب الصرافة حتى ارتفع صوت القرآن، مثل ما عندنا: كل محلات الجماعات الإسلامية استوردت هذا النظام من بلاد ملحدة عن طريق وكيل شيد مسجدا ليتعبد فيه الفقراء وليتقرب من خلاله المساكين إلى الله. ومثل ما هو مقرر مفروض كان جورج واشنطن على الحائط متوسطاً ورقة إكسير- الموت- (الدولار) مُحاطاً بآيات وبمأثورات وأحاديث تحث على الزهد وعلى الإنفاق على اليتامى والمساكين، ثم في لحظة اظلمت عيناي ثانية ورأيت صورة جورج ماكلين مكان صورة جورج واشنطن، وتتابع إرسال الإشارات والصور من مركز تنبيهات دماغي فانتبهت إلى أن فيروسا قد بدأ ينشط. شل الدولار،أو الفيروس قدرتي علي الربط بين الكلمة المنقوشة (في الله نثق) وبين كل ما يصنع: فالحروب تُصنع صناعةً في التخطيط وفى الإعداد وفى التنفيذ من اجله، وتُحصد الأرواح من أجل حصد أكبر مقدار ممكن منه. وترتفع أرقام الضحايا ما بين لاجئين ومجانين ومشردين ومفقودين ومعاقين وأسرى فترتفع الأرباح أضعاف. ثم يبدأون في الصياح من جميع الاتجاهات عبر مختلف المنابر مطالبين بمؤتمرات لفض النزاعات، وبمنظمات للمعونات وبدولارات لمهام المبعوثين: مُنظمات وشخصيات تصنع صناعةً وتُعد إعداداً، ومعاهد أبحاث، وفضائيات، وورش عمل، وطائرات تحلق وتهبط، وممرات آمنة بلا أمن ولا أمان. وهززت رأسي

مقاوماً الفيروس ووجه العجوز حارس صرافة الدولار هو وجه الإبراهيمي وهو يهمس، والذي ينظر من خلال الزجاج السميك هو بان كي مون يحرك فمه دون نطق كي لا يُسمع، وقالت لي كاترين أشتون المحجبة وعلى جبهتها غرة صلاة لا تتأتى إلا بسجود خمسين عاماً: وقع هنا. وتصاعد نشاط الفيروس فتتابعت أوجه سفراء النوايا الحسنة، وينفتح باب الصرافة فملأ التهليل والتكبير أذني.

على الحائط لوحات إلكترونية تُعلن عن خضوع لورقة جورج واشنطن. خضوع مُفضي ومُنبئ عن مصارع العملات، ومن ضمنها الجنيه المصري الذي خر صريعاً منذ عقود لا كأسطورة فرعونية لا ينال منها تعاقب الزمان، بل كجثة تم دفنها وتشييعها بتحويلها إلى قيمة بلا قيمة، تُشيعها بلا اكتراث ولا وجع نظرات المتناثرين خلف مدافنهم ذات الحوائط الزجاجية، ساهمين يلتهمهم استغراق ممض في حسابات تأكل أعصابهم، بسبب كل شهوة دنيوية يتوقون إليها ويستعينون للحصول عليها ببقعة سوداء كبيرة في منتصف جبهة كل منهم بسبب إطالة السجود مع إلحاح في الدعاء للحصول على إكسير- الموت- . ناولته الخمسمائة دولار عبر فتحة أسفل لوح زجاجي يفصل بيننا واخذ يحسب ثم مد يده بورقة وقلم ووضع إصبعه في موضع ينتظر توقيعي ففعلت، فمد يده بالمال. نظرت للرقم على الورقة وقلت له إن الرقم ينقص عن سعر صرف الدولار الموضح على الشاشة؟ فبان الغضب على وجهه وأشار بيد ظهرت فيها مسبحة الكترونية إلى لوحة خضراء.

في محل الاتصالات سألتني البنت :

- كيف استطعت أن تدخل للشبكة بدون اشتراك ورصيد؟

- صديق مصري كان معي أمس واستخدمنا اشتراكه.

جلست جوار أختي ساهماً مثلها. انقضت الساعتان. كان خطأي في الاعتماد على إيناس لوحدها. كم عدد البنات اللائي ينتظرن زبونا متلهفا مثلى؟ في كل شقة، في كل مكتب، في كل عربة، في كل محل أيا كانت بضاعته المعروضة، وفى كل فندق وبار ومطعم وكافيتيريا، في كل شارع وحارة، وفى كل ركن وزاوية. كل مُكالمتين من ثلاثة ينساب عبر موجاتها ترتيب وينجح. وتكون المكالمة الثالثة عما جرى من تفاصيل في الترتيب السابق. الآن في هذه اللحظة بالذات في الحمامات وقوفاً مستندين على الحائط، بسرعة وبدون خلع الملابس كلها، الآن لو نظرت تحت كراسي معمل التحاليل لوجدت ثلاثة: اثنين في الممارسة وواحدة كما خرجت للدنيا تنتظر.

أمواج الطوفان تصعد بالجميع ثم تغطس بهم. المال هو الغرض وهو النتيجة. صحيح هو موجود ويبدأ من خمسين جنيه ويصل إلى أرقام بخمسة أصفار وتزيد. ويأخذ أشكالا أخرى: عمولات جسدية وتسهيلات لمرور صفقات، فخاخ للضغط وللابتزاز لتمرير الكثير. وهناك إلحاح المزاج، وهناك ضرورة انتزاع حق الحياة عبر التجربة، التحدي الذي يضعك في قلب لحظة العصر مع الفيس- بوك، والواتس- آب، والفايبر، والبرغر والهام بيرغر والحجاب والنقاب وصلاة الجماعة، فلماذا إذن إيناس فقط؟

دموع أختي تسيل في صمت ولم يكن لدي ما أقدمه لها تعاطفاً أو طمأنة. من جانبها لا تُدرك مدى حوجتي الآن، ويقيني أنها لا تُعانى مما توهمتهُ. أخذت أهز رأسي بشدة كي يستعيد دماغي عمله بالطريقة المألوفة، ويوقف نشاط الفيروس الذي استمر..

تقرير عن التغيير في المزاج الجنسي في الخرطوم:

تذكرت ما قالته ميسون عما أحست به من حسرة تُصيب الرجال إذا ما فشل البرنامج ولم يتم بحسب الاتفاق والترتيب لأي سبب من الأسباب. وضحكوا وكل واحدة تحكى عما صادفته من حال الرجال في تلك اللحظة. كنا في شقة تغريد. هي من يدير الشقة وكانت تختار يوماً بين فترة وأخرى وتعتذر للزبائن. تجمع البنات مع مقربين لها فقط للونسة. الشيشة، والسجائر عادية أو ملفوفة بالبانجو أو غيره. قالت ندى إن الرجل تمسك به في رأسه فكرة أن لديه برنامجٍ مع بنت ويصبح كل تركيزه في الفيلم الذي سينتجهُ وسيُخرجهُ وطبعاً هو البطل الذي سيمثله، فوالله معذور إذا البطلة اعتذرت، والناس كلها قطعت تذاكرها وجلست تنتظر.

– الناس! مين الناس؟

– انتي عبيطة!؟ يعنى لا تعرفين أن أهم شيء لهم هو أن يجري جري لأصحابه ليحكي لهم عن رجولته وفحولته وكيف هو صعلوك خطير؟

– تافهين! أمي الله يرحمها طول عمرها تحذرني من الرجال! الله يرحمها قتلوها بالحسرة.

وسألت رندا عن السبب ماداموا لا يريدون المتعة ذاتها؟ سهام نادراً ما تتكلم لكنها أرسلت نفساً طويلا من الشيشة وقالت بنبرة خطابية: اسمعوا، اتنين بس هم اللي بيعرفوا جوف الرجل! أمه وعاهرته وبس! لا تصدقوا أبداً أن زوجة الرجل هي اللي بتعرفه. ودقت براحة بيدها على فرجها بفخر قائلة: اسألوه وهو يقسم لكم بصدق كلامي، واسمعوها منى بعدين لامن تفتحوا بيوتكم: اللي راجلها بيكون معروف لها ومكشوف من بره ومن جوه.. ده ماْ راجل لأنها

ببساطة انتهت منه وهو استسلم يعني مات، انتهى خلاص. الراجل لازم يكون حي ويكون مقلق بك وتقلقي به! ودقت فرجها بيدها مرة أخرى وقالت تخاطبه: مش كده يا حُبي.. النبي فيك كان ما علمتهن! وكررت: أمه لأنه ود أحشائها وراضع لبنها، وعاهرته لأنه صادقها وعاشرها عُشرة رجال إخوان ولفترة من الزمان.. هي وبس. وبان على وجه رغد- وبينها وبين زفافها شهر- ارتباك وهى تقول: يعنى ما أسيطر عليه؟ وأكيد حيكون عنده صاحبة؟ أكيد؟ وضحكوا ضحكة جماعية من القلب، وقالت لها سهام: هو يصاحب وهو حر، وانتي تصاحبي وانتي حرة، والبيت ماشى عادي ما في مشكلة. وقالت ندى: ليه بيزعلوا لو حصل قدر ووقف البرنامج؟ حقارة منهم!؟ انفعلت مودة التي ولدت وتعلمت وتزوجت وانفصلت في السعودية: رزق شنو يا عاهرة؟ ده كله حرام في حرام والرزق ما فيه حرام. لم تكن تطيقها أبداً ولم يكن السبب معروف أبداً، مثله مثل دوافع الأنثى تجاه أخواتها من بنات حواء حتى وإن كانت صداقتهن غاية في المتانة. قالت موجهة لها الحديث باستخفاف واضح: حلال أم حرام هو رزق مكتوب ومسطر، إذا كان الحرام مكتوب فسيتم، وإذا لم يكن مكتوب فلن يتم أبداً.

- يعنى كل راجل مقسوم له عدد المرات التي سيضاجع فيها وعدد النساء اللاتي سيضاجعهن وحتى كمية ما سيدفق من مني لو جوه أو بره أو..،

وسارعت بسمة: أو في الكندوم (الواقي) وضحكنا وقلت لها: من أين جئت بهذا الكلام؟ فقالت: من دراستي في الجامعة. وواصلت بذات النبرة المتهكمة: طبعاً تعلمته من أقدامي المرفوعة سنوات وسنوات، تجارب الحياة دي هي المدرسة والجامعة والشهادة والماجستير والدكتوراه، وهى في النهاية الامتحان اللي بنسقط فيه كلنا. ووقفت

بسمة ثم صعدت على الكرسي ملوحة بيديها: يعنى نحن عندنا ماجستير ودكتوراه... ودقت عليه وعلى مؤخرتها وهى تردد: أحمدك يا مولاي ما ظلمتني. وهزت مؤخرتها وهى مبسوطة: النبي شوفي الدكتوراه دي؟ ليهم حق قدر ما يفتحوا في صفحاتها ما يوصلوا إلى نصها!

جاءت بنت المعمل المصرية وقالت إننا يمكن أن نتناول الوجبة خلال عشرين دقيقة. وسألتها: أي نوع من الطعام؟ فقالت: أي نوع.. ما فيش مشكلة. وسألت أختي عن طلبها، فردت ببطء: أي شيء. وقفت أمام محل لبيع الفول والفلافل. لحظة بنكهة المصريين، يتزاحمون ويتصايحون مطالبين بسرعة تلبية طلباتهم. ممتع سماع طريقة نطقهم في توصيف ما تشتهي أنفسهم. ناولت الرجل الجالس أمام ماكينة حفظ الفلوس وتناولت منه ورقة عليها رقم مطابق لما طلبته. وقفت أنظر لرجل آخر وجهه يظهر خلف لوح زجاجي. البطاطس والبيض المسلوق، والخضار والسلطات واللحم المفروم. صوت الغاز الذي يُشعل النار وصوت الزيت الذي يغلي. سرعة اليد المصرية وهى تلقي بأقراص الطعمية في الزيت ثم وهي تلتقطها وتلفها في الورق، وتلك الحركة السريعة لليد وهى تُدخِل ما تغرف به في قدر الفول ثم في لمحة تعود مُحملة بالفول وتتحرك مُضيفةً ما (هيأت به الفول) على طبق أو على ساندويتش ملفوف في ورق.

حملت أربعة ساندويتشات وزجاجة ماء، وحالما اجتزت المدخل حولت أختي وجهها باتجاهي. جائعة جداً- لاشك- لأنها مُعتادة على الإفطار الصباحي مع الشاي. ناولتها الساندويتش وبعد أول قضمة بدأت تردد في ذات النغمة وكونها أرهقتني، وأنها تفعل ما لا فائدة منه وهى أول من يعرف، وأن علي أن استحملها شوية فقط. وازداد ضيقي وأنا

أعجز عن مقاومة خستي، إذ ألفيتني أنظر للقضمة المحكمة الثالثة والتي أضحى بعدها الساندويتش أثراً مخفياً، وتتبعت صوت المضغ المحكم إحكام إقبال على الحياة، وتخيلت اللقمة تسري عبر تجويف الحلق ثم تلك اللحظة بالغة المتعة الغريزية حين تستقر اللقمة في المعدة. لما ناولتها الساندويتش الثاني ومدت يدها لتمسك به رأيت في إصبع يدها اليسرى خاتما ذهبيا يظهر كدبلة زواج. أسى جارف غمرني، فلا أنا ولا هي نحمل حتى مجرد ذكرى عن رجل تقدم لخطبتها، منذ كنا صغارا، وخلال مراحل الصبا، ومرحلة المراهقة، وعبر مراحل الشباب وحتى محطة المغادرة، لم نصادف حديثا جادا أو شبه جاد عن مشروع مقترح لخطبتها من قريب ولا من بعيد، لا من رجل كبير ولا من امرأة تقدمت تسأل عنها، وظلت في ظلام الانتظار ما بين تجاهل وخنوع.

قادتها البنت المصرية من يدها إلى غرفة الفحص. وتناولت الموبايل من حقيبتها التي تركتها معي، وضغطت على رقم إيناس، وسرعان ما ردت فصحت بغضب:

– أين أنتِ؟ من الصباح أتصل ولا تردى والآن تردي لأنني أتكلم من موبايل أختي؟

– انت اللي فين؟ أنا مستنياك من الصبح ولا رنة واحدة منك؟ قلت أكيد حصل لهم حاجة في المستشفى فبلاش أتكلم في موبايل أختك، والبنت جاهزة وبعت لها نمرة موبايلك قالت بترن عليك وأنت اللي ما بتردش؟

– أنا!؟ أنا بتصل عليكي من الصباح والجرس بيرن وانتي لا تردي و..

– والله العظيم ولا رنة واحدة منك، شوف موبايلك والا شوف الشريحة. أنا بقولك أن البنت جاهزة وحكسب فلوس، ما اردش ليه!؟

- طيب فين البنت الآن؟ وانتي فين؟

- راحت الكلية... ممكن أكلمها تيجي العصر.

- أيوه خليها تيجى ونشوف، ممكن نرجع الشقة بعد ساعة.

أخذت أفكر ببطء: موبايل يرن ولا تسمع ولا ترد؟ أكيد تكذب. لماذا لم ترسل رسالة؟ هل يُعقل أنها لا تعرف القراءة والكتابة؟ لكن لماذا أذهب بعيداً: هم لا يريدون لهذا الموضوع أن يتم اليوم وبدون إشراف مباشر منهم. الاتصال تم من موبايل أختي بسهولة، ولكن بعد أن لم يعد الوقت يسمح وبعد أن انصرفت البنت للكلية، إذا كانت حقاً طالبة في كلية.

سألتني أختي عن إيناس فضغطت على أزرار الموبايل وناولتها، سمعت صوتها وأخذت أختي تحكي لها عن الفحوصات وأكدت لها أن في إمكانها أن تذهب للشقة لتبدأ في تنظيفها لأننا سنكون هناك خلال ساعة.

أخذت تجر المسبحة ويدها على عينيها وظللت صامتاً، ثم قالت:

- طبعا انت اتفقت معهم إنهم يخفوا نتيجة السرطان، بس أرجوك انت تخفيها عن ناس البيت، لا تخبرهم أبداً.. لن يتحملوا..

وأخذت تبكي مرة أخرى وتستغفر.

ظهرت البنت المصرية وطلبت من أختي أن تأتي معها للفحص الأخير، وبعد لحظات عادتا معاً والمصرية تُطمئنها بأن النتيجة ستكون نظيفة وأصرت هي أن تخبرها تواً.

بدأنا ننزل على السلالم ببطء وكان أمامنا رجل مصري وامرأة مُنقبة، وما أن انتبه لأختي بعد التفاتة حتى توقف وانتحى مُلتصقاً بالحائط مُمسكاً بيدها، زوجته، أو أخته. ألقيت بالسلام وشكرته.

- السودانيين أطيب ناس... أهلا بكم، وبالشفاء إن شاء الله.

كانت كلمة المرور لأختي، لكن لم يكن معي مقدار ذرة تحمل لجنس مخلوق، ولا زاد صبر لِلعبة طول البال، يكفيني تقبل صدفة ظهوره- هكذا فجأة - ونحن نغادر المعمل والعمارة كلها ليمارس إنسانيته بالسماح لنا بالمرور في السلالم. لكن كانت لأختي أجندتها ولم يكن ممكناً إيقافها.

موضوع الحديث: أهل الله الصالحين في السودان. قال الرجل إنه يعرف منطقة كلها أولياء وصالحين. والتفت إلي:

- اسمها ايه؟ منطقة في السودان، أيوه واخد بالك، فيها ناس تقدر تسيطر على الجان المسلم اللي بيعمل لك كل حاجة بس من غير ضرر لحد، ناس عندها معرفة بالأسرار؟

كانت نبرة صوتي حاسمة:

- لا والله.. نحن لا نعرف هذه الأمور.

ارتفع صوت أختي متحمساً:

- كيف لا نعرف؟ بيقصد منطقة دباس.. كلها أولياء وصالحين.. وعندهم روحانية مسلمين. وفى منطقة تانية فيها ناس عندهم جان سفلي كافر. أيوه، نحن موجودين في عالمنا العلوي وفيه عالم سفلى، كل الناس عارفة الحكاية دي.

لم نأت بالطائرة لكي نتحدث في مدخل عمارة في ميدان الحجاز عن عوالم الجان الخفية في بلادنا، البنت التي جئت من اجلها هي المخفية، والمُنقبة التي معه صامتةً.

أمسك بكتفي ومال على أذني وهمس:

- هي الطبيبة المصرية اللي قصتها مشهورة وراحت عندكم في السودان، وهناك نجح معها العلاج الروحاني، لكن انت عارف طبعاً اللي حصل، وما حدش يقدر يتكلم.

وأمام التاكسي قال لها:

- رقم الموبايل وعنوان العمارة والشقة، احنا معاكم دائماً والشفاء أكيد بإذن الله.

وجدنا إيناس جالسة على السلم. قالت إنها لم تجد البواب لكي يعطيها المفتاح فجلست تنتظرنا. ولما دخلنا إلى الشقة ودخلت الحمام شممت رائحة تشي باستخدامه قبل وقت. ربما طال الوقت، لكن الرائحة لا تزول بالسهولة التي يتمنى بها من خرجت منه أن تزول. إيناس تعمدت أن تجلس على السلم إيحاءً بأنها لم تكن في داخل الشقة وعبيط فقط من يتوهم أن البواب المصري أوأن الشغالة لا يسهلان تركيب أي تحصينات ، فهل ما وضعته في داخل الشقة هو كاميرات للتصوير؟ أم أجهزة تصنت دقيقة؟ ثم هناك تغييب البنت والزعم بأنها لم تتلق اتصالات على كثرتها. تنفيذ ضعيف للغاية! فأدنى حد من الخبرة لا ينتج تصرفاً بهذه السذاجة! أي محترف هذا الذي يهتم بتوفير تبرير؟

اهتمت إيناس بأختي. أحاطتها بيديها حتى الحمام وأصرت عليها أن تأكل. جهزت لها سلطة خضار وبرتقالة، ولم أندهش حين أخرجت أختي ساندويتش الفول من حقيبتها وبدأت تدعو المصرية لمشاركتها مؤكدةً أنها لم تذق مثل هذا الطعم من قبل. أعدت إيناس كوبين من النعناع الساخن وجلست بجوارها لتستمع إلى قصة اليوم من أوله.

تركت لهما الصالة وتمددت على السرير الكبير في غرفة النوم والذي كان مفترضاً أن يكون ملعباً للمباراة الساخنة التي جئت من اجلها. سرير كبير وبارد. وتذكرت كلمة أحدهم عن أن سرير غرفة النوم ليس

بالحجم بل بالمشاركة. وأغمضت عيني محاولاً التفكير في أي شيء آخر. لكن عبثاً، إذ لاشيء يُشتت التركيز كضغط الحوجة الجنسية سيما وقد انتبهت الهورمونات مُنبئةً باقتراب حدث.

كنت أسمع صوتها تتحدث مع أختي. هي من يجب أن تأتي وتتحدث معي وتوضح وتشرح وتعتذر. ثم لماذا تستكثر نفسها أصلاً؟ هل تظن أن أكذوبة محبتها وإخلاصها لزوجها تمر علي؟ أخذ غضبى يتزايد ووقع خطواتها يدق في أذني وهى تتحرك ما بين المطبخ والصالة. ساد صمت. فتحت عيني على صوت خافت يهمس: بس... بس. ووجدتها واقفة عند باب الغرفة وهى تشير بيدها إلى الصالة وتهمس:

- حصل أيه؟

أشرت إليها أن تقترب:

- التحاليل نتيجتها وحشة جداً، وربنا يسترها معنا في النتائج الباقية.

رسمت تعبير حزن على وجهها ، ثم همست متسائلة:

- كيف ندخل البنت؟

- إنتي موجودة؟

- طبعا البواب مش حيدخلها العمارة إلا معي أنا، ولما تخلص انت منها، أنا أوصلها لبيتهم، أصل أمها لا تثق في حد غيري ولا تكون مطمئنة عليها إلا معي!

وواصلت:

- هات الفلوس.

- فلوس أيه؟

- فلوس البنت. الله! مش متفقين!؟ البنت جاية علينا وحدّخلها هنا لحد عندك وما تقوليش أختي ومش عارف أيه؟ أختك ما بتشوفش، ولا حتحس بها، انت تمثل كأنك نزلت وأنا أسيب لك باب الشقة مفتوح، تيجي راجع وتدخل وتنجز من غير ما أختك تحس، وأنا أوصي البنت ما تطلعش صوت خالص.

إذن البنت أمر واقع الآن، في التوقيت الذي اختارته هي وليس كما طلبت أنا في الصباح. هي كاميرات للتصوير إذن ومزروعة في هذه الغرفة بالذات!

- قلت لك ولآخر مرة مستحيل أعمل حاجة زى دي وأختي موجودة.

- افهمني بس: ده عادى جداً عندنا، والله كل البنات بتدخل الشقق عادى جداً وبتقضي وقت حلو جدا مع صحابها وحبايبها وتنزل من غير ما حد ياخد باله!

- كل البنات!؟

- أيوه.. كل البنات والستات والرجالة، أصل مشكلة المطرح (المكان) معذبة كل خلق الله اللي تعبانة وعايزة، وحتموت لو مش لقيت مطرح عشان ترتاح فيه. ده المطرح بيندفع فيه أعلى من سعر البنت، وفي ناس تاخد بالدقيقة.

ارتفعت نغمة موبايلها بدعاء ديني واستمعت، ثم ناولتني الموبايل وسمعت صوت نسائي:

- ازيك عامل أيه؟ انت فين؟ أنا حاولت أكلمك بس موبايلك بره خالص؟

- الله يسلمك.. متأسف والله بس الظاهر في مشكلة في الموبايل. انتي فين الآن؟

- أنا وصلت خلاص ومنتظرة إيناس تنزل لي عشان أعرف أدخل.

وبسرعة وكأنها تستمع، خطفت الموبايل من يدي ثم نظرت إلي وأعلنت بلهجة حاسمة ونهائية:

- خليها تدخل وأنا حشغل أختك وخلينا نخلص من الحوار الملل ده بقى.

نادت أختي عليها فأغلقت السماعة بعد أن همست للبنت بكلام لم أسمعه، واستدارت وقالت لي: البنت حتاخد ٣٠٠ جنيه وأنا ٢٠٠.

- لما تيجي زبطيها انتي، وأنا حراقب لك أختي علشان ما تاخدش بالها!

رأيت في عينيها غضب وحقد وأشارت بيدها إشارة كمن يريد خنقي وكررت أختي النداء فسارعت تخرج من الغرفة. رفعت رأسي للسقف وأخذت أنظر بإمعان.

انفجر الموقف مع إيناس بأسرع مما توقعنا. قالت إنها تريد (حقها) مقدماً، وحين سألتها عن أي حق تتحدث؟ ردت بتحدي واستنكار:

- انت ناسي العقد ولا أيه؟

- أي عقد؟

- روح هات عقد إيجار الشقة وبص فيه مكتوب إنك تدفع للشغالة أجرتها وأجرة البواب. قالت لها أختي:

- نحن دفعنا لك أمس مائة جنيه، واليوم حتى الآن لم تكملي ساعتين وسندفع لك مائة جنيه لكن كيف نعطيك ثمانمائة جنيه مقدماً؟ أنا علاجي لم يبدأ حتى الآن؟

أمام المصعد وقفت تغلي من الغضب، كان صوتها في الموبايل خافتاً لكنه حاسماً:

- يا بنتي مش معاه فلوس ولا يقدر يدفع ثمن بوسة. ده من السودان! لا.. لا.. السودان مش السعودية.. انتي سمعتي غلط.. استني أنا حنزل لك.

في عينيها نظرة تؤكد أنها من الصنف الذي يُخزن الغضب ثم يرتكب فعلا عنيفاً. وقلت لها إننا لم نأت من السودان لكي نوزع ثمانمائة جنيه مقدما لك وخمسمائة جنيه للبنت اللي ما بتعملش صوت واللي بتظهر الآن ولا تأتى في الصباح، انتي قديمة يا مدام؟

- شوف انت الأول انت عايز أيه؟ وما تتكلمش تاني إلا لما تكون متأكد من نفسك وحقي حكلم المكتب ولازم آخده .

هل اكتمل إغلاق باب المصعد؟ أم أن مساحة سمحت لي برؤية عينيها تؤكدان أنها سترد علي بمقدار ما بجوفها تجاهي تلك اللحظة؟

أخذت أختي تلومني على فكرة الشغالة: كوننا لم نكن في حاجة إليها. ولم أكن راغباً في أي حديث. استسلمنا لقناة سودانية. وبعد مرور وقت اخذ الموبايل يرن ووجدت أن المكالمة من الخرطوم ففتحت الخط وناولتها وبدأت تحكي لأخواتها وتبكي. متُعلقة بالحياة وتُكثر من الحديث عن مفارقة الحياة. كنت قد تيقنت منذ وقت مبكر بأن الأديان والأعراف لم تمنع الانتحار إلا بسبب يقين قاطع بمدى قوة طاقة اليأس لدى الإنسان. الإنسان صاحب الإرادة الحرة لا يقف في لحظات الاختيار متردداً، لا ثانية ولا اثنتين حِفاظاً على حياة وهمية بشروط مُذلة تحت مُسميات الصبر على البلاء وتَحمل الابتلاء.

دق الجرس ولما فتحت باب الشقة وجدت شابا في أواخر العشرينات ابتسم وهو يلقي بالسلام. مد يده بكارت نظرت فيه فوجدت

عنوان لمغسلة وسمعت صوته موضحاً: هذه دعاية.. نصف الدستة الأولى مجاناً. بدا وكأنه ينتظر شيئا فناولته جنيه كان في جيبي ولما هممت أن أغلق الباب نظر إلي قائلاً إنه جاهز لخدمتنا في أي شيء.

يريد أن يدخل الشقة إذن!؟ يريد أن يفتح موضوعا!؟ هل أرسلته إيناس؟ وبهذه السرعة؟ أم كان مُعداً ضمن تجهيز ثاني!؟ أم هو التجهيز الأصلي الأول!؟ من الدروس الأولى أن لا خِطة تُوضع دون أن توضع معها خطة أخرى- بديلة مكونة من احتمالين، وحتى بعد اكتمال التنفيذ يتم إرفاق الخطة البديلة مع تقرير المهمة.

أيا كان، فليكن. قلت له: تفضل. فتدفقت كلمات الشكر من فمه. اندهشت لأنه خلع حذائه قبل أن يخطو خطوته الأولى إلى داخل الشقة، وتقدمت مُعلناً لأختي أن ضيفنا هو شاب مصري يقول إنهم افتتحوا مغسلة جديدة، ونصف الدستة الأولى مجاناً. وسمعتها ترحب به برغبة في سماع صوت.

- أهلا يا ابني..انت اسمك مين؟

- مدحت يا حاجة... تحت أمرك.

جلست دفعة واحدة في الكرسي فيما انثنى جسده وهو يميل ليجلس، وحال ما تمعنت في تقاطيع وجهه تذكرت جملتين كان أبي يُرددهما عن الذكور إذا كان أحدهم وسيماً. كان أبي يصفه ب (وجهه صبوح) أما حين يكون شديد الوسامة فكان يقول بِنغمة تحمل منقصة (شكله نسواني). مدحت يقع ضمن تصنيف أبي الثاني والذي أحسست به تماماً، وابتسمت في دواخلي أن أكون قد بدأت مرحلة العودة المأساوية للأب ضمن صيرورة عودة كل شيء إلى أصله، في عودة مأساوية لي إلى أبي.

ارتحت هذه المرة لرغبة أختي في الكلام وتبادل الحديث. كنت أنظر لوجهه وأحاول أن استمع بتركيز لحديثه عن الحي: قال إنه لا يسكن هنا، لكن رزقه في هذا الحي منذ الصباح. وسألته عن مكان نومه؟ فقال إنه ينوم في أي محل من المحلات التي يعمل فيها. وسألته: ماذا يقصد بمحلات؟

أخرج من جيبه أكثر من كارت لمحلات سوبر ماركت، وكارت صيدلية، وكارت به عنوان لوكالة عقارية، وكارت أبيض مكتوب عليه بخط احمر: الوكالة، وتحت البنط العريض ببنط صغير (خدمات) وقبل أن أسأله عن الخدمات ونوعها انتبهت إلى أن الموبايل الذي بين يديه يتوفر بين يدي الميسورين! ربما كان أحدث ما أنتجته الشركة التي هو أحد مستهلكي إنتاجها! وسرحت في سر سحر الموبايل الفخم وحالة الفقر الشديد. كنت قد انتبهت إلى أن الغالبية رغم العسر في مستلزمات الحياة، تستميت للحصول على آخر صيحة في الموبايل مهما ارتفع سعره، وانتبهت في لحظة إلى أنه يرفع الموبايل بحيث صارت الكاميرا في زاوية معينة! هل كان يريد أن ينظر ليستخرج رقماً، أم كان بموضع يتيح له التقاط صورة لوجهي؟ سارعت بالنهوض متجهاً نحو التليفزيون وسمعته يقول:

– هذا رقمي سجله ولو احتجت إلى أي شيء تكلمني في أي وقت، وعلى طول أنا تحت أمرك، في أي وقت.

من قناة إلى أخرى، وأختي تصر على مواصلة الحديث، توقفت عند قناة تعرض الفيلم الأمريكي (اختطاف..) والذي قام ببطولته الممثل ليام نيسون، وكان يؤدى دور رجل في فرق العمليات الخاصة الأمريكية. كنت قد شاهدت الفيلم من قبل، وظللت أتوقف عند لقطات بعينها. كان موضوع الفيلم هو اختطاف ابنة البطل، صاحب القدرات

الاستثنائية، وابتسمت حيرةً من سر هوس الأمريكان بإتقان القتل! كانت إحدى شبكات الدعارة المنظمة في باريس قد اختطفت ابنة البطل، وسافر هو في تجسيد للبطل- الحلم-، القوي- الإنساني، لكي ينقذها. وفى باريس يتحدث مع صديقه القديم الذي أصبح ضابطاً كبيراً في الشرطة. قال له الضابط الفرنسي: أنا الآن اجلس على مكتب، وحين تجلس على مكتب لا ترى الأشياء كما في السابق بل تراها على حقيقتها!

سمعت صوته يقول سلام عليكم، كانت اللقطة المفضلة تقترب، حين ذهب البطل إلى منزل الضابط وسأله أمام زوجته: هل أنت متورط معهم؟ انزعجت الزوجة ورددت: متورط في ماذا؟ كرر البطل السؤال: أتمنى أن لا تكون قد تورطت معهم؟ رد الضابط الفرنسي وهو يشهر مسدسه في وجه البطل: مرتبي شيء ومصاريفي الأخرى شيء آخر.

ظللت واقفاً، ثم تقدمت معه حتى باب الشقة وكان تركيزي أكثر مع حوار الفيلم، وضعت جنيهين في جيبه فأخذ يردد الشكر والدعاء، وفى نفس النقطة التي وقفت فيها إيناس توقف. نظر إلي بتركيز وابتسم:

- أنا يا باشا تحت أمرك، لو محتاج أي حاجة ودلوقتي حالاً .

- بنات يعنى؟

- أي حاجة وكل حاجة! اللي نفسك فيه! بنات، حشيش، أقراص، أفلام.

من باب شقتي إلى حيث وقف ثلاثة خطوات، والمصعد على يساري، ثم ثلاثة خطوات نحو الشقة المواجهة لشقتي. على يميني السلم المظلم على مسافة ستة خطوات.

- حشيش كمان!؟ يا راجل! لا..لا.. رأسي اللي فيه حيطير به، بس شوف لي بنت حلوة ونظيفة، وأهم حاجة من غير فلوس كثير.

- كم تدفع انت؟

- قول انت الأسعار وأنا اختار!

- أصل يا باشا المكان هنا غالى جداً. هنا حي راقي جداً. الناس هنا وظائف كبيرة جداً، الناس المهمة في البلد دي. وعشان كده الأسعار فوق أوى! هنا قضاة كبار ورجال أعمال ولواءات في الجيش وفى البوليس، ورجال أعمال ومدراء شركات وفنانين كبار ومستشارين والدكاترة اللي عندهم المستشفيات.. مش ممكن أقل من خمسمائة جنيه.

قلت له وأنا أفكر في أن السلم مظلم بشكل غير طبيعي:

- أصلاً هي كده.

- هي مين يا بيه؟

وجدت أختي نائمة فتمددت على الكنبة، وأخذت أتابع اللقطات التي تكشف علاقة الدعارة بالسلطة. منذ الأزل يتم استخدام الجنس- الأنثى، للإيقاع بالذكور- الشخصيات، وابتزازهم. ولا يوجد سلاح أكثر فاعلية من سلاح الأنثى البيولوجي الطبيعي لاختراق أقوى التحصينات والمؤسسات، وللحصول على الأسرار. الدعارة تعمل دائما أبداً تحت أعين السلطة، التي تتظاهر بعدم الرؤية عمداً.

سمعت صوت الجهاز ورنة الموبايل الذي جئت به من الخرطوم، فنهضت وفتحت الكمبيوتر: أدخلت كلمة المرور الأولى، ثم دخلت لموقع بحث مطروق، وقمت بإيحاء ببحث وهمي عن اسم بطل الفيلم. ثم سجلت كلمة المرور خاصتي من صفحة أخرى.

استقبال: تفاديت مقابلة الهدف. معك العنوان. لم ترسل المطلوب.

رد:

جارى إرسال المواد المطلوبة.

أدخلت الأرقام السرية الخاصة بي، ثم عدلت البرمجة بحيث تلائم موجة البث التي سأبث منها وأتلقى عليها على مدار اليوم بحسب التشفير، والذي أبدله يومياً:

إفادة من مصدر عن فترة الستينات:

المزاج الجنسي كان ينهض على تخيل الجنس كفعل عنيف مُقدس يمارسه الذكر كفاعل يفعل ما يشاء في مفعول به لا دور له سوى الخضوع التام، لم يكن لدى الخرطوميين أي ثقافة جنسية وكان الخيال الجنسي محدودا، ويتركز الجنس ككل في الإيلاج تحديداً، ثم ممارسة حركة ميكانيكية بعنف في جسد الأنثى. وعلى الأنثى أن تتحمل وعينيها مغمضتين وغير مسموح لها أن تتكلم، لكن يمكن أن تصدر أنينا مستمراً. والمثل الشعبي يشير إلى الرجال الذين من فرط قوتهم وطاقتهم الجسدية الجنسية كانوا يحطمون السرير- الفراش الذي تتم فيه الممارسة. ارتبط الجنس كجغرافيا اجتماعية بفئة الخدم بنات العبيد- والمثل الشعبي يُصنف مُحدداً (النكاح خدم)- وبائعات السمن اللاتي يقطن أطراف الخرطوم ويأتين لبيع السمن. كانت أعداد البنات في المدارس الثانوية قليلة، وكذلك في الجامعات، وكان الخوف من السطوة المقدسة للجنس يشل البنات تماماً. وفى المصالح الحكومية، ولم تكن المرأة قد خرجت للعمل بأعداد كبيرة. كان الرجل، سيما إذا كان موظفاً كبيراً- مديرا مثلاً- أو حتى موظفا بسيطا، كان إذا أراد مضاجعة موظفة أو عاملة فلابد لها من الخضوع لرغبته، وكان يلجأ لمختلف الوسائل حتى تخضع له وتتم المضاجعة في منزل أحد أصدقائه بعد انتهاء يوم العمل.

بنات الأسر الكبيرة (الصفوة) كان لهن عالمهن الخاص. نزعت هذه الأسر إلى تمثل نموذج آخر مستورد من الخارج، فقد كن يسافرن

إلى مصر وأحياناً إلى لندن. وهناك شاهدن نماذج مختلفة وأصبح لديهن مثال مختلف، لكن درجة الكتمان كانت عالية.

المزاج الجنسي في الستينات سيطرت عليه نزعة عدوانية غريزية بدائية ليس فقط تجاه الأنثى بل تجاه الذكور فيما بينهم، وبالأخص على الأطفال.

صحيفة الرأي العام: ١٧- ٥- ١٩٦٠:

المتهم غرر بطفل في العاشرة من عمره، وأدخله في أحد المنازل وانفرد به في داخل (بيت الأدب) وخلع ملابسه وقبله. الشاهد الأول شاهد المتهم يخلع ملابس الطفل، وجاء بشاهد ثان ليرى المتهم يقبل الطفل ممسكاً به، فاتصل بالبوليس. المحكمة وجدت صعوبة في استجواب المجني عليه لأنه (اتضح أنه أبله).

صحيفةالرأي العام: ٣٠- ٧- ١٩٦١:

أصدرت محكمة كبرى حكمها على متهم (عمره ١٧ عاماً) بالسجن ٥ سنوات على أن يقضيها في معسكر الإصلاحية. المتهم ارتكب جريمة اغتصاب طفل عمره ١٠ سنوات، وكان قد هدد الطفل بثعبان كان يحمله فأدخل الرعب في نفس الطفل حتى تمكن من اغتصابه.

استولى علي نعاس شديد مصحوب بتعب حتى أحسست بأنني ما بين صحو ومنام. كانت إشارات ترد بدون توقف تحمل الردود والتعليقات، وعلى صفحة أخرى وبين لحظة وأخرى كان الموبايل الذي جئت به من الخرطوم يومض ويهتز. وجدت نفسي ملقياً على الكنبة ومن الضروري أن أكون نائما لا على الحال ما بين يقظة ومنام، لكن ما تزايد الإرهاق في جسدي إلا وحبس نومي كما احتاج وأشتهي، إلى منام بين بين.

مشيت في الممر ودخلت لغرفة النوم الكبيرة، وفتحت حقيبتي وتناولت قرصا مضادا للتوتر. توقفت أمام باب الحمام إذ انتبهت لإغلاقه ومن الضروري أن يكون غير مغلق لأن أختي تتبول أثناء الليل ولا أذكر أنني أغلقته. دفعت الباب بيدي وبسرعة ضغطت على زر الإضاءة. وجدت إيناس جالسة على المقعد تحدق بتركيز، كدت أسالها عن سؤال الأم لبنتها حينما تتأخر؟ أو حينما تأتى مُبكرة؟ تمددت في الكنبة وأغمضت عيني.

المزاج الجنسي في الخرطوم... سؤال البحث عن الدافع

أعطاني مصدر رقم سلافة، فأعطيته ما طلب من مال. وحين تحدثت معها قالت إنها لا تمارس الجنس خارج منزلها. وصلت للمنزل بحسب ما وصفت لي، وفتحت لي الباب سيدة قد تجاوزت تماماً السنوات الثلاث الأخيرة في عقد الخمسينات، على وجهها إرهاق عظيم من تفاصيل الحياة اليومية، ورحبت بي ترحيباً في جوهره إعلان استسلام لواقع كان لابد أن يكون. ولكن توتري كان فضيحة تُعلن خلاف ما خرج له رجل غازي يريد شهوة الفرج، مُقتحماً منازل النساء. خوف ما كان ليغيب عن خبرة الأم التي نادت بصوت عالٍ على ابنتها والتي صاحت بدورها من داخل غرفة بأنها تود أن تُكمل نومها. وقررت أن أنصرف سواء رأيتها أم لم أرها.

نهضت وأخرجت خمسين جنيها ثمن معرفة البيت ووضعتها تحت المخدة في السرير الذي كانت تجلس عليه الأم، وأنا أُردد كلمات اعتذار بأنني مشغول ولكنني سأعود ثانية بدون شك. وسمعتها تشكرني ثم تصرخ بصوت حاد تستعجل ابنتها. نداء الاستعجال في صرخة الأم لابنتها لم يكن مصدره إرهاق الحياة وتفاصيل الحياة اليومية. جوهره

محشو بإصرار على استكمال ما لابد أن يكتمل، صيحة النداء مُنبعثة من مغارة في روحها يتدفق منها في تسلسل تاريخي- شخصي، يقين بالرضا، بخذلان لا مجال للتراجع عنه ولا معنى. ولم يكن في عينيها سوى اختيار شخصي قديم جداً لِفعل ضمن تسلسل الفعل اليومي.

لم يستجب جسد سلافة لبحث أصابعي رغم مصادفتي لشيء مكان ما اجتثوا بظرها، شيء لا يُرى ولا يُسمى لكنه نتوء على شكل حبة في موضع أطلال بظر. انتظرت حركتها الأولى: تلك الحركة التي تسلط في لمحة سريعة ضوءا على العالم الداخلي للأنثى وتقود إلى ما ترغب فيه وما ترغب أن تحصل عليه دون أن تصرح به. تحيرت تماماً وأنا تائه في جسدها. لمسة في موضع بعينه في جسد كل أنثى يُنبه كل غرائزها أيا كان الزمان الذي هي فيه والمكان. قالت لي سُليمى أن راحة يدها هي المفتاح الذي يفتح السكة إلى فرجها، وحذرتني سُمية مرة من أن المس كتفها، قالت بجدية: والله لو وسط الناس ممكن أصرخ، أنا ذاتي ما قادرة أعرف السبب شنو اللي بيخلي أي لمسة في كتفي وطوالي فرجي يبدأ ينقح. دفنت رأسي في شعر سلافة الغزير الذي فكته وهى تميل لترقد، وحين غمرتني رائحة زيت جوز الهند حركت أصابعي فيه، ارتعشت وصدر عنها الصوت. فاحتضنتها بسرعة وضغطت عليها وأنا أضعه في داخلها وهى تردد بصوت لم يكن أبداً صوتها:

- لا ..لا حصرخ.. الناس حيسمعوا... حيتلم فينا الناس وعمى حيسمع وخالي بيقتلك، والله بيقتل، حيقتلنا الاثنين، وابوي.. يا ابوي.. وين انته يا ابوي؟

سمعت دقا على الباب فقفزت مفزوعاً، وقالت لي:

- لا تخف.. ما في شيء.. أختي الصغيرة...

وتفاديت النظر إلى وجهها وأنا أمد يدي بالمال قائلاً: إن الجزء الأول لها، والثاني لِوالدتها لأنها صاحبة المنزل.

لمحت بنتا صغيرة بزي المدرسة. كانت جالسة جوار الأم. وتذكرت جملة الأم عن التضحية بالكبار حتى يفلت الصغار من المصير المظلم. إذا كانت الجدة لها اختيارها الشخصي في ممارسة حياتها الجنسية، فهل سيسري القانون على الأم ثم البنت ثم الحفيدة؟ واسترجعت ما نطقت به من كلام السبعينات. كان من مخزن في وجدانها، ذلك المخزن الوجداني انحفرت في حوائطه ما شاهدت وما سمعت وما تنطق به الآن في لحظة يختلط فيها الماضي واللحظة الحاضرة.

التقرير:

كنت في شك بشأن الاسم الذي تستخدمهُ: سمعتُ بدايةً أن اسمها ليمياء، ثم لينا، لكن التي أوصلتني للشقَة قالتَ شقة نهى وندى. وصمتُ، فالسؤال في هذا العالم غباء وتكراره غرض غير مريح. ثم هناك الغرض النبيل الذي يُخفين الأسماء بسببه وهو مجيء اللحظة التي سيتوقف فيها أسلوب حياة، وسيبدأ أسلوب مطابق لأسلوب خلق الله الآخرين، ويتمتعن حينها بنعمة الأسماء الأصلية التي أسماها لهم الآباء والأمهات. وقلت لها إنني غير مُطمئن، فقالت إن هذه شقة أمها ولن تعود إلا في وقت متأخر! دخلت لغُرفة بها ما في كل غرف الشقق. سريرين، وتسريحة شعر نسائية بِمرآة. دولاب مفتوح، وشماعة عليها ملابس نسائية. نهى صامتة، وتناولت المصحف من السرير جوار تسريحة الشعر ووضعته في الدولاب. ثم وقفت على أطراف أصابعها-

لأنها قصيرة- تبحث عن شيء في داخل الدولاب، ومدت يدها وتناولت ما بحثت عنه واحتفظت به في راحة يدها.

كان لابد أن أفعل شيئاً، فغير منطقي ولا من الذوق أن لا أتحرك وهذا اللحم- على عدم تناسقه- هو التزام قصدته وفى انتظاري. ونهى، مُخالِفةً لجيل التسعينات الذي تنتمي إليه بالفئة العمرية، لا تكسر قاعدةَ الموروث فتبدأ بالحركة الأولى في العملية الجنسية. التصقت بمؤخرتها فأمسكت بيدي ووضعت يدها فوقها ثم وضعت اليدان في سير قماش من النايلون الأحمر الشفاف وأخذت تعرى جسدها.. قلت لها:

- انتظري لحظة..ما هذا!؟

- في حاجة؟

- أحب أن اخلع السروال بيدي، أجذبه على مهل وأتوقف ثم أجذبه ثانيةً، وانتي تتكلمي انتي لا تتكلمي، والذي ترتدينه، ما هو؟

- اسمه إستريتش.

- يعنى سروال ولا شورت..؟

ضغطت أكثر على جسدها، ثم تركتها وتناولت الواقيالذكري، وأنزلت المرتبة على الأرض. ولما التفت وجدتها قد رقدت على السرير وأغمضت عينيها. مرة أخرى: القاعدة هي أن لا تسأل؟ اقتربت منها فمدت يدها نحوه فسارعت ممسكاً بيدها ووجدت بها بخاخ صغير (إسبراي)

- ما هذا؟

نظرت إلي بدهشة

- مرطب.. يخفف الألم و..

- لا تخف.. ما في شيء.. أختي الصغيرة...

وتفاديت النظر إلى وجهها وأنا أمد يدي بالمال قائلاً: إن الجزء الأول لها، والثاني لوالدتها لأنها صاحبة المنزل.

لمحت بنتا صغيرة بزي المدرسة. كانت جالسة جوار الأم. وتذكرت جملة الأم عن التضحية بالكبار حتى يفلت الصغار من المصير المظلم. إذا كانت الجدة لها اختيارها الشخصي في ممارسة حياتها الجنسية، فهل سيسري القانون على الأم ثم البنت ثم الحفيدة؟ واسترجعت ما نطقت به من كلام السبعينات. كان من مخزن في وجدانها، ذلك المخزن الوجداني انحفرت في حوائطه ما شاهدت وما سمعت وما تنطق به الآن في لحظة يختلط فيها الماضي واللحظة الحاضرة.

التقرير:

كنت في شك بشأن الاسم الذي تستخدمهُ: سمعتُ بدايةً أن اسمها ليمياء، ثم لينا، لكن التي أوصلتني للشَقة قالتَ شقة نهى وندى. وصمتُ، فالسؤال في هذا العالم غباء وتكراره غرض غير مريح. ثم هناك الغرض النبيل الذي يُخفين الأسماء بسببه وهو مجيء اللحظة التي سيتوقف فيها أسلوب حياة، وسيبدأ أسلوب مطابق لأسلوب خلق الله الآخرين، ويتمتعن حينها بنعمة الأسماء الأصلية التي أسماها لهم الآباء والِأمهات. وقلت لها إنني غير مُطمئن، فقالت إن هذه شقة أمها ولن تعود إلا في وقت متأخر! دخلت لغُرفة بها ما في كل غرف الشقق. سريرين، وتسريحة شعر نسائية بِمرآة. دولاب مفتوح، وشماعة عَليها ملابس نسائية. نهى صامتة، وتناولت المصحف من السرير جوار تسريحة الشعر ووضعته في الدولاب. ثم وقفت على أطراف أصابعها-

لأنها قصيرة– تبحث عن شيء في داخل الدولاب، ومدت يدها وتناولت ما بحثت عنه واحتفظت به في راحة يدها.

كان لابد أن أفعل شيئاً، فغير منطقي ولا من الذوق أن لا أتحرك وهذا اللحم– على عدم تناسقه– هو التزام قصدته وفى انتظاري. ونهى، مُخالِفةً لجيل التسعينات الذي تنتمي إليه بالفئة العمرية، لا تكسر قاعدةَ الموروث فتبدأ بالحركة الأولى في العملية الجنسية. التصقت بمؤخرتها فأمسكت بيدي ووضعت يدها فوقها ثم وضعت اليدان في سير قماش من النايلون الأحمر الشفاف وأخذت تعرى جسدها.. قلت لها:

– انتظري لحظة..ما هذا!؟

– في حاجة؟

– أحب أن اخلع السروال بيدي، أجذبه على مهل وأتوقف ثم أجذبه ثانيةً، وانتي تتكلمي انتي لا تتكلمي، والذي ترتدينه، ما هو؟

– اسمه إستريتش.

– يعنى سروال ولا شورت..؟

ضغطت أكثر على جسدها، ثم تركتها وتناولت الواقيالذكري، وأنزلت المرتبة على الأرض. ولما التفت وجدتها قد رقدت على السرير وأغمضت عينيها. مرة أخرى: القاعدة هي أن لا تسأل؟ اقتربت منها فمدت يدها نحوه فسارعت ممسكاً بيدها ووجدت بها بخاخ صغير (إسبراي)

– ما هذا؟

نظرت إلي بدهشة

– مرطب.. يخفف الألم و..

- لا.. لا.. ما في مشكلة ألم!

- لي أنا، الألم بيحصل لي أنا و..

أدركت ما قصدته بالألم حين نظرت بين فخذيها فلم أجد سوى تلك الفتحة الصغيرة ذات الإطار الأسود. مخفية وظاهرة في تناقض بدائي بلا مثيل في جغرافيا التشويه الجسدي. بعد جهد استطعت إدخال جزء منه، وأخذت تتأوه، وتحرك رأسها يميناً ويساراً. لاشيء يذهب بِمتعة الجنس مثل تمثيل طرف على آخر، والسرير يصدر صوتاً. رفعت عيني لأعلى فصادفت نظرتي ملابس داخلية على الشماعة. هل كانت هي اللحظة؟ هل رأتها؟ أم اكتشفتها دون أن تحس وكتمت السر حفاظاً على الأب والأسرة؟ أم خوفاً صار إلى تواطؤ خفي مع مرور السنين. الإنسان المُثقل بسر يعجز أن يعود مُتخففاً، ولا مناص من فعل مطابق للسر الجاثم على روحه.

طلبت منها أن تجلس بجواري، فذهبت إلى الحمام وعادت وجلست بجواري. وضعت يدها على خدها وأخذت تحدق في فراغ الصالة في صمت. أخذت أسألها: عن الشقة.. ملك أم إيجار؟ وسألتها عن أسرتها الكبيرة وهل هم من الخرطوم أم جاءوا إليها من الأقاليم؟ وإخوانها وأخواتها ؟ ثم السؤال الأهم عن الأب؟ قالت إنها تخرجت من العلوم السياسية ولم يحدث أن وجدت فرصة عمل، ولا حتى فرصة ترشيح لعمل، ولا يوجد ما تفعله. لم أحاول مواصلة الحديث إذ بان واضحاً أنها ليست ممن يحبون كثير الكلام. وفكرت وأنا في الطريق أنها دائماً قصة واحدة، فقط على تنويعات مختلفة، لكن القاعدة الثابتة فيها هي غياب الأب أو تغييبه، أو اختياره تفضيلاً للغياب.

أيقظتني أختي وسمعتها تقول بأن الموبايل يرن بدون توقف وإنني غرقان في النوم. صعُب علي أن أطرد الكسل وأن أفتح عيني لأصحو

في جسد مرهق، لكنها كررت النداء فجمعت أقصى ما يمكن ثم جلست على الكنبة للحظات. نهضت ومشيت ناحية الطاولة وتناولت الموبايل ورفعته أنظر إليه بعيون النوم، ثم ضغطت على زر تأكيد الاستقبال. مشيت للحمام وغسلت وجهي، ودخلت للمطبخ فجهزت كوب من الشاي الخفيف، وسمعت صوت أختي تسألني عن الوقت، فرديت أن بإمكانها أن تنهض لصلاة الصبح إذا أرادت. حملت الشاي وخرجت للصالة وجلست على جهاز الكمبيوتر. نظرت للتشفير الذي تلقيته على الموبايل وأخذت أقرأ.

(٣)

كان التاكسي في انتظارنا وضحكت أختي هذه المرة بسخرية وزادت بقولها:

– من تظن نفسك؟

سخريتها ضربت دواخلي فقلت لسائق التاكسي:

– انت تعرف العنوان طبعاً.

والدهشة كانت في صوته أكثر مما كانت في عينيه:

– طب ازاي بقى!؟ حعرفه منين؟

وضحكت أختي بمزاج طالما كانت وجهتها إلى طبيب العيون..

– يا مصري الزول ده فاكر إننا لسه في السودان. أنا حقول لك العنوان.

– السودان دي كانت حتة مننا وبعدين اتقطعت مننا.

– المصريين ينطقون السودان (مؤنث) وكمان مُقتنعين أن السودان حقهم.

– أصلها بتاعتنا فعلا، ما تزعلش ولا مؤاخذة ماهو إحنا برضك أولاد نيل واحد، كان الملك فاروق ملك مصر والسودان، وجاء محمد

نجيب ادى السودان استقلالها وجمال عبد الناصر عمل الوحدة والسادات عمل التكامل.. و

- السادات هو أحد أسباب ما يحدث الآن.

- الله يرحمه بقى، ونميري كمان الله يرحمه، مش ممكن نتكلم في مسلمين ماتت، صح والا كلامي مش صح؟

اغتظت منه فصمت متحسراً. لكن لم يصمت أيا منهما حتى توقفت العربة أمام مدخل العمارة التي بها عيادة دكتور العيون الذي نأتي إليه منذ خمسة أعوام. تقدمنا نحو المصعد وظهرت أمامي صورة ضخمة في الحائط للفريق السيسي وزير الدفاع المصري، فحدثت أختي فقالت:

- لكن انت قلت أن الدكتور من الإخوان؟

- العيادة إيجار والظاهر أن أصحاب العمارة، أو غالبية سكانها ناس مرتاحة وعايزة قوة تحميها من فوضى الإخوان.

لم تهتم أختي بما أقول، بل كادت خطواتها أن تسبق خطواتي رغم أن يدي تمسك بيدها. هذا هو المكان الذي تريد أن تأتي إليه منذ أكثر من عام. عيادة مركز الشبكية. هذا المكان يرتبط بآمالها وأحلامها، علنية وسرية، في أن يعود بصرها إليها.

لم يكن هناك أحد من الطاقم القديم. بعد السلام قالت لهم إنها السودانية التي اتصلت بهم من الخرطوم وحجزت قبل أسبوع. دق الممرض أو المسئول عن ترتيب دخول المرضى للدكتور على أزرار الكمبيوتر بعد أن سألها عن الاسم.

- أيوه، تمام حضرتك.

رسوم المقابلة زادت ضعفين، ولما جلسنا في كرسي الانتظار قلت لها:

- تأكدتي الآن إنه من الإخوان؟ زيادة رسوم الكشف الطبي ضعفين؟

أخذت أنظر في مرضى العيادة. كلهم يعانون من مُشكِلة في شبكية العين بسبب السكر في الغالب أو لأسباب أخرى. يجتاز بابَ العيادة أحد أقارب المصاب في الشبكية ببطء وحذر ويده تمسك بيد المصاب. يتبعه المصاب ببطء أشد وحذر زائد. كنت قد أحسست، بحسب قواعد لعبة وضع نفسي في موضع الآخر، أنهم - مُرافقين ومرضى- يحسون بالأنظار تتابعهم. ثلاثة خطوات أو أربعة خطوات حتى يقفون أمام الكاونتر ويدور حديث خافت عن الحجز والمواعيد يتخلله الدق على أزرار الكي- بورد، ثم يستدير المرافق والمريض ويتحركان ببطء شديد إلى مقاعد الانتظار. في فضاء صالة الانتظار يدور حديث مقارنة صامت بين المرافقين، فكل منهم يختلس النظرات إلى الحالة الأخرى. الإنسان لا تفارقه المُقارنات أبداً فكيف إذا ما لحق به نقص؟ لا يكف عن الشكوى علانية أو سرية مهما تظاهر بالرضاء بالقضاء والقدر. تجده مُنهمِكاً في إنتاج سلاسل أوهامه، على أنها القيم التي يهتدي بها بوصلة حياة، القيم التي تمنح وجوده اكتمال الكمال والصواب. لا يرى الإنسان في سلاسل أوهامه الإنكار والحوجة والتنازلات والأنانية والبخل والجشع واحتقار الآخرين والجبن والنفاق والتملق. يتدفق صواباً، وتتوهج الأنا في أقصى درجات التظاهر بالتواضع، ثم ينحني حِكمة ويقين .

انتبهت على أصوات سودانيين، ورأيت رجلين وامرأة منقبة يجتازون مدخل العيادة ويتقدمون نحو الكاونتر. دققت في خطواتهم. أحدهم كانت نشأته الأولى في أحد أقاليم السودان حيث جوع لا يمت للإنسانية بِصلة، وفرحة وصوله إلى حلم الوجبات الثلاثة إذا ما تحقق كفرحة علماء الفضاء باكتشاف حياة في كوكب آخر. لا تفارق ضربة

الجوع الأولى- التأسيسية- ضحيتها ولو صار صاحب سلسلة مطاعم. ما أن يتحقق الحلم حتى يأخذ الهيكل الجسدي مظهراً يفضح ويكشف وينفي علاقة السودانيين بالتنشئة الصحية وبالتغذية الصحية وبالرياضة وبالاعتناء بالجسد. وتفاديت تماماً النظر للرجل الثاني. أما أختي فقد كانت فرحتها كبيرة حالما سمعت كلمة السر السودانية مذاعة في فضاء صالة العيادة (السلام عليكم) وكان واضحاً أن لنا نصيب مخصوص فيها. ولم يكن أمامي سوى الرد، وهى ردت بصوتها الذي يُخفي الأنوثة الخجلى، مع الفرح. ليس فقط لأن هناك من سينتبه إليها، بل لأن هناك كلام وكلام كثير قادم! قد يتحدثون في موضوع الشبكية، أو عن العلاج في روسيا، أو في أي موضوع آخر. ومالت نحوى وهمست:

- معهم امرأة؟

- لا.. رجل متنكر في زي امرأة!

كنت انظر لبنت شابة جسدها رياضي ترتدي تي- شيرت أبيض، وأحكم بنطلون الجينز المشدود ضغطه على فخذين ضل الشحم المصري الشهير طريقه إليهما. اختارت لشعرها تسريحة الشعر القصير المقصوص الذي ينتهي قبل الأذنين، عنقها أبيض وعروق خضراء تبدو حلاوة للناظرين! كلامها مع الرجل المتقدم في السن الذي كانت تلتصق به تماماً يؤكد أن والدتها كانت على عجل فغادرت مُبكرة، وأنها كبنت كبرى أو وحيدة تحاول أن تقوم بمهمة التعويض المستحيلة. ترتفع حرارة جسدي في تلك الثانية التي تُبدل فيها من وضع الساق على الساق، إذ ينفتح ما بين الساقين فيتوقف الزمن، بل يتوقف كل شيء. في كسر من الثانية تتبدى مُجدداً حقيقة كونه الحقيقة الأزلية الوحيدة: موجود هناك، تحت كذا وكذا من الملابس الداخلية، وفي الحالة كذا بحسب جغرافيا الجسد وتحولاته.

جاء الممرض وطلب من أختي أن ترجع رأسها للخلف ثم أخرج قطرة العين وأسقط منها عدة نقاط في عينيها. قالت لي إنها لاحظت إنهم ينادون على مرضى ولا ينادون عليها؟ صمت فواصلت: أنت لا تفهم؟ قلت لك الكشف الأول، بيعملوا مقابلة مع دكتور صغير قبل ما الدكتور ييجي. لكن الظاهر خلاص هم عرفوا إني انتهيت.

- الدكتور لم يأت بعد فكيف نقول أن كل شيء انتهى؟

- سبحان الله! أول مرة جئت للعيادة هنا، والله كنت بشوف كل شيء، الآن لا أرى سوى بقعة سوداء تتحرك أمامي.

ابتسم الأب لابنته وتناول يدها وضغط عليها في لمسة حنان أبوية. ونظرت إليها بتركيز يفتقد لأدنى مقدار من الذوق فيما هو متفق عليه بشأن النظر والنظر الفاحص لوجه من لا تعرف ومن تلتقي للمرة الأولى في مكان عام، نظرت بتركيز أكثر إلى جلال وهيبة الوجه الفرعوني الذي يُسابق جمال حسي. أنفها وفمها والروج الخفيف على الشفتين، وصادفتني هناك حبة دهنية، تلك الحبة- ولا شك- المُصاحبة للعادة الشهرية كما هي عادةً عند بعضهن. هل يمكن أن تكون في يومها الثاني؟ شيء خاص جداً ولحظة لا شريك لها فيها حين تنزل سروالها بأطراف الأصابع وبحذر تسحب الفوطة المُبتلة بالدم وتضعها جانباً أو أرضاً، ثم تغسل بالماء والصابون، ثم تتناول فوطة نظيفة وتضعها ثم تثبتها وترتدي السروال ثم تهز جسدها هزة خفيفة لتتأكد.

رأيت والدها يحيطها بذراعيه، لم نر ولم نسمع بمثل هذا رغم أننا جئنا عن طريق أب أيضاً. ظهر والدنا، وكما توقعت: اختار أن يجلس مواجهاً لنا.

لم يحدث أبداً أن تحدث معنا حديثاً عاطفياً فيه حنان أو تشجيع أو إبداء اهتمام. ربما لا يعرف ما الأبوة، وصعب عليه أن يقدم ما افتقده؟

ربما! ما لم يصادفه. ربما اليتم! كلما سألته عن والده كان يتفاخر بماهو بين واقعٍ وخيال. قال إنه لن ينسى لحظة البكاء على والده الذي كان بكاء حاراً شهده خلق كثير. قال إن والده كان معلماً للفقه، وكان يحضر دروسه المئات، وكان له مسجد وخلوة. ويوم الوفاة كان عمره حوالي عشرة أعوام، و أمسك به عمه واحتضنه هو وأشقائه بشدة. سألته مرة أخرى، حين سمعته يقول بأن والده كان ماهراً جداً في تركيب الأدوية بحسب الوصفات الشعبية، عن عمل والده بالضبط؟ مدرس للفقه؟ أم عطار له وصفات وتراكيب؟ فأجابني بأن والده كان كيميائيا يجيد كل شيء. لم أعد أميل إلى التحليق في عوالم لا شواهد واضحة عليها فالواضح أنه لم يكن يعلم شيئاً عن والده، شأنه شأن كل أو غالبية السودانيين- الخرطوميين. لا يعرفون أي شيء عن آبائهم، وينسى الآباء أبنائهم إلا في لحظة حصاد النجاح! ولأن الجهل ينتج الأسطورة ضمن ما ينتج قال: إن والده كان يمتلك سر سورة المزمل القرآنية ويعرف العدد الخاص بها والذي يمكنه من السيطرة على الجان الخاص بها، وبهذه السيطرة قرر الجان المسلم أن يمنحونه يومياً مبلغاً من المال للمعيشة بشرط أن يكون في الحلال! كان يقينه في عوالم الماورائيات بلا حدود، وظل يسنده بحكايات مما شاهد وسمع خلال عمله في مصلحة المساحة. نظرت إليه وأفلتت مني الضحكة عاليةً حين تذكرت ما حكاه عن شياطين المساحة.

كان الوالد – رحمه الله- عاملاً بسيطاً في مصلحة المساحة، هكذا ظل يُردد لي كلما سألته عن مهنة ولي الأمر كلما سألونا في المدرسة، وعكس الغالبية لم يأخذني معه يوماً إلى المصلحة، كما كان يصف مكان عمله، ولكن حين كبرنا ونزلنا للمعاش معاً صرنا نتبادل الذكريات: هو يحكى عن المساحة والأفندية وأنا احكي عن الظروف

التي قادتني للمعاش دون أن ادخل الخدمة المدنية أصلاً. ولعل أكثر ما يميز حكايات رجال المساحة- فلا نساء فيها بحكم طبيعة عمل الخلاء الميداني- هي حكايات خروجهم الجماعي في فرق إلى الغابات والى الوديان، وصعود التلال والجبال ثم نصب الخيام في الصحارى، وذلك للقيام بمسح الأرض (كنتورياً) وإعداد العلامات، وتحديد الاتجاهات ومن ثم رسم الخرائط إعداداً ليوم تحتاجها فيه البلاد. والحال كذلك، فطبيعي أن يُصادفوا العقارب والثعابين، وطبيعي أن يأكل الأسد مؤخرة عمنا شنواني الدنقلاوي اليسرى بكاملها ويترك له اليمنى كما خلقها الله، لكن غير الطبيعي هو تلك اللحظة التي أسند فيها عمنا الفاضل ظهره على صخرة ضخمة ليستريح ويشعل سيجارته. قالوا، لأن عمنا الفاضل لم يعد يقول مفيداً كثيراً منذ لحظتها، قالوا أن الصخرة قد انفتحت وخرج منها شيطان كما الشيطان بالضبط، ومد يدا شيطانية انتزعت سيجارة عمنا الفاضل من فمه ثم صفعه صفعة آدمية وعاد لجوف الصخرة وسيجارة عمنا الفاضل بين شفتيه الشيطانيتين. كان الوالد يصر على أن من لم يعمل في المساحة لا يحق له الحديث عن السودان، إذ أنه لم ير كم هو شاسع هذا السودان الذي يخوض الناس في أموره من مجالس الشرب في الخرطوم، وذلك فخر مستحق له، ولكن ما ليس مستحقا له هو إصراره على حكاية الجان الذي تزيا بزي الخواجة: شورت من التيل الأبيض، وقميص نصف كم رمادي، وبوت إنجليزي أصلي وشرابات عليها علم الإمبراطورية، وغليون وبرنيطة. دخل عليه في خيمته ليلاً وهو يعمل في الخرائط على ضوء الفانوس، وفي صمت تناول الخرائط وتلاشى. يكرر الوالد كلمة تلاشى كما الدخان. وأحيانا كلما سرحت أسرح في أن ذلك الجان- الشيطان، ربما احتاج للخرائط في أمر يخص مصلحة المساحة الخاصة بهم: ربما نزاع حدودي أو

ترسيم شيطاني لجغرافيا عوالمهم التي يصر الكثيرون على وجودها، ويصمت البعض عنها.

نظرت إليه وصوته يحكي قصة إسقاط أخوه للقهوة وهي تغلي على رأسه. قال إنه صرخ صرخة جاء إثر سماعها كثير من الناس. وبالغ في الحكي فقال إنهم حينما وضعوا العجين فوق رأسه كاد ينضج من فرط سخونة القهوة تلك! ضحكت وأنا أفكر أنه ربما كان صادقاً في فقدانه للإحساس بالأمان: اليتم المبكر، والجوع فربما لم توفر له بنيته الجسدية الهزيلة حماية كافية، وكان واضحاً أنه تعرض لضرب متواصل من إخوانه الكبار الذين يفوق عددهم بشكل رسمي عشرة، وذلك لأن الرجال كان مسموحاً لهم أن يدخلوا على نساء وبنات رقيقهم، ويحق لهم أن لا يعترفوا بالجنين في حالة حملت الخادم وأنجبت، بل كان محرماً عليها أن تنطق باسم الأب. كان عدد أبناء عمومته كبيراً جداً. كان يختزن مقداراً هائلاً من العنف والغضب والسخط. منذ كنت صبياً لم يكف عن ملاحقتي بكوني أحول- أحوص- أعمى، وكان يردد لي الآية القرآنية بتشفي: ليس على الأعمى حرج. عنفه اليدوي كان يفوق عنفه اللفظي: الرجل الذي كان يفتح المسجد ويجلس انتظاراً للصلاة قذفني في فناء المسجد بحجر ضخم لو صادفني لقتلني تواً، كان مصمماً في تسديدته مع ألفاظ ليست هي ألفاظ من توضأ ومد البساط للمصلين داعياً للصلاة. كنت قد عرفت منذ زمن بعيد أن للكل أكثر من أب، وضمن عدد الأباء هناك دائماً واحد وهو ليس أبداً الأب الأمنية الحلم وهو- للمفارقة- الأب الذي أتى بالابن للدنيا في تلك المأساة العبثية التي لا معنى ولا مبرر لها. كان هناك شيء مختزن في دواخله. هل رفض إحدى النساء الزواج منه هو ما زاده اشتعالاً؟ كان يحب البشرة البيضاء في النساء، لكنها قالت بوضوح لأهلها حين تقدم يطلبها إنها لا ترغب فيه زوجاً. كانت

طويلة وفيها عِرق مصري ما أتاح لها جرأة القبول أو الرفض في زمان لا تجرؤ العروس على أن تفتح عينيها ولو بنظرة إلى وجه عريسها- زوجها- المتمدد فوقها في ليلة الدخلة، وتظل طِوال عمرها لا يجري اسمه مجرداً على لسانها أبداً. الدنيا مرة أخرى تعبث به ومعه وتقول له خذ هذا الرفض وتألم! فيتجدد كرهه لذاته وصفاته ولكل شيء، فيذهب مباشرة طالباً أمي للزواج.

فكرت في استغراقه الشديد في البحث عن إجابة عن سؤال الوجود خاصته وإهماله التام لمن أدخلهم للدنيا. لا توجد جريمة تعادل إدخال مخلوق لمعركة الحياة الدنيا بدون تسليحه بأي معينات للمواجهة. لكن من أين له أن يعرف؟

أختي لا تكف عن الحديث، وحديثها لا يجد ممراً إلى مستقر الإصغاء في دواخلي. ظللت في حواري مع أبي الذي جلس صامتاً جوار الأب المصري وابنته وزوجته الغائبة في اكتمال حضورها. أمي هي ردة الفعل الانتقامي المعمم على كل بنات حواء، ليس لأن أمي يصعب تصنيفها كأنثى جميلة بمقاييس بنات حواء- حتى بمقاييس ذلك الزمان- بل انتقاماً عاجزاً من فكرة الوجود ذاتها، من أي مظهر من مظاهر الاحتفاء المبهجة بالحياة. تتدفق الأكاذيب فتنتج أكذوبة القسمة والنصيب في اختيار الزوجة! أكذوبة تحمل المعيشة وفق شروط المذلة. كنت قد تيقنت منذ زمن بعيد أن الزواج اختيار قاصد مع سبق إصرار، وإجابة خاطئة لمجمل ما تراكم من عقد وإخفاقات وإنكار. والقدر- المسكين، آخر من يعلم بتنفيذ الإنسان لأفعاله ربما يكون بسبب تطفله القاتل وتحشره الدائم أول من يصله همس النوايا، ولا يقوى لسانه الخفيف على حفظ لفظ واحد ناهيك عن جملة دعك عن سر، فيبدو وكأنه من رتب الأمر. وهل يوجد أبطأ من القدر وأكثر منه كسلا؟

حالما دخل الطبيب وألقى بالسلام ورد المرافقين، تيقنت تماماً هذه المرة. نظرات عينيه تكشف معاناته من صدمة. لغة جسده وهو يجتاز المدخل لا تُعلن موقفاً فحسب بل خطاب إدانة. ربما يقضى الليل ساهراً في الاجتماعات وفي التنسيق، ثم في لحظة دخوله إلى العمارة يجد صورة من يخالفونه الرأي.

- ألم أقل لك؟ كي لا تسخري مني ثانية؟ انظري في عينيه؟

ضحكت بسخرية:

- نظرت وشفت.

كنت قد سألته في العام ٢٠١٠ وهو منهمك في فحص العين:

- هل انت عضو منظم مع الإخوان المسلمين؟

غضب لحظتها من توجيه سؤال له في مكان غير مناسب وبدون مناسبة، ولحظتها دس غضبه بمهارة فانتبهت إلى التدريب، ثم انتبهت إلى نغمة الوعيد والتهديد في الإجابة:

- أنا مع الحق.

همست أختي في أذني بأنها (مزنوقة بالبول) فنهضت وتناولت حقيبة يدها وأمسكت بالعصا، ثم أمسكت بيدها الأخرى، الحمام خطوتان أو ثلاث على الأكثر، ولكن هب والدنا واقفاً فتوقفت أنظر إليه. لكن وقبل أن يكتمل وضوح التحليل من مركز دماغي، كانت السيدة المُنقبة أمامي، بل كانت قد مدت يدها وأمسكت بيد أختي، بل وتتقدم خطوة باتجاه الحمام! نظرت حولي فوجدت أن كل شيء عادى ولا شيء سوى والدنا ينظر! فتحت فمي لكي أنادى عليها أن تتوقف، لكن باب الحمام الخشبي كان قد أُغلق، ورأيت الرجلِ الثاني ينظر إلى حيث أنظر. السيدات والبنات يدخلن الحمام سوياً، عادياً يحدث هذا، ولكن كان غضب أبي وكرهه للسودانيين فوق الوصف. كان يصف نفسه بأنه تربية

الانجليز وأنه لا يدين للسودان بشيء. وخلال أعوام العمل كلها لم يتغيب حتى ولو كان مريضاً. الآن هو في أشد الغضب، فالسودانيين يحشرون أنفسهم في كل شيء دون معرفة بأي شيء، وهاهم يدخلون ببنته الحمام! كان مُصراً أنهم لا يعرفون غير شرب الخمر وسرقة المال العام. وحاولت أن أشير إليه بضرورة أن يجلس، لكن إشارتي تم تفسيرها من الممرض بأنني أوضح له بأن أختي التي أخذ ينادى عليها للدخول للدكتور هي في الحمام. وقبل أن ينادى مرة ثانية كان باب الحمام قد انفتح وخرجتا معاً كل واحدة تتوكأ على الأخرى. تقدمتني أختي بخطوة حالما سمعت اسمها، خطوة متحمسة.. حتى أن أحد السودانيين نبهني بأن أمسك بيدها، لكنها ردت يدي وأمسكت بالعصا وكأنها تؤكد للكل معرفتها بالمكان.

دخلنا غرفة الفحص وقلنا: السلام عليكم.

ومرة ثالثة وأخيرة وأكيدة تيقنت. لم يعد مُهتماً بمظهره المتسامي كما كان سابقاً بل بدا مشحوناً ومُعبأً، يستميت- استغاثة- كي يبدو عادياً.

- أهلاً يا حاجة... عاملة أيه دلوقتي؟

كانت قد جهزت النغمة منذ عام تقريباً، نغمة كلها شكوى واستغاثة، نغمة تطلب الحنان والاهتمام وتطالب بالحماية مما يفعله مجهول لا يُسمى.

- خلاص يا دكتور، الآن ما أقدر أشوف أي شيء.. خلاص!

دكتور صغير في سنه، كان من الواضح أنه يتدرب للتخصص، قادها من يدها إلى كرسي طبي مجهز بمعدات طبية- بصرية، فيما ظل واقفاً على طاولة ينظر وكأنه لا يرى. الدكتور صغير السن، الذي يتعلم أو يحضر درجة علمية، ساعد أختي لتجلس على الكرسي ثم ابتعد خطوتين للخلف. وانتظرنا دقيقة ونصف دقيقة أخرى حتى انتباهة

الدكتور. جلس الدكتور على الكرسي الطبي بحيث صارت عينيه في مواجهة عيون أختي عبر قناة في الجهاز.

- هل سنعمل جلسة ليزك؟

- لا.. ما فيش داعي.

- أنا ما شايفة يا دكتور! السنة الماضية كنت أحسن، كنت أشوف ملامح ناس البيت، وأشوف الأشياء، لكن الآن لا أرى سوى أشياء سوداء، نظري يتدهور.

- بالنسبة للأجهزة اللي عندي الحالة مستقرة. هي نفس الحالة اللي كنتي عليها لما جئتي قبل سنة وأربعة أشهر.

- طيب ما حتعمل نظافة للعدسة؟ ممكن تشيل السواد وتخليني أشوف أحسن.

- قلت لك ما فيش داعي! لو في داعي أنا كنت قلت لك على طول ومش خسران حاجة لكن أنا شايف أن الحالة مستقرة.

- طيب ممكن آجي تاني بعد كم علشان تشوف.

- ممكن تيجى بعد سنة، أو تيجى وقت ما تحبي .

- سنة!؟ انت قلت لي ضروري تشوف عيني كل أربعة أشهر أو كل ستة أشهر!

لما خرجنا للشارع أصرت أن لا نعود للمنزل. أتفهم ردة الفعل السلبية الهائلة التي أحدثها كلام الطبيب، لكن أن أشاركها فيما تحس به من ألم هائل فشيء مستحيل. كانت بعيدة جداً ولوحدها تماماً.

هذه المرة أزعجنا سائق التاكسي بحديثه: كِلانا كان في حالة لا يرغب فيها في سماع صوت أمه، لكنه لم يكف عن الحديث عن يوم غد

وما سيحدث فيه، وكيف أن الدنيا ستتقلب وأن الإخوان لن يتركوا أحداً.

قلت في محاولة لإيقافه:

- نحن أجانب.. ما دخلنا؟

- بقول لحضرتك إنهم حيولعوا الدنيا! واخد بال حضرتك، انتم من الصومال أيوه بس انتم في عربيتي اللي هي تاكسي مصر، وهم لازم يحرقوا مصر أو أي حاجة مصرية. الإخوان لازم تعمل سوريا في مصر عشان ترضي أمريكا.. آه والله زي ما بقول لحضرتك كده!

قالت إنها تريد أن تأكل، فقلت له أن يقف أمام مطعم الدجاج في التحرير. كنت أعرف أنه مكان مفضل لها، فمنذ خمسة أعوام- وفي أول زيارة لها- دخلناه. ونحن نتقدم نحو باب المطعم الزجاجي، أوقف اثنان من الخواجات الآخرين وفتح أحدهما باب المطعم لكي يسمح لها بالتقدم إلى الداخل. لم تتمح هذه اللقطة من وجدانها أبداً، ظلت تحكيها لكل إنسان وظلت ذكرى متكررة للمكان.

جلسنا على المقعد المجاور للحائط الزجاجي للمطعم، تفاديت الجلوس مواجهاً لها، وجاء أبي فجلس مواجهاً لنا. وظلت صامتة وبعيدة في عوالمها. وقلت لها:

- هل تريدين الدجاج بالشطة؟ أم عادى ومعه بطاطس؟

حركت يديها بإشارة تعني (أي شيء)

قمت واتجهت نحو كاونتر البيع والشراء. نظرت إلى كميات من قطع الدجاج وقطع أخرى على الموقد الكهربائي ثم بين الأيادي، ثم

بمشبك معدني يتناولها الطاهي ويهزها مرتين ثم يضيفها للزيت. كانت الرائحة التي تملأ فضاء المكان مُكملة للرائحة التي استولت على فضاء القاهرة كغبار غير مرئي سلك لدواخل المصريين استنشاقاً ومزاجاً وسلوكاً، ولبثت دوماً على دهشة مُتسائلة عن قبول طعام فاسد على أنه طعام جيد. تناولت القضمة الأولى وسارعت تتناول المنديل وتخرج ما أودعته فمها به :

– هذا الخبز... لا تأكل منه.

وتناولت قطعة الخبز ساخنة وطرية ولكن ما أن شطرتها إلى شطرين حتى فاحت منها رائحة فظيعة لا تماثلها إلا الرائحة المنبعثة من قطع الدجاج أمامنا والتي اخذوا منا مقابلها أكثر من مائة جنيه وكأن لاشيء.

كانت وصايا والدنا لنا بشأن الحياة عديدة. يبدأها بجملة: أنا غير عافي عنكم ولا راضى، إذا كنت حي أو إذا كنت ميت، إذا أكلتم أي طعام خارج البيت! ليس لديهم ضمير ولا ذمة، يطعمون الناس لحوم الحيوانات الميتة، والناس أصلاً ميتة فلا تحس بما تأكل. وقلت له وهو ينظر لنا بنظرة تهكم وتشفي:

– لن أقتنع أبداً بما قلته، سبق وأكلنا منه ولم يحدث لنا شيء، لقد جربنا، ولكنك لا تخوض التجربة، تتحدث فقط.

– عقوقك ده هو اللي تسبب لي في الابتلاء. أنت السبب!

كلامه كله صحيح.

ما أن توقفنا أمام الباب الزجاجي للمطعم حتى قالت:

– تتذكر الخواجات اللي فتحوا لي الباب و..

تقدمنا بخطوات بطيئة، وقلت لها إننا في المكان الذي صار هو خلفية الخبر عن مصر في معظم نشرات الأخبار. وقالت إنها تشعر بالتعب وإن جسدها به اضطراب شديد لأنها أخذت حبة السكر قبل الأكل، لكننا لم نأكل. أخرجت من حقيبتها قطعة حلوى وضعتها في فمها، فقلت لها أن من الضروري أن تأكل في أي مطعم آخر. فقالت إنها تريد الذهاب للبيت بسرعة. أشرت لتاكسي فتوقف.

- مصر الجديدة.

- اركب.

- نتفق الأول، المشوار بعيد.. والطريق زحمة وسنتوقف كثيراً والعداد سيحسب. لازم نتفق الأول على رقم.

- اركب الأول.. اركب بس.

فتحت باب التاكسي الخلفي وركبت أختي، ثم ركبت جوار السائق الذي نظر لي قائلاً:

- الحاجة دي تعبانة.. ومافيش داعي تخرج أبداً! أنا والله وقفت علشانها علشان الثواب.

- خلاص، اوقف العداد... وسأدعو لك بثواب ألف جنيه مصري.

واسترخيت في المقعد مُقرراً أن أستسلم تماماً للطريق، مُطمئناً أن أختي ليست على الحال الذي سيمكنها من تبادل حديث. لكنه كان يوم سائقي التاكسي في المبادرة بالحديث والإصرار على استمراره:

- ميدان التحرير قال! ده ميدان الانقلاب!

ساد صمت وأغمضت عيني بشدة مُتمنياً أن يستمر تعب أختي إلى حد العجز عن النطق، لكن الطبع يخرج بعد خروج الروح، وطبعها حب الكلام، سمعت صوتها واهناً:

- ثلاثين مليون كانوا في الميدان؟

- هو الميدان يشيل ثلاثة مليون يا حاجة؟ كل اللي كانوا في كل شوارع مصر حوالي ثلاثة، أربعة مليون ولست ساعات بس علشان يصوروهم.. تصوير واستهبال.

- يعنى المظاهرات كانت ستة ساعات؟ مش أيام وليالي؟

التفت إليه وقلت بهدوء حكيم:

- أختي خارجة قبل لحظات من عيادة الدكتور، ومحتاجة ترتاح.

- عارف عارف.. ربنا يشفي الجميع، بس كنت عايز أوضح لها.

قاطعته بسرعة:

- يا سيدي نحن لا دخل لنا أبداً بالسياسة ولا ببلدكم. نحن من السنغال من إفريقيا يعني حتى مش عرب، ربنا يسهل لكم ويكمل لنا علاجنا عندكم.

توقفت العربة وبدأ عذاب حركة العربات ببطء وهو ما يهدد حالتها. فرائحة البنزين المحترق واهتزاز العربة يزيدان من الغثيان ويسببان القيء. ورأيتها تتمدد على المقعد الخلفي وتكوم جسدها. ونظر هو إليها في المرآة.

فاحت رائحة العطر السوداني الشعبي الذي تستخدمه عندما يشتد الغثيان كمحاولة لتأجيل القيء. والتفت إليها.

- معاك أكياس.

- أنا عندي غيرها؟ الأكياس وروشتات الدكاترة والأقراص.

هببت توي من نوم عميق أسلفني إياه قرص مهدئ كنت قد لجأت إليه مُتلمساً الطمأنة والأمان من خوف غامض عاصف اجتاحني أثناء مطالعتي لِقصة مُغرقةً في حزن وأسى عميقين. ألفيتها تجذبني شيئاً فشيئاً بكلمات نافذة تدفقن على قلبي كشلال من الدبابيس ومع تدفقهن النافذ الألم على قلبي أحكمن حولي حصاراً بسياج ما بين الغشاوة والسواد. تو بلوغي منتصفها شعرت بأنني أموت. ثقل جسدي إلى كُتلة صماء وتتابع تفلت الروح منه وتسللها مغادِرةً: بردت قدماي وقد فرِغتا من سريان الحياة فيهما وتيبست يداي وسقط الكتاب منهما على صدري الذي كتم خروج الروح كل ما به من أنفاس سوى حشرجات مُتقطعة. وتمدد لساني يابساً مثله مثل حلقي بالغ الجفاف ورأس يدور بسرعة مهولة يتعدد بتِتاليها تتابعاً ما لا يحصى من مداخل تجذب إلى هناك، ومجاهل تسودها غشاوة ضبابية بين بين- فكأني ولا كأني- ولحظة النزع الأخيرة انقضت مني على جزئين : تمهل الجزء الأول أمام تسلسل بطيء صامت لحكي القصة عن أم الجندي الذي استُشهد في حرب العام ١٩٧٣ وأيام زيارتها لمقبرته توافقاً مع الأيام التي كان يأتي لزيارتها فيها من جبهة القتال. وجلوسها تسر إليه وتهمس وتصغي وتحيي قبره بدموعها. وتمهلت في ذلك العمق الذي فيه آلام أحد من ما يحدثه حضور الغياب وذلك في ألفة الأم وزوجة حارس المقابر. بقي الجزء الثاني من لحظة النزع الأخيرة والذي تمهل تماماً أمام تدفق متتالي يقطع الأنفاس خلف مئات من الصور: أيام كانت هناك جبهة، وأعداء وشهداء، وعالم يمور بالقتال والهزائم والحزن والقتال المستمر. وحال ظهور صورة موتنا الحالي، اندفعت شهقتي بروحي مغادرةً جسدي فاعتدلت ليخرج تجشؤي عالياً. وحينذاك، مددت يدي وتناولت القرص المهدئ.

تحركت العربة بسرعة ثم توقفت فجأة. تحركت ببطء ثم في لحظة اندفعت، وسمعنا صوت اندفاع القيء من جوفها، وفاحت الرائحة وسمعنا تأوهاتها. لم ينظر السائق في المرآة ولم يظهر على وجهه أي تعبير. دققت النظر في ملامحه. صحيح أن لهجته مصرية لكنه عربي- سوري على الأرجح- مقيم في مصر منذ وقت طويل. حالما اقتربنا من مقر دار الحرس الجمهوري نبهنا بصوت بارد:

- هنا دار الحرس الجمهوري، انتم طبعاً عارفين الدم اللي سال هنا..

والتفت إلي وعلى وجهه نظرة المحترفين لحظة ينتزعون أرواح الآخرين. وأرسلت ذاكرتي صورة رأيتها على صفحة الفيس- بوك لمحمد رمضان: عينيه الخاليتين من أي أثر للحياة. كان ميتاً منذ أزمنة روحية بعيدة. وكان مهيأً لفعل كل شيء وبدون أدنى تفكير وبفقدان تام للإحساس بتأنيب الضمير.

- على كل حال ما تحاولش تطلع بكره بره شقتك! والحاجة دي مالهاش خروج تاني. مافيش داعي تطلع مشاوير جامدة.

أمام مدخل العمارة سألني بنغمة استخفاف تعلن الازدراء:

- انت ساكن هنا ؟

أدخلت رأسي عبر نافذة العربة، ومن ذاكرتي انفتحت صفحة:

اعترافات قناص الإخوان- من صفحة في فيس- بوك:

أكد الإخواني محمد رمضان أن قيادات الجماعة ومنهم محمد البلتاجي وأسامة ياسين وصفوت حجازي طلبوا منه ومن آخرين اتخاذ مواقعهم أعلى المباني السكنية المحيطة بساحة رابعة العدوية بمدينة نصر ومداخلها ومخارجها، بحيث يسهل عليهم التعامل مع أفراد الشرطة

والقوات المسلحة عند اقتحامهم للساحة وبدء فض الاعتصام. وقال إن قيادات الإخوان أصدرت لهم أوامر باستهداف المنضمين للمظاهرات من الإخوان وإصابتهم بطلقات نارية مباشرة في الصدر والرقبة والرأس تؤدي إلى قتلهم حتى يتم تصويرهم ومخاطبة الإعلام الدولي أن الدولة تقتل المتظاهرين العزل. أضاف في أقواله التي أدلى بها أمام نيابة أول مدينة نصر إنه لم يكن يملك حق الاعتراض أو المناقشة، لأنه شاهد من يعترض يُستبعد ولا يعود ثانيةً ولا يعلم هل تمت تصفيته أو لا؟ وأكد أن قيادات الجماعة أفتت بأن الضرورات تبيح المحظورات، والقتلى من الإخوان في الجنة. تضمنت اعترافاته أن عدد القناصة الذين تعرف عليهم كانوا حوالي ٣٩ شخصاً بعضهم جنود سابقون بالجيش المصري وآخرون تلقوا تدريبات في الصحراء بسيناء، أو بغزة بإشراف عناصر من حماس وكتائب القسام، وقال إن الأحداث أمام دار الحرس الجمهوري وقع بها ضحايا كثيرون بسبب استهداف متظاهري الإخوان من قبلهم. وقرر أن القيادات الإخوانية المتواجدة بالساحة كانت تختبر القناص بنفسها وتقرر منحه السلاح والذخيرة وتحدد مهمته ومكان تمركزه. واعترف بأنه سلم نفسه بعد انتهاء الطلقات النارية التي كانت بحوزته.

قدتها حتى باب الحمام وسألتها عن حاجتها لأي مساعدة فردت بصوت واهن:

- لا.. لا ما خلاص، أنا مُتمسكة بحبال دائبة، لازم أرضى بقسمتي.

أشعلت البوتاجاز ثم وضعت البراد وبه الماء، وأخذت انظر للماء حتى بدأ يغلي. تناولت ملعقة صغيرة وأخذت بها مقدار قليل من النعناع ودلقته في البراد. وضعت المصفاة وبدأت أسكب. حملت كوب النعناع

للصالة ووضعته على الطاولة أمام الكنبة التي تجلس وترقد عليها. فتحت التلفزيون، وسمعت صوت القيء يندفع من جوفها، فبحثت عن محطة القرآن الكريم، ثم ضبطت المؤشر ليملأ الصوت المكان. وتقدمت حتى باب الحمام وناديت عليها إن كانت بخير؟

- ما في حاجة، ما تدخل في الحمام. مرض وفضائح!

قالت أختي إنها تريد أن تأكل شيء به ملح لأنها تحس بهبوط في جسدها. فتحت الثلاجة وأخذت أنظر. قطعت الطماطم لشرائح وأضفت لها الليمون ثم بحذر أضفت مقدارا قليلا من الملح. سكبت قليلا من زيت الطعام، وسألتها من مكاني إن كانت تتحمل الشطة الخضراء فصمتت. وضعتها جوار الخبز، ووضعت الصينية أمامها وقلت لها: إنني سأجهز لها شايا خفيفا مع قطعة جاتوه لكي يتوازن في جسدها الملح والسكر. جهزت الشاي ووضعت جواره قطعة جاتوه صغيرة ثم حملته ووضعته أمامها وقلت لها إنني سأشرب معها الشاي لكنني لن أشاركها في الجاتوه الذي لا أطيقه. فقالت إن المصريين يبدعون في صنع الحلويات.

بعد الأكل قامت للصلاة، ثم أخذت تقرأ أوراد التحصين. تمددت على الكنبة وقالت إنها تريد أن تنام. فسألتها إنِ كانت تريد قناة القرآن، فقالت إنها تريد أن تتابع أخبار ما سيحدث غداً. أخذت أحرك الريموت بحثاً بين القنوات وتوقفت عند لقطات من فيلم (كتيبة الإعدام) للمخرج عاطف الطيب.

قمت وفتحت جهاز الكمبيوتر، وسجلت كلمة المرور للموقع الذي كان علي أن أبلغه بما توصلت إليه.

استقبال:

- لم نتلق حتى الآن أي أسماء! هل نفهم من امتناعك هذا أنك ترفض تنفيذ المطلوب منك؟

رد:

– مشغول بسلامتي الشخصية، معي مرافق دائم يحتاج لمساعدة دائمة.

استقبال:

– هذه آخر رسالة فيما يخص هذا الملف. نكرر: نريد أسماء البنات والنساء اللائي كن عينة بحثية للدراسة التي قمت بها..

رد:

– أرسلت تقويما حول الحالة العامة يتضمن نقاطا لكل من يرغب في مواصلة البحث العلمي، لكنني واضح جداً فيما يتعلق بإرسال أسماء وأرقام هواتف أو عناوين صفحات شخصية للبنات أو النساء. هذا العمل غير أخلاقي بالنسبة لشخصي ويضعني في خانة تصنيف اجتماعي بشع: وهو أنني قواد، ولست باحثاً علمياً.

استقبال:

– قدمت في يوم الخميس في شهر يناير، عنوان طالبة دراسات عليا في الجامعة إلى صديق لك يمتلك شركة كبيرة. وكان تبريرك أن (القوادة) للأصدقاء هي قمة الرجولة. ولكن ما تفسيرك للمبالغ المالية التي تلقيتها منه؟ لقد قدمت عدة أسماء وقمت بتوصيل بنات أخريات إلى رجال بنفسك.. منهن تلك البنت التي أوصلتها إلى كافيه ومطعم السعادة، إلى رجل أعمال وأخذها معه إلى القاهرة. صحيح أنك أنفقت المال الذي أخذته منه في علاج مريض، لكننا لم نطلب منك أن تكون مخلصاً للبشرية.

رد:

- لا توجد عملية نظيفة وبدون شوائب. إن ما تضعوني تحته الآن هو ابتزاز معنوي ولاشيء يجبرني على كشف مصادري.

قطعتِ الاتصال، ثم أدخلت كلمة مرور أخرى لفتح حساب سري باسم وهمي. كنت قد أعددته وأخفيت فيه مادة خام كنت قد جمعتها ولم أعمل عليها. فكرت في أنهم يبحثون عما ليس بحوزتي. ربما يكون ضمن تفاصيل أمتلكها دون أن أنتبه! أيبحثون عن اسم أو عن شريط مصور؟ هدف تم اصطياده ببنت من البنات اللائي صادفتهن دون أن أنتبه؟ ربما تكون قد أمسكت بشيء تبتزهم به وهربت منهم، لكن لا توجد صدفة في هذا العالم، فهل تم إعدادها لتصلني؟ أم تم اصطيادها من بعد مقابلتي لها؟ أم أثناء عملية النظافة والغسيل التي يخضع لها إلزاماً كل من يدخل إلى هذه العوالم؟

لقطة تعكس جانباً من المزاج الجنسي في السبعينات:

التعليمة: تعليم العروس الرقص على إيقاع الدلوكة في مجلس نسائي قوامه الأساسي البنات الشابات، صديقات العروس التي يتم تدريبها، وصديقاتها وبنات الأهل والجيران. هذا التقليد قديم، ويصنف ضمن طقوس العبور والتي تتم استعداداً لأن موعد ممارسة الجنس قد حان. تتم تهيئة نفسية ومزاجية للبنت- العروس، بزعم تعليمها الرقص. ما يسمح لها بكشف جسدها وتحريك مفاتنها: صدرها ومؤخرتها، والبنات يصفقن بحرارة وحماس ويغلي الحرمان. المزاج الجنسي يظهر أيضاً في الجو ودرجة التخفف في الحكي والكلام وتبادل التلميحات وكلها جنسية تتعلق بما يدور في المخيلة عن العلاقة الجنسية وعن الذكر.

مما تتغنى به البنات في منتصف الستينات وحتى أوائل السبعينات:

الروك- اند رول: يا القمر الروسي...

وترتبط برقص تهز فيه الأنثى جسدها ومؤخرتها بإيحاءات جنسية على إيقاع الدلوكة والتصفيق من البنات في مجلسهن ذاك.

من أغنيات التعليمة في السبعينات:

(سوحي.. سوحي ليهو... بالجنبة بوحي.. سوحي ليهو بين إيديهو يا العائدة ليهو)

والأغنية تعبر عن الأساس في علاقة الذكر بالأنثى، وهى أن تُسلم الأنثى نفسها (له) أن تسيح- تذوب، بين أياديه، فهي في النهاية (عائدة إليه). وتوضح وضعية الاستسلام للذكر ونفي أي دور في الجنس كشريك..

السبعينات شهدت مفردات دلالاتها جنسية وإيحاءاتها أيضاً جنسية ولكن بشكل مخفي. مفردات مثل: الموضة- لابسة موضة. رقص جاز. رقص مختلط. ولكن السبعينات شهدت بداية الطوفان الجنسي الحالي في تجليه المرتبط بالسياسة، وكان ذلك حين أعلن الرئيس نميري عن توجهه الإسلامي، وعن تكوين لجان لدراسة إعداد قوانين للحكم بالشريعة الإسلامية. المخطط الأمريكي بدأ منذ ذلك الوقت وذلك في إطار استخدام الدين الإسلامي والحركات والجمعيات الإسلامية لمحاربة الشيوعية والاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية وقوى اليسار والقوى الوطنية. وسرعان ما صدرت قرارات إغلاق بيوت الرذيلة، ومحاربة البغاء وبدأت تيارات الطوفان تتحرك...

جريدة الصحافة: ١٢- ١- ١٩٧٥: حول إجلاء البغاء من قلب العاصمة

(فالمومسات يظهرن من أبواب بيوتهن بصورة واضحة لا تستقيم معها تصور أنهن يفعلن ذلك من غير غرض، وهى ظاهرة تبدو في

الصباح وأثناء النهار والليل، والجموع تصطف صفوفاً على أبواب المنازل).

جريدة الصحافة: ٢١- ١- ١٩٧٥:

(فإذا مررت بالمنطقة الواقعة جنوب السوق العربي، وهو في قلب العاصمة وجوار السكة الحديد ومستشفى الخرطوم وكليتي الطب والصيدلة، وإلى جوارها عدد كبير من عيادات الأطباء ومعامل الفحص والصيدليات والفنادق، وكلها أماكن يؤمها الناس الذين لاشك تؤذيهم هذه المناظر القبيحة وتخدش حياءهم لاسيما السيدات والصغار الذين يمرون بهذه المنطقة في غدوهم ورواحهم فتتسمر أعينهم نحو هذه الصفوف المتراصة والأبواب المفتوحة والتي تقف أمامها نسوة عاريات)

جريدة الصحافة: ٢٨- ١- ١٩٧٥:

وجهة نظر حديثة.. لماذا لا تكون الممارسة الجنسية من أجل الحب؟

هناك ٥ آلاف عاهرة بالمدن الثلاثة...

المزاج الجنسي في الثمانينات:

الحدث الحاسم اجتماعياً منذ أوائل السبعينات هو الهجرة إلى دول البترول. ما يطلق عليه في السودان (الاغتراب: فلان اغترب، أي سافر للعمل في إحدى دول البترول) ويعود المغترب ومعه أموال تمكنه من تحقيق أحلام كثيرة وتعويض حرمان ممتد عبر السنين. المغترب يجلب معه كل شيء: البوتاجاز والثلاجة وخلاط المطبخ الكهربائي، وحتى

البطاطين وحافظة الماء. الأهم في كل الغنيمة: التلفزيون الملون ومعه الفيديو: فيديو سوني: بيتا ماكس، أو فيديو: جي- في- سي.

انتشار التلفزيون الملون أحدث نقلة في الخيال. والمسلسلات المصرية والتي تقوم على قصص الحب والزواج والطلاق والعشيق، أصبحت جزءا من مخيلة موجودة فعالة وشغالة في تفاصيل الحياة اليومية. انتبه الذكر والأنثى - بالذات- في الفضاء الاجتماعي الخرطومي إلى ذواتهما جسدياً. انتبها إلى طاقة ما كامنة في الكلام، التصريح بكلام، وأن في حيز الإمكان أن يمشى الذكر والأنثى مع بعضهما البعض وعلى مقربة من بعضهما البعض. وكان اسم الظاهرة (الخلطة- خالطين بعض!) والجنس موجود، يطل برأسه ولا يتمدد كاملاً. بدأت الغريزة تنتج حيلها، والمزاج الجنسي يكاد يطفو على مستوى السطح، ولكن ليس بعد. انكسار الهيبة والتردد والخجل بحذر، ووفق أشكال لا تصرح بل تلمح. ويطفو المزاج الجنسي على مستوى الوجود الاجتماعي العام، المظهر، الغناء، النزوع الاستهلاكي بشكل، والخروج الجماعي (ظاهرة الرحلات المختلطة)

وكمثال لبدايات تحرك المزاج الجنسي من خلال الغناء، الانتشار الكبير لأغنية (يا بهية) وكلمات الأغنية تعبر عن توق عارم للجنس من الطرفين، وكل منهما يعبر عما سيقدمه في تلك العلاقة المقدسة- المحرمة، والتي تضطرم بنيران الحرمان:

(يا بهية.. آآيا يأ.... الشحم ده... آآياآآ... واللحم ده... آآياآآآ...) .

ثم ظهر رقص (الكشف) وهو مرحلة متقدمة في التعبير بلغة الجسد عن المزاج الجنسي، حيث ترقص وجسدها يهتز بصورة فيها

إيحاء وإغراء مثير. وشهدت الثمانينات الاستخدام العلني في تفاصيل الحياة اليومية لمفردات (حب) (ارتباط - ومرتبطين).

ما أن ظهر الفيديو مع تزايد أعداد المغتربين إلى السعودية ودول الخليج، حتى ظهرت أفلام الجنس. وبدأ الخيال الخرطومي- الجنسي، يشتعل بما لم يتخيله من قبل. يوم العثور على فيلم جنسي هو يوم فرحة تقارب فرحة يوم عيد الفطر بالنسبة للرجال. كانوا يتجمعون في مجموعات في منزل لمشاهدة الفيلم بما يتضمنه من مشاهد لم تخطر على خيالهم من قبل. للنساء مجالسهن الخاصة، كانت فترة الظهيرة بالنسبة لست البيت- المتزوجة- ومن تختار من صديقاتها- زوجات، أو غير متزوجات أحيانا، كانت محاولة لاستكشاف عالم أفلام الجنس. أشعل الفيديو آبار الحرمان الجنسي في الخرطوم بحريق هائل لن تنطفئ ناره أبداً إلا بماء التعليم.

جغرافياً، كانت منطقة عشش فلاتة هي المنطقة التي تتيح الجنس للفئات الفقيرة. الغالبية هناك كانوا من الإفريقيات النازحات من تشاد ونيجيريا، وكانت أسماء الشوارع تلائم البلاد التي أتوا منها: شارع ابوجا. ولكن المفارقة أيضاً لا تفارق السودان، فشارع لبنان موجود أيضاً، وشارع شيكاغو من أخطر الشوارع، والأسعار في تلك المنطقة تلائم محدودية الطلب.

أما أصحاب المال أو المرتاحين فلديهم مناطقهم. وكمثال: شارع ١٥ العمارات. كانت توجد عمارات بها شقق مخصصة لطالبي اللذة الجنسية بمقابل مادي كبير بمقاييس تلك الفترة. والبنات كن من الباحثات عن طريق مختصر وسريع للمال. يدخل التصنيف الاجتماعي هنا (بنات بلد- بنات عرب - بنات أسر)

الجنس يرتبط بالمال وبالنفوذ. كان يوجد فندق في منطقة بُري، ويوجد به ديسكو. البنات موجودات في الديسكو، ووسط الرقص والشراب المباح يتم الالتقاء والاتفاق، ويصطحب كل من يشاء إلى حيث يشاء. يوجد فندق آخر وبه ديسكو ونفس العرض، البنات يتم اختيارهن بحسب معرفة القوادة التي لا تظهر، أو القواد.

أماكن أخرى مثل الكشافة البحرية، وفيها درجة اختلاط كبيرة ما بين البنات والأولاد وذلك بحسب المستوى الاجتماعي: الشريحة العليا من الطبقة الوسطى، أو الأثرياء. أو نادى التنس في حي المطار. وهناك أماكن أخرى للالتقاء وأخذ البنت والذهاب بها، مثل مطعم البستان في سوق الخرطوم ٢، والذي كان يقدم خدمة للطبقة الراقية المرتاحة مادياً، ويتم فيه ومن خلاله تسهيل عملية العرض والطلب والالتقاط للفئات الراقية.

وشهدت الثمانينات أماكن اشتهرت بوجود الجنس. فمزارع الباقير وسوبا اشتهرت بالقعدات- الغناء والجنس. وفي الجامعات، وخاصة في الداخليات، نُقلت طلبة جامعية في الليل إلى المستشفى وهى تصرخ لأنها كانت قد أدخلت زجاجة البيبسي- كولا في مقدمة فرجها ولم تستطع إخراجها، فخافت وصرخت. كل ما فعله طبيب المستشفى هو كسر الزجاجة. وتم منع زجاجات البيبسي في الداخليات، لكنهم لم يستطعوا إصدار قرار بمنع الموز والذي لم يكن سراً أن بنات الداخليات الجامعيات يستخدمنه في ممارسة العادة السرية. كما تشهد حمامات الداخلية- بنات، بمدى الحرمان الذي يهدر في أجسادهن عبر مخيلتهن. فالجدران كلها رسومات وكلام وأسماء رجال.

هناك ملاحظة، وهي: أن مثل هذه التحولات تتم ببطء شديد وبأشكال تتخفى إلى أقصى حد ممكن من التخفي، أو تحديداً الإنكار. وكمثال:

الخرطوم: أكتوبر- ١٩٨٨: يوميات ربة منزل: تغريد حسن:

"دخلت قبل يومين في مغامرة أخرى وسط هذا المجتمع والذي بدأ يتشكل بصورة غريبة وسريعة. خرجت إلى الشارع الرئيسي، مزدحم بالسيارات والتيار الكهربائي مقطوع. بدأت في رفع يدي لسيارات الأجرة دون جدوى. ولظلمة الشارع ولانقطاع التيار الكهربائي لم أعد أميز بين سيارة الأجرة والسيارات الأخرى، غير أن إحدى السيارات الملاكي توقفت بجواري، واعتذرت لصاحبها لأنني أصبحت لا أميز بين السيارات العابرة وكان قصدي سيارة أجرة. غير أن صاحبنا ألح في طلبه بتوصيلي عندما سألني عن المكان الذي أود الذهاب إليه. وقال: هو نفس طريقي وألح بشدة. ولبراءتي ركبت معه وبدأ حديثاً غريب اللهجة وعرفت غرضه: إنه من هؤلاء! لم أكن أتصور أنني كنت طفلة ساذجة في تلك اللحظة وقد وقعت في شباك ذئب من ذئاب مدينتنا. وحاولت أن أعرف: لماذا يفعل معي ذلك؟ قال: انتي السبب في ركوبك معي. قلت: هل لأنني اعتبرتك عابر سبيل وجد امرأة تريد خدمة سوف تلقى بها أنت أجراً عند الله؟ وعرفت منه أنه يعمل بإحدى المؤسسات الكبرى ويحتل مركزاً مرموقاً، أما أنا فلقد أخطأت عندما ركبت في سيارة شخص لا أعرفه لأنني لم أكن أعرف أن هذه المدينة تعج بهذا النوع. اعترف لكم، كما اعترفت لزوجي: لقد ظننت أننا قد تحولنا بعد أبريل ١٩٨٥ وعادت إلينا قيمنا السمحة التي انتحرت طيلة أعوام طوال، ولكن يبقى الحال كما هو عليه إلى حين بيان آخر وإنا لله وإنا إليه راجعون."

إفادة شخصية:

بعد قرار إغلاق منازل- بيوت، ممارسة الجنس أصبح العرض في الشارع. في الخرطوم كان شارع محمد نجيب- شارع الصحافة

شرق، من أكثر الأماكن ازدحاماً بالراغبات في الخطف. كان اسم الظاهرة هو الخطف. تقف البنت على الشارع وتشير إلى السيارة العابرة بصورة خفية فتتوقف لها فتركب ويتم التفاوض داخل السيارة. أو يمكن أن يتوقف صاحب السيارة أو أصحابها من تلقاء أنفسهم إذا أعجبتهم البنت أو أحسوا برغبتها في الذهاب معهم.

كنت في الشارع وأشارت إلي. توقفت ونظرت إليها. كانت شابة وجميلة وكان يبدو عليها قلق شديد. سألتها أين تريد الذهاب؟ ففتحت باب العربة وركبت. قلت لها مالك؟ كانت تفرك يديها بتوتر شديد. قلت في سري: الله يستر ما تكون مجنونة. سألتها عن اسمها، ولاحظت أن في إصبعها دبلة زواج. قلت لها بوضوح: أنا سأذهب بك إلى منزل، فهل عندك مانع؟ لم ترد! لم تصادفني أنثى بها كل هذا الجوع للجنس. ما أن دخلنا المنزل وأغلقت باب الغرفة حتى سارعت ترفع ملابسها ورقدت! لم تكن ترتدي سروالا داخليا، ولم تخلع ثوبها وكانت في شبه غيبوبة. دهشتي مهما يكن منعتني من المتعة الخالصة الخاصة بي أنا شخصياً. ظللت أتحرك بعنف في جسدها، وكانت تشهق بعمق وعينيها مثل كل أخواتها السودانيات مغمضتين. بعد ذلك، وكأنها أفاقت، قامت ودخلت للحمام. وقالت لي إنها تزوجت قبل سنة وزوجها قضى معها شهر عسل سريع في فندق ثم عاد لعمله في السعودية. وظلت هي في انتظار الإجراءات لتسافر إليه! لكن الإجراءات تتأخر وهي تتعب وتحتاج، فلا تحس بنفسها إلا وهي في الشارع وفي عربة! قال إنها كانت أكثر هدوءاً حينما رقدت للمرة الثانية، بل رتبت ثوبها.

في شقق المغتربين في السعودية ودول الخليج، توَفر للجائعين طعام مختلف الأنواع وصحي ومغذي ويزيد من طاقة الجسد. السودانيون كافة أبناء جوع ونتاج جوع. بالرغم من توَفر الطعام فان

الحرمان كان قد تمكن واستقر في الروح فلا فكاك. هناك أيضاً الفراغ وعدم وجود بديل يتم فيه تفريغ طبيعي موزون للطاقة الجسدية والذهنية والنفسية- المزاجية معاً.

مع الجوع الروحي والنفسي- المعنوي، والجسد يضج بما يختزنه من غذاء صحي، ومع تاريخ الحرمان الجنسي الممتد منذ عقود ممتدة، ومع الساعات الطويلة التي تقضيها الأنثى وحدها فقط في شقتها في انتظار عودة الزوج- الذكر- ومع الفيديو الذي لا يتوقف، ينفتح كل شيء. المخيلة والرغبة في المغامرة إلى حد المجازفة اليائسة، ويحدث ما يشبه التوهان النفسي. وحكايات الجنس المحرم في بلاد الاغتراب ممتدة امتداد سنوات الاغتراب. وحكايات التشكيك في النسب وإنكاره يتم التكتم عليها إلى أقصى حد ممكن، لكن ما يفلت من الكتمان يدلل ويشير. حكى عماد عن إنه كان في الرياض، وكانت جارتهم السودانية شابة يخرج زوجها للعمل ويذهب أولادها للمدارس ثم تبقى وحدها لأوقات طويلة. عماد شاب غير متزوج. قال إنها كانت تفعل شيئين أثناء ممارسة الجنس، كانت تردد جملة واحدة وباستمرار:

- ده شنو يا عماد اللي بتعمل لي فيهو ده؟ انت ليه بتعمل لي كده؟ انت بتعمل لي في شنو يا عماد؟

والشيء الثاني إنها كانت تقف مباشرة بعد الانتهاء من الممارسة أمام المرآة وتتحدث مع نفسها:

- دي أنا؟ معقول أنا عملت كده؟ معقول دي أنا اللي بعمل كده؟ دي ما أنا.

وقال إنهما كانا يتفقان في كل مرة إنها الأخيرة، حتى جاء يوم أخبرته أنها اتفقت مع زوجها على إرجاعها للسودان لأنها حامل ولا تتحمل الوحدة. كان مهموماً لأنها لمحت له بأن ما في بطنها قد يكون منه!

(٤)

أيقظتني أختي وقالت إنها ظلت تنادي علي لوقت بدون أي رد وكأني لست هنا. جمعت نفسي بصعوبة، وقلت لها إنني سهرت كثيراً. تحركت أمامي بِخطواتها البطيئة نحو الغرفة وأنا أخطو خلفها بعيون النومِ وصحو غير مُكتمل. فتحت صنبور الماء الساخن وبدأت أنظر باحثاً عن الصابونة ومعجون الأسنان وماكينة الحلاقة في لحظة واحدة. لسعني الماء الساخن في جلدي حتى صرخت، وهي من مكانها تحوقل. قلت بِلهجة تجتهد في كِتمان الألم على سطح جلدي: لا شيء.. ماء ساخن.

لما خرجت من الحمام وجدتها جالسة على الكنبة تُفكر. عدت للمطبخ وبدأت في تجهيز الشاي، وسألتها عن الفطور فقالت: نفسها تفطر خارج الشقة! تعجبت من الفكرة وتركت الرد يدور في دماغي الذي كان يدور محاولاً استعادة ترتيب برمجته، وكان غير جاهز للتوصل إلى أي نتائج.

وضعت الشاي أمامها، ووضعت كوبي على الأرض، ثم تناولت ريموت التليفزيون، كل القنوات عالمية ومصرية تتنافس في تقديم أفضل تغطية عن مُحاكمة الرئيس المتهم بالتخابر محمد مرسي.

- كيف سنفطر خارج البيت؟ من سيجرؤ على الخروج اليوم؟

ضحكت وقالت:

- نفسي أسمع أصوات المظاهرة وصوت عربات الإسعاف، وأشم رائحة الغاز.

- الغاز يؤذي العيون.

- بالمناسبة، اسمع ومن غير زعل. أنا فكرت كثير ووصلت لقرار: لازم نقابل دكتور عيون ونشوف رأي تاني.

- جداً، لكن الأول نحدد من هو؟ وكيف ومتى سنحجز عنده للمقابلة؟ هل تعرفين دكتور محدد بالاسم؟

- أيوه، دكتور شاطر جداً، وقالوا الناس تأتي له من كل الدنيا لأنه بيعالج أي حالة.

صحيح. من حقها أن ترى طبيب آخر، هذا بالضبط ما سينقذ الزيارة وسيرد لها معنوياتها. صعب عليها أن تأتي بالطائرة من الخرطوم ليقابلها طبيب العيون الذي كانت آمالها عليه فيختصرها في دقائق وتخرج منه لتعود للخرطوم.

جلسنا نقلب بين قنوات التليفزيون.

قناة تليفزيونية:

(السؤال عن التغيير الذي حدث في مصر: انتفاضة شعبية أم انقلاب عسكري؟ هو نوع من الاستهبال السياسي بقصد التمويه. مصر تواجه حرباً تم التخطيط لها منذ عقود، الحرب تقودها إسرائيل وأمريكا ودول أوربية، ودول عربية وضعت إمكانياتها المادية لتمويل الحرب، ويتم التنفيذ بأيادي الجماعات الإرهابية وطليعتها الإخوان المسلمين. مصر في حالة حرب.)

قناة تليفزيونية:

(مخطط إسرائيلي- أمريكي لتغيير خريطة المنطقة جُغرافياً إلى دُويلات تسودها الفوضى البدائية، وتسليم القيادة لشخصية فاقدة تماماً لأي قُدرة على الانتماء إلى أي قيمة أو معنى. مع خلق شخصية استهلاكية تتوهم تعصبها للقيم المُقدسة- الدين- ولا تجد أدنى صعوبة في التعايش مع التناقضات، وترتكب الأفعال العصابية بمنتهى السهولة.)

(بالنسبة لجموع الناس فالمخطط يستهدف إغراقهم في مزاج استهلاكي تتدفق أمواجه عالية صاخبة: المزاج الاستهلاكي يشمل تغيير نمط الحياة وتعطيل القدرات الإنسانية الحقيقية مثل حق العمل، تدمير الإنتاج، تدمير العملية التعليمية، اصطناع مزاج مشوه في كل مناحي الحياة، تلويث الدين بإنتاج الخرافات والتأكيد على عوالم (الماورائيات) ثم وبشكل أساسي تفتيت الشخصية بإطلاق الطاقة الجنسية بشكل غريزي- بدائي، وجعلها مدار الحياة. تغيير المزاج الجنسي هو رأس الرمح في عملية تفتيت الشخصية.)

(الجيل الرابع من الحروب يتضمن تفتيت بنية جهاز الدولة وخلق حالة من الفوضى. إثارة الفتنة الدينية والطائفية واللعب الإعلامي- المخابراتي، بحيث تُفعّل وتُفتعل مظالم مشروعة لا لكي تتم معالجتها بل لتصبح ثغرة ينفذ منها التسلل والتدخل لضرب وحدة الوطن والشعب. ويتم هذا بواسطة وكلاء المنظمات الأجنبية وأصحاب مراكز الدراسات والأبحاث الممولة من الخارج تحت زعم بناء منظمات المجتمع المدني.)

قناة تليفزيونية:

(الجيل الرابع من الحروب يشمل حرب المعلومات، والحرب التقنية- الإعلامية، ويشمل خلق حالة من الفوضى تتضمن ظهور أو

اصطناع شخصيات تبدو وكأنها قيادات سياسية وطنية. هذه الشخصيات المُصطنعة تتبنى قضايا وشعارات كبيرة. مثل هذه الشخصيات تملأ الفراغ السياسي ما بين الجماهير وحوجتها لقيادة وطنية حقيقية، وبين الحالة التي تخطط لاصطناعها: حالة الفوضى والتشويش. تتحدث هذه الشخصيات عن حق الناس في الحرية وحرية التعبير، وتطالب بالديمقراطية النزيهة وتخطب وتظهر في المظاهرات. نضالهـــا اللفظي متدفق دائماً، ولكن مثل هذه الشخصيات لا يتم تتبعها مـــن خلال الموقف السياسي- اللفظي، مهما تبدى وطنياً (اعتقال الناشط الوطني أثناء مظاهرة تطالب بالحريات!) هذه الشخصيات يتم تتبعها من خلال تتبع أرصدتها البنكية خلال عقد أو عقدين. ومن خلال تتبع السفر إلى الخارج الذي قامت به عبر أخطر أدوات الاختراق في الحرب الرابعة وهي: مراكز الأبحاث وجمع المعلومات. التمويل- المتدفق من الدول الكبرى ودورات التدريب والسيمينارات والأبحاث والندوات والمؤتمرات والسفر المستمر، عملية متكاملة لتهيئة وفحص وإعداد الكوادر.)

من شبكة الإنترنيت- موقع فيس بوك- :

نموذج للشخصية الجديدة التي تنفذ المخطط الإسرائيلي- الأمريكي:

جهاد الحداد:

كشفت مجلة فرونت بيج الأمريكية أن جهاد الحداد (يمني الأصل- يحمل جنسية أمريكية) المتحدث باسم جماعة الإخوان كان من أبرز أعضاء شبكة صنعتها وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون في مصر. وأشارت المجلة إلى أن جهاد الحداد كان يعمل في فرع مؤسسة

كلينتون في لندن، وبعد وصول الإخوان المسلمين للحكم تم تكليفه بالعودة إلى مصر للعمل كمتحدث إعلامي لتنظيم الإخوان لقدرته على مخاطبة الإعلام الغربي مستغلا شبكة علاقاته التي أنشأها من خلال القرب من مؤسسة كلينتون وعلاقاته بوزيرة الخارجية السابقة. ومن المتوقع أن تفتح قضية القبض على المتحدث الرسمي باسم الإخوان وكشف علاقاته بوزيرة الخارجية الأمريكية، الباب أمام الكثير من التساؤلات حول علاقة تنظيم الإخوان بمسئولين أمريكيين كبار استخدمهم لتحقيق أهدافه ومن ثم إعداده منذ فترة للوصول إلى الحكم في مصر. والد جهاد الحداد هو الدكتور عصام الحداد (يحمل جنسية بريطانية) شريك لخيرت الشاطر في إمبراطوريته المالية، وكان مساعد محمد مرسي للشئون الخارجية. أحد أهم قيادات التنظيم الدولي للإخوان وكان مسئولاً عن إخوان البوسنة والهرسك، ومستشار الرئيس الشيشاني السابق علي عزت.

الدكتور محمد البرادعي، يندد بإلقاء القبض على جهاد الحداد بعد خبر اعتقاله بربع ساعة في تغريدة له على تويتر.

قناة تليفزيونية:

المخابرات الأمريكية تلعب مع الجميع في وقت واحد وتلعب بالجميع في وقت واحد.

قناة تليفزيونية:

عملاء المخابرات الأمريكية والإسرائيلية ودول أخرى في مصر لا يمكن معرفتهم بسهولة. إن حجم الاختراق على مدى عقود يصعب رصده وتتبعه. وتبقى حقيقة وهي أن عملاء آخرين لا يزالون ينشطون وفي مواقع حساسة دون أن يحس بهم أحد، بل دون أن يخطر على بال أحد دورهم في خيانة بلادهم..

قناة تليفزيونية:

(جون كيري وزير خارجية أمريكا في زيارة للقاهرة قبيل بدء محاكمة مرسي بساعات ومنها يطير إلى السعودية).

ضحكت عندما رأيت وجه جون كيري وزير خارجية أمريكا وهو في القاهرة قبل محاكمة مرسي، وقلت لها: إن وجهه يذكرني بتلاميذ المدرسة الابتدائية الذين يتغوطون على أنفسهم في الفصل وتصير ذكرى ملازمة لهم، وضحكت أكثر بسبب رائحة غائط التخابر الأمريكي الممتدة.

قالت بانفعال: هذه كانت من نوع الأيام التي يحبها أبونا- الله يرحمه- لو تتذكر كان يفتح الراديو من الصباح: هنا بي. بي. سي. هيئة الإذاعة البريطانية.

تذكرت كيف كانت ملامح وجهه تكتسي بحماس وهو يستمع لأخبار الاشتباكات بين الدول وكيف كانت تعجبه التصريحات القوية التي يطلقها قادة الدول عند الأزمات، والمُرتبطةً باستخدام العنف. كان يستمتع بإثارة لا حدود لها بأجواء طبول الحرب، وتظهر في وجهه متعة بلا حدود عند اندلاع العمليات الحربية وعندما تُذكر أرقام الضحايا ما بين قتيل وجريح، وكان يردد بانفعال:

- ماتوا ألف! ألف نفس.. خلاص انتهت! والجرحى بعشرات الألوف، والضرب مستمر بمختلف أنواع الأسلحة، كلاشنكوف أيه؟ بيقول لك أسلحة ثقيلة.. أسلحة ثقيلة.. أيوه. ورشاشات تطلق ألف طلقة في الدقيقة، والاشتباكات بالأسلحة البيضاء، أيوه، وجهاً لوجه.

حكى كثيراً عن أيام الحرب العالمية الثانية في الأربعينات من القرن العشرين. كان يمشي عدة كيلومترات لكي يصل إلى ميدان

البوستة في سوق ام درمان حيث كان هناك الراديو العمومي والذي يأتي الناس ليستمعوا إلى نشرة الأخبار منه. وكان يقف وسطهم ليستمع إلى أخبار المعارك الشرسة بين جيوش الحلفاء بقيادة مونتجمري، وجيوش النازية بقيادة روميل. سألته عن سر إعجابه بروميل وهل كان يؤيد النازية، فرد بحماس: قادة النازية كانوا رجال! قمة الرجولة. لحظة الهزيمة، انتحروا كلهم. رجال! لم يلجأ أي قائد عسكري للسم، بل بالرصاص وفي الرأس (طاخ..طاخ) وذلك الجنرال الذي جمع أولاده وزوجته وأخرج مسدسه وأطلق النار عليهم واحداً تلو الآخر، ثم أطلق النار على نفسه. وهو يحكي كان يجعل راحة يده على شكل مسدس، ثم يمد إصبعه السبابة ويردد بفمه كصوت الطلقات (طاخ طاخ.. طاخٍ) وتلمع عيناه بوميض غير مريح. كان مخزون العنف بداخله كبيراً، وممتزجاً مع رغبة ملحة في اللاوعي في تنفيذ فعل القتل! كيف لا وهو يتأمل باستغراق كل سكين جديد جلبوه للمطبخ، لغز صامت آخر. ولم يكف عن التهديد بأن أي سارق سيدخل منزله لن يجد سوى طعنة السكين في عُنقه، وحينما نبهته والدتنا ذات يوم إلى أن حجمه الصغير قد لا يُساعده على تسديد الطعنة للسارق- الوهم- أجابها بتحدي وثقة: أنا خفيف جداً.. قفزة واحدة وأغز السكين في عُنقه.

فتحت الثلاجة وأخرجت ما تبقى من الفول وأخبرتها بأنني أجهزه. فسارعت بالقول: ممكن أي شيء غيره، فول المصريين لذته في الشارع وبس، لو في بيض يكون أحسن.

دلقت الفول في كيس الزبالة، وغسلت المقلاة ثم وضعتها على نار البوتاجاز، ووضعت مقدار قليل من الزبد ثم خفضت نار البوتاجاز لأقصى حد. كسرت بيضتين في وعاء وأخذت أخلط البيض ووضعت ذرات من الفلفل الأسود والملح، ثم تناولت قليلاً من لحم مفروم مجفف

جاءت به من الخرطوم ودلقته على البيض. أخذت أخلط مرة أخرى، زدت من كمية الزبد على المقلاة ثم سكبت خلطة البيض واللحم المفروم وغطيته بإناء وانتظرت لدقيقة ثم أزحت الإناء ونظرت للبيض الذي اخذ ينتفخ مُتخذاً شكلاً مستديراً في لون أصفر مع بقع لونها داكن أو بُني.

قطعت الطماطم إلى شرائح، وعصرت قليلا من الليمون. وتناولت علبة سفن- آب دايت، وحملت الصينية ووضعتها على الطاولة أمامها. قلت لها منبهاً إن هذا الأكل قد يرفع الضغط، وأظن أنها يجب أن تأخذ نصف حبة إضافية. ضحكت قائلة إن معلوماتي الطبية صفر في المائة، وإنها تأخذ صباح كل يوم ٢٠ مليجرام من دواء الضغط وهذه حماية كافية.

وهى تأكل وتستمع للأخبار: ملامحها نسخة من والدنا. لم يورثها فقط ملامحه بل جهازه العصبي كما هو. ظل طِوال عمره يبحث عن الإثارة والأحداث الكبيرة، وكانت قمة متعته عند نطق الأرقام الضخمة. حينما جاء جيش كتشنر ليحتل السودان انتهت المعركة في أقل من ثلاث ساعات: "الإنجليز- كان ينطق بفخر وكأنه قدمٍ معهم- قتلوهم كلهم بمدافع المترليوز، اللي بيطلق ٦٠٠ طلقة في الدقيقة، أيوه، كانوا يتساقطون كالذباب." ثم يسخر من السودانيين الذين يغنون لهزيمتهم في المعركة (ما لان فرسان لنا بل فر جمع الطاغية!)

ترى ماذا أورثني دون أن أنتبه؟

كانت تستيقظ مع آذان الفجر وتبدأ في الصلاة وتلاوة الأوراد والأذكار، ثم تجهز ملابسها التي ستذهب بها للعمل. تشرف الوالدة بنفسِها على خدمتهم وهي واقفة. تجمعهم حول طاولة إفطار الصباح التي تُعدها وتضع في حقيبة كل منهن الساندويتش الذي أعدتهُ لها وماء في وعاء بلاستيكي. إفطار الصباح بمثابة تمام صباحي يتم فيه تجديد

الولاء لإيقاع الحياة المُتفق على ضرورة استمراره. أثناء الأكل يتم الحكي عن الأحلام ويتم تفسيرها. ثم يخرجون من الأحلام إلى الحقيقة، إلى الشارع، إلى المواصلات للوصول إلى مقر العمل. لم يكن لها صديقات، على مر أعوام العمل لم يكن لها صديقة شخصية. وفي طاولة الغداء يجتمعن ويبدأ الحكي عما حدث في العمل، وكيف أن الناس كافة تفتقد المثال وتفتقر إلى ما يمتلكن منِ نموذج الكمال. تستمع الأم ووجهها ينطق بارتياح تأكيدِ عميق لصلاحية وصفتها للحياة. في هذه اللحظة بالذات كانت هي فعلاً زوجته وشريكة حياته. يتحدث عن سلوك البنات وجوهر الحكي هو نقد لتصرفاتهن، وتعقب لمدى الخفة في تعاملهن مع الرجال بناء على سؤال إدانة: ما لزوم ذلك؟

الأب كان وراء ذلك: كان قد حذرهن تماماً من الاقتراب مطلقاً من السودانيين. نساء وبكل تأكيد رجال. لم أسمعه أبداً يتحدث عن محاسن امرأة، لم أسمعه يخوض في سيرة حديث حسي فيه شهوة طبيعية، حتى في الشعر الذي لا يخلو من الغزل والوصف الحسي كان لا يتوقف إلا عند أبيات تفضيل الفناء أو التحدي ومواجهة الصعاب. هل كان يكره النساء أم كان عاجزاً عن الوصول إليهن؟ الرجال- عنده- ليسوا أكثر من سكارى، يسرقون بلادهم. وكان يُفاخر بأنه لا يُصادق السودانيين لأنهم من أجهل خلق الله. وحكى لي ابن أخيه أن الموظفين في الباص الذي كان ينقلهم من المكتب، كانوا في لحظة المزاح يتفقون على أن ينهض أحدهم وهم عائدين بعد انتهاء يوم العمل، ويمسك بالوالد ويهتف بأعلى صوت:

- أنا متغدي عندك.. في بيتك!

ولم يكن أبي يتردد في حركة عنيفة مع شتيمة تحت الحزام، وكان الباص يضج بالضحك فالجميع يعلمون أنه لا يصادق احد. وكان يحاجج

بذلك إذا ما طالبته والدتي بمصروف إضافي للمعيشة. كان ينظر إليها بعينين واثقتين ويردد جملة واحدة: حصل يوم جبت لك معي راجل في البيت وقلت لك ده صاحبي فلان وجهزي لنا غداء؟ حصل يوم جبت لك معي زول وقلت لك: هذا صديقي (فرتان) واعملي لنا عشاء؟ أنا عندي سيجارة حمراء والا سيجارة خضراء أدخنها؟ أنا عندي كاس؟ بتاع نسوان؟ عندي طاولة قمار؟ أكثر من أربعين سنة قاعد معك مثل البنت- الفتاة، أنوم بعد صلاة العشاء وانتي لسه صاحية، وكل ما يرزقني به الله أسلمه لك. ليه تقولي لي عايزين مصاريف؟ من أين أجيب؟ أسرق يعني؟ والا أزور في الأوراق عشان انتي وبناتك تتنفخوا بالمال الحرام؟

لم يتغيب عن عمله يوماً واحداً خلال أربعين عاماً، إلا إذا كان طريح فراش مستشفى. حينما يعود من العمل نظل ننظر إليه. يخلع ملابسه، ثم يخطو مسرعاً نحو المرحاض. إذ كان لا يقضي حاجته إلا في منزله مهما كان الظرف، وكانت من أهم وصاياه! ثم يقدم قدمه اليسرى مردداً: أعوذ بالله من الخبث والخبائث! ثم يدخل يتوضأ ونحن ننظر إليه وهو صامت. يصلي الظهر ومع نهاية الصلاة تظهر الأم وبين يديها صينية الغذاء وتنحني وهى تضعها على الأرض حيث كان يأكل وهو جالس على البرش- في الأرض- وكان مسموحاً للصغار بتناول الطعام معه، أما البنات الكبار فمع الأم. ربما كانت شهوته للطعام شأنه شأن البشر الآخرين، وربما كان يزيد شهوة عنهم، وبين الاحتمالين كان يمارس تجويعاً اختيارياً على نفسه. لا يأكل إلا بضعة لقيمات، ولم يكن يتناول وجبة العشاء. هل كان ذلك إنكاراً آخر؟ ربما؟ ذلك إنه ما لبى دعوة لوليمة إلا لأقرب الأقربين عادة ، ويأتي مُعدداً أصناف الطعام التي قُدمت بِنبرة باطنها شهوة: دجاج، لحوم أشكالَ وأنواع، كبدة وحمام محشي، والمكرونة، والكنافة.. لكن أبداً.. أبداً لم أمد يدي على أي شيء، فقط أدخلت يدي في السلطة وأخذت قطعة لحم واحدة ونهضت واقفاً.

بعد تناول الغذاء يشرب الشاي، وتأتي في لحظة الشاي البنات الكبار ولديهن الجرأة في طلب أشياء أو النطق بما تحاذر الأم من أن تنطق به. ما أن يستمع إليهن أو يرى الأم مُتكئة على الباب في موقف دفاعي بالغ اليأس من كل شيء حتى يثور ويلعن ثم يقفز من الفراش ويسارع مباشرة إلى منزل والدته وأخته. ينفصل من عالم ليدخل إلى عالم آخر حيث يحتفظ بكتبه وبالصحف والمجلات. كان يقرأ كثيراً. لا يكف عن قراءة أبو العلاء المعري وترديد أشعاره التي تُمجد التشاؤم وتذُم التمسك بمظاهر الحياة لِهاثاً خلفها. ومن أبي العلاء إلى طه حسين وفكرة الشك إلى كتاب شهير لعبد الرحمن بدوى، ونسخة من كتاب الشيخ علي عبد الرازق، مع إلمام مستفيض بأفكار المعتزلة. ثم سرعان ما ينفصل عن عالم القراءة والكتاب ليدخل في عالم آخر. المسجد والاستعداد للدرس ولصلاة المغرب والعشاء. كان يحتفظ بمفاتيح المسجد وبيديه كان ينقل ويفرش (البرش) الذي يجلس عليه المُصلين لدروس الفقه والتوحيد وللتلاوة ثم للصلاة.

بعد صلاة العشاء يعود للمنزل ويستلقي على فراشه ويضع راديو (ترانزيستور) على صدره. لحظة من لحظات استمتاعه بوجوده، يترقب بلهفة ويصغي لدقات ساعة (بيغ- بن) هنا لندن... نشرة الأخبار من البي- بي- سي.

لم يكن لديه غرفة نوم تخصه، وكوضع طبيعي لم يكن لديه ووالدتنا غرفة نوم مشتركة تجمعهما كزوجين. ظللت لوقت طويل أفكر في زهد والدتي وعزوفها عن مظاهر الاحتفاء بالأنوثة، وباحثاً عن خيبة الأمل التي أحدثها هو لا غيره. كنت قد انتبهت إلى أن الأنثى لا تنسى أصلاً، الأنثى يظل مطبوع في جدران وجدانها ومخازن ذاكرتها من تعرض لها بشعور مزدوج، هي في قمة الغضب ممن تحرش بها وهي

لا تطيقه ولكنها لا تنسى أبداً أنها ممسكة بحوجة له عندها وتمتلكها! الأنثى لا تحقد إلا على من يرفضها ويعصم ذاته عنها. لا تنفر الأنثى ولا تعاف الفطرة والغريزة إلا في حالة الجنون وبشكل مجنون. كنت أسرح طويلاً: ما دفعه إلى ما يفعل؟ لم تسفر مراقبتي له عن شيء؟ لم اسمعه يوماً يتغزل في امرأة. وظللتَ أسمعه دوماً ينتقص من فعل الجنس الحيواني، ويترفع عنه. لكنني انتبهت إلى حرصه منتصف كل شهر إلى تفريغ ما يختزن من المني في الحمام. كان يعلن أن اليوم يوم الحمام ويحمل أدوات الاستحمام التي ظل يحتفظ بها لأكثر من نصف قرن، ويكتسي وجهه بتعبير سأظل عاجزاً عن فك شفرته. أين أخفى الجنس؟ أو كيف تخلص منه؟

لم يحدث أن اشترى جريدة سودانية، ولم يمر يوم لم يشتر فيه الأهرام والأخبار المصريتين، وكان اشتراكه ثابت منذ الخمسينات في القرن الماضي في مجلات آخر ساعة.. والمصور، ثم روز اليوسف، والثقافة والطليعة. ولاؤه الروحي والنفسي كان لمجلة الرسالة وللزيات وللعقاد ولمجلة الثقافة ولشوقي وحافظ، وكان يقص ويحتفظ في كراسات بكل ما كتب المازني والتابعي. وضغط عليّ يوماً بشدة لكي أقرأ كتاباً لسلامة موسى. وضمت مكتبته كل ما كتب محمد مندور محمود تيمور ويحيى حقي وتوفيق الحكيم ولويس عوض ونجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس ويوسف إدريس. لكنه لم يفكر أبداً في زيارة مصر. وظل يردد دائماً أن الإنجليز هم الذين خلقوا منه إنسانا يعمل، وكان يُفاخر بأنه منظم مثلهم تماماً.

كان قد فشل في الحصول على الدرجات التي تؤهله للالتحاق بالمدرسة الوسطى. لكن مهارته في الرياضيات أتاحت له فرصة للعمل كمحاسب وضابط لدفاتر أعمال أسرة رأسمالية امدرمانية عريقة. استمر

معهم لعام، لكن ابن أخيه- الذي كان يدرس بكلية غوردون- حذره من أن عمره سيضيع وسط ناس السوق، وأن الوظيفة الحكومية هي الأفضل، وقال له إن مصلحة المساحة فتحت فرصة للعمل لِمن يرغب في أن يكون مساحاً (يمسح الأرض كنتورياً) وكان ذلك في العام ١٩٣٦. كان عمره حوالي ١٨ عاماً، إذا صح حديثه بأنه من مواليد العام ١٩١٨. ذهب إلى مصلحة المساحة في الخرطوم، فقابله قبطي اسمه أنطوان شارلي، كما حكى فيما بعد. وقال إن القبطي سأله عن اسم عائلته، ثم سأله عن مسائل رياضيات شفهية، وطلب الإجابة بسرعة. قال إنه كان يجيب. ثم سأله عن المسافات وكيفية تقديرها، ثم طلب منه كتابة أسطر باللغة الانجليزية، ثم بالعربية. بعد أسبوع وجد اسمه ضمن المقبولين وصار موظفاً في مصلحة المساحة. كان المرتب ثلاثة جنيهات يُستقطع منها جنيه للمعاش ونصف جنيه ضرائب، وقال إنه لما استلم أول مرتب في حياته- جنيه ونصف- خرج يمشي من مصلحة المساحة في شارع كتشنر، والجنيه ونصف في جيبه وكأنه كتشنر نفسه.

كانت مهمتهم مسح الأراضي بحسب الكيلومترات ودق الأوتاد وتسجيل ذلك، ثم إعداد الخرائط الكنتورية. ومع مرور الوقت ومع تدريب الإنجليز لهم على الخروج في معسكرات للوديان وللجبال صار متمرساً على العمل، وأصبح يشرف على آخرين. وكان يفاخر بأنه خدم الوطن بمشاركته في مشاريع زراعية كبيرة، وأنهم- رجال المساحة- هم الذين خدموا الوطن، ورسموا الخرائط الكنتورية للمشاريع، ودقوا الأوتاد للطرق في الخلاء، وهم من يعرفون الجبال والوديان والصحاري في هذا الشاسع الممتد بلا نهاية والذي تتحدثون عنه من (هنا امدرمان... توفي اليوم....).

حينما اكتملت أعوام خدمته وخرج إلى المعاش، بعد اثنين وأربعين عاماً في مصلحة المساحة، لم يكن يمتلك أي شيء سوى قطعة أرض حكومية سدد ثمنها على أقساط. كان يحتاج لسيولة لكي يبني بها، فقام باستبدال جزء من معاشه مع بنك للحصول على سيولة للبناء. وقال إنه كان مطمئناً لأن بناته الأربعة موظفات وإنه سيعيش ما تبقى له وهو مرتاح. قضى في المعاش واحد وعشرين عاماً. وكان في تمام صحته. يقرأ القرآن والشعر، وبعض الصحف، ثم أوقف قراءة الصحف وصار يقرأ القرآن بكثافة شديدة لأرواح الراحلين من أهله. قال إنهم يزورونه يومياً، حينما يغمض عينيه وينام وتنفلت روحه من جسده وتسري مُحلِقةً إلى حيث تتلاقى الأرواح. وكان كلما ختم المصحف يعلن عن أنه وهب الأجر لروح فلان.

انطلقت أول إشارات فراقه للدنيا قبل عامين من وفاته. الدم دوماً مخيف فكيف إذا كان نزيفاً؟ وقال الطبيب إنها البروستاتا ولابد من استئصالها لأن شبهة المرض الخبيث كبيرة. رفض بشدة فكرة أن يجري عملية جراحية على يد طبيب سوداني. وقال مُتحدياً: إنه سيوقف النزيف بآيات الله وبالدعاء. وخلال يوم توقف النزيف ورفض العودة للطبيب. بعد عامين كان المرض قد تمكن من عموم جسده، ولزم سرير المستشفى لمدة شهر وأكثر. كان في غيبوبة تقريباً. يوم وفاته مدد قدميه على وضع مستقيم وشبك يديه على صدره ورفع رأسه للأعلى ثم شهق شهقة خفيفة وغادرت روحه جسده.

في العزاء اتضح أن سيرة أختي كسيرة المرحوم والدها. لم تكن تذهب إلى أي من زملاء العمل لا في فرح ولا في مكروه، ولم يأت لتعزيتها سوى عدد قليل جداً. لم يشغلني مجيء فلان أو تجاهل فلان الآخر! شغلني منذ مُغادرة روحه لجسده سؤال استمراريته. هل ستستمر

شخصيته في الحضور وروحه قد غادرت المكان وغابت؟ كيف ستكون نظرتهم للحياة؟ كيف سيواصلون؟ ظل كل شيء يسير كما كان يسير بالضبط! بل مُتدفقاً بأقوى مما كان، وهم أقوى قناعة بمواصلة نمط حياته هو! هو الذي ضبط دقات ساعة حيواتهم. كان في دواخلهم ومن جانبهم، كانوا تجسيداً له هو بالذات.

سألت المذيعة ضيفها: إذا كانت الأدلة تشير إلى أن مرسي كان متورطاً ومكشوفاً إلى هذه الدرجة، فلماذا إذن تم قبول أوراقه للترشيح الرئاسي؟

ظهر أبي في الشاشة:

في حياة كل إنسان سر. سر دفين يكمن في أعماق لا وعيه ولا يتبدى ظاهراً في لحظة في تجلي واحد. الإنسان إما أن يظل مراوغاً مُتجنباً مُصادفة سره، أو يظل في دفاع مستميت مُستعيناً بالإنكار الدائم وبالفرار. أشكال الفرار متعددة ومختلفة باختلاف مراحل العمر ما بين تهيؤات النجاح والحب والمال والأبناء والأصدقاء والزهو. لحظة الاصطدام بالسر هي لحظة النهاية. قد يظل يتفلت على مدار الحياة عبر مختلف المواقف ودون أن تنتبه شخصية الإنسان! الشخصية هي غير الروح. الروح موضوع آخر مختلف تماماً.

قالت أختي:

- يعني كانت مؤامرة من البداية؟ بالله شوف الأمريكان وإجرامهم؟ وأوباما الممثل! يمثل أنه مع السود والفقراء؟

قال المحلل الاستراتيجي المتخصص في تحليل الشخصية الأمريكية:

- أين يكمن سر ضعف قائد أقوى دولة في العالم؟ في روحه المضروبة بعطب ما، عطب عجز ما بينه وبين روحه على الإفلات من

مواجهته؟ كونه أصلاً من عرق زنجي؟ هل وقع هذا الضعف في يد من أحسنوا استغلاله؟ أم في شخصيته التي تعشق لقطة القفز فوق سلالم الطائرة في تعويض ما؟

ما سر ضعف أبي؟ كان مسكوناً بضعف شديد لم يُفارقه أبداً.

وسألت المذيعة:

– ولكن ما الذي يجذب أوباما الذي تربى في مناخ ليبرالي متفتح وتشرب بقيم وتقاليد الديمقراطية التي تحترم الرأي الآخر وتدين العنف والإرهاب، إلى المنظمات الإرهابية التي تنهض أساساً على إلغاء الآخر بل وتصفيته بعنف؟

– أوباما لا يحكم أمريكا..!

سألت المذيعة بنبرة دهشة:

– هل تعتقد حضرتك أن مرسي يعاني من مرض عقلي؟

– هذا يتطلب فحص طبي دقيق من قبل أخصائيين وفي مستشفى متخصص، ولكنني أؤكد لك أنه يعاني من اضطراب نفسي وجداني شأنه شأن كل من يتاجر بالدين ويبرر به أفعاله. أنتِ تعرفين أن الدين هو الملجأ الأخير للأوغاد الذين يرغبون في إسباغ قداسة على أفعالهم الإجرامية.

قلت لها:

– شخصية والدنا بها شبهة جنون؟

هبت في وجهي:

– يا أخي اخجل من نفسك! ماذا تريد منه وهو بين يدي الله!؟ راجل مسكين وبسيط أفنى عمره كله لِنأكل حلال، علمنا أن نأكل بأيادينا

وهذا يكفي. أنت أكثر من سبب له المتاعب، كمان تتفاصح وتقول عليه مجنون؟

لازمت أبي في فراش مرضه الذي توفي فيه. تنقل بين أكثر من مستشفى، وكنت معه دائماً، لكنني كنت اشعر بضيق خفي أُداريه، إذ لا توجد مشقة في الدنيا تُعادل رعاية مريض- سيما في سن متقدم-. لو تظاهر أحدهم بالصبر في رعاية مريض مع سماحة نفس تجرداً إنسانياً خالص النقاء فهو مخادع من الطراز الأول. أبي بنفسه هو من أخبرنا بذلك. كنا صغاراً وكرر لنا هذه الحكاية على عدة مرات: إذا كنا في صحراء وسنهلك من العطش ومعنا كوب ماء واحد فقط، فمن سيشربهُ لينجو من الموت؟ كُل كان يرد عن دوافع وجوده، كان يقول بعد أن يستمع لنا: سأشربه أنا لأن الإنسان يحب نفسه فقط، الإنسان يحب نفسه أكثر من أي إنسان آخر.

أثناء معاناته مع آلام المرض كان يسبب لي إرهاقاً شديداً، كلما صرخ مُتألِماً أو ازداد أنينه خلال ساعات الليل. وانتبهت إلى أن الضجر من ألم الغير- ولو كان الأب- لا يشمل المرافق فقط، بل يمتد ليشمل حتى الممرضين والأطباء. الأطباء بشكل عام، وعلى وجه الخصوص أطباء وردية الليل، هم قنابل غيظ مكتوم. وحينما أيقظت الطبيب المناوب كانت نظراته نحوي تُرسل كرهاً خالصاً، وزاد بنبرة غاضبة:

- مالك يا حاج ؟ في شنو مضايقك؟ كل حاجة ماشية حسب العلاج؟

- عايز يبول.

مشيت إلى صيدلية قسم المسالك البولية بحثاً عن أنبوب طبي يُساعده على التبول (قسطرة) ولم أجد، فمشيت إلى استراحة

الممرضات. كانت الممرضة- العجوز- الحارس نائمة بِعمق، ولو كانت مُستيقظة لتناومت لأن المال الظاهر في يدي أشد قداسة من قسم الولاء الطبي المهني: طباً كان أم صيدلة أو تمريض! دخلت وأيقظت مُمرضة. كشفت صدرها وهى تنهض كاحتجاج على إيقاظها، وقالت أن القسطرة ممنوعة إلا بورقة أخصائي ولا يوجد أخصائيين سوى في الصباح. رفعت ورقة مائة جنيه وقلت لها إنني سأشتريها، نظرتها تضمنت زيادة المبلغ، فتحت باب جانبي ودفعتني في ظهري قائلةً:

- كيف دخلت هنا في هذا الليل؟

كان الضوء خافتاً، وأخذت تنظر في الأرفف ثم تنحني لتفتح دولابا، ثم دولابا آخر. توقفت أمام دولاب كبير وفتحته وأخذت تنظر، رأيت أدوات طبية ومحاليل، وشاش وقطن طبي، مدت يدها وكأنها تبحث عن أنبوبة القسطرة ولحظت أن أصابع يدها الخمسة تمسك بخشب رف الدولاب فاقتربت من ظهرها. تلك الثواني التي لا يمكن بعدها سوى استكمال التحسس والبحث، تحسست بيدها الأخرى جوار صناديق الواقي الذكرى، جوار نموذج خصيتين يمتد منهما أنبوب، وحين تشبثت يدها الأخرى وسمعت آهة خافتة رأيت سائلا يندفع من الخصيتين عبر الأنبوب ثم يتطاير في أرجاء الدولاب..

النوم أخذ الطبيب المناوب مرة أخرى، فأيقظته مرة أخرى. دعا عليّ بالهلاك وعلى أبي بتعابير وجه مفضوحة، وكانت أصابعه أبلغ أثراً وهى تُدخل إبرة القسطرة في ذكر والدي بدون أن تصحبها رحمة التطبيب المحسوسة للمرافق وللمريض معاً. ضغط على الأنبوب فتدفق البول ونظر لي وكأنه اكتشف شيئاً:

- كان عنده حبس بول.

ظللت مستيقظاً في انتظار من ستأتي من أخواتي لكي تحل محلي في رعاية والدنا. لا زاد من الصبر معي، ولا رغبة إنسانية تُساندني، ومع أول ضوء تركته يئن ويهذي وخرجت. كنت أشعر بإرهاق عظيم، لكن اليقين الأعظم كان في فقدان ذلك الدافع الذي يجبر على البقاء. الإنسان يحب ذاته فقط. متعة القدر الكبرى في خلق مفارقة الشماتة والتشفي من تمثيل الإنسان لِلقطة إنسانيته، القدر أرسل لي أحدهم في ممر المستشفى الطويل متقدماً بخطوات كلها إنسانية ووفاء وولاء، مُسرعاً كان نحو غرفة- أيا كان- والده أو والدته، قادماً من سفر ليلعب دور الإنسانية خالصاً: براءة أمام الناس، وتطهر وإنكار أمام الذات. لا يحب الإنسان سوى ذاته: يأتي وحيداً، وأقصى متعته حين تكون متعة خالصة له وحده لا شريك له.

بدأت في مراقبة أخواتي. يوم الوفاة رغم البكاء والعويل كنت أنظر إلى هناك، إلى مخزن الأسرار. الحزن أكيد ولاشك، ولكن رغم الحزن فهناك شيء ما، شيء يحوم ولا يستقر: خليط من خجل وندم وهمسة تبرير عقلانية خافتة لأقصى حد: عن كونه قد ارتاح من الألم؟ أم المكاسب الأكيدة؟ لا عودة للنوم المتقطع في بلاط المستشفى، بل فراش البيت المريح، لا نوم متقطع بل ذلك النوم الطويل الممتد. مألوف الحياة المضمون رغم رتابته! ثم ما أن يعتدل المزاج والجميع بمنجاة على شاطئ النجاة حتى تتدفق الإنسانية. ينفتح موضوع ذكرى المرحوم: يحكي كل ذكرى حسنة وجياشة بالعواطف عن أسمى قيم المرحوم! يا للكائن المحارب: عواطف لحظات النجاة. كلام حسن عن الوالد الصالح وأفضاله وأفعاله ومن كان ينفق عليهم ولم يكن أحد قط يعرف، بل ظهروا فجأة ساعة البكاء وساعة الدفن؟ وهل يتمدد الإنسان سوى بالكلام؟ ما أعذب الكلام وقت اعتدال المزاج؟. كلام. وهل يعيش الإنسان بطاقة غير سحر الكلام إما نطقاً أو استماعاً؟

قالت إنها تريد أن تتحدث مع أهلنا فناولتها الموبايل بعد أن فتحت لها الخط. أخذت تتحدث بحماس مع أخواتها، وتسألهم عن والدتنا والتي جعلها الزهايمر مُقيمةً على عدم التمييز، وقالت بإثارة: نحن محبوسين اليوم لأن المحاكمة تجعل الخروج للشوارع خطير.

ضحكت على صورة لابن محمد مرسي وهو يلوح بإصبعه مهدداً بالشكوى للمحكمة الجنائية الدولية، عن اختطاف والده! وضحكت حينما سمعت تصريح ابن خيرت الشاطر عما يمتلكونه من وثائق تهدد الإدارة الأمريكية بكاملها وحتى أوباما! وتخيلت مدى دهشة القتلة المحترفين في قمة الإدارة الأمريكية! الأمريكان يقتلون من يتعامل معهم بإخلاص في اللحظة التي يُكمل فيها تنفيذ كل ما أرادوا! يقتلونه وهم في قمة الرضا عنه، أو في لحظة رفضه لبعض ما أرادوا! عادتهم لا يكفون عنها، فكيف بمن يهددهم بإفشاء أسرار مشتركة؟

سألتني بِملل: الم تمل سماع كلام السياسة؟ فتناولت الريموت. ضحكت مرة أخرى فسألتني عن سبب ضحكي، فقلت لها: سياسة برضو.. بس.. صدفة! كانت قناة تعرض فيلما أمريكياً لإستيفان سيغال: عن جماعة إرهابية تمردت على الإدارة الأمريكية واختطفت سفينة بها أسلحة نووية. في إحدى لقطات الفيلم يجتمع كبار المسئولين ليستمعوا لممثل المخابرات الأمريكية ليخبرهم عمن هو الذي قاد عملية اختطاف السفينة. فيعترف بأنه أحد رجال مجموعات الاغتيال الخاصة التي تدربها المخابرات لتنفيذ عمليات وبدون أي ضوابط أخلاقية أو قانونية مع الإنكار التام لأي صِلة بينهم وبين الإدارة الأمريكية ومؤسساتها! وهذه المجموعات، أو هؤلاء الأشخاص، لا وجود لهم من الناحية الرسمية، إنهم أشباح! قالت لي: لو ممكن تحول إلى قناة سودانية؟ حولت إلى قناة سودانية ثم مددت لها الريموت ووضعت إصبعها على زر وقلت

لها أن تضغط عليه للتغيير. قمت واتجهت إلى غرفة النوم وتمددت على السرير، أغمضت عيني، وأخذت أستمع. وأحسست بالظلام يبسط سيطرته علي عيني وتذكرت حماسها قبل مقابلة الطبيب وأملها البسيط في معالجة تُبدد العتمة وتُبعد الظلام الشامل حتى ولو لفترة محدودة. في الظلام الخافت رأيت مقاعد العيادة، وملامح المرضى والسودانيين. انشغلت بحديث الطبيب فلم أسألها عما تحدثوا فيه، وصمتت هي! هل هي من أخبرتها عن الطبيب الذي يعالج الحالات الصعبة؟ وبدأت أبحث في ملفات دماغي عن السيدة المُنقبة وعن ذلك الرجل الثاني الذي لم يكف عن إرسال بريد إلكتروني لعنوان في مركز تنبيهات دماغي. وبدا لي أن نغمة موبايلها ترتفع ولم أكن على حال يسمح لي بالنهوض، وهي تنجح أحيانا في التعرف على زر استقبال المكالمة. المكالمة من إيناس. أخذت أستمع: قالت إنها تتصل للاطمئنان على الصحة والدعاء بالشفاء وإنها لا تهتم أبداً للمال! أنا برضك إنسان وأحس بوجع المرض، وأخوكي ظلمني بس ربنا يشفيكي ويداويكي ويداوي مرضه هو الآخر و...

- مرضه!؟ مرضه أيه؟

- راجل بيطلب بنت ولما تيجي يرفضها!؟ حاجة من اتنين: إما عنده ست مش شايف غيرها، يا إما راجل لا مؤاخذة! اطلعي من الحبس ده، اطلعي شمي هواء واتكلمي مع الناس، في ست من بلدكم، أيوه قريبة منك.

رأيت رقم العمارة المقابلة ورقم الشقة، وكنت قد رأيتها عدة مرات، تجلس في البلكونة حينما يأتي المساء وتظل لوقت معلوم ثم تدخل. هل كانت شقتها هي الشقة القريبة التي ستأخذني إليها إيناس مع البنت؟ كاميرات التصوير وأجهزة الالتقاط والرصد! أحسست بانقباض

وتناولت المخدة وضغطت بها على رأسي. رأيت اللاب- توب ودق قلبي بعنف إذ رأيت أرقام المرور السرية تمر واضحة أمام عيني!؟، كيف تسربت الشفرة السرية التي تسمح بالمرور، والإطلاع، ونقل ملفاتي السرية؟ حاولت أن أنهض لكن جسدي فقد القدرة واجتاحني ثقل شامل وحاولت مرة أخرى دون جدوى، وحاولت أن أفتح فمي وأوراق الملفات تتطاير من جهازي المحمول إلى جهاز آخر! جهاز من؟ وكيف استطاع الوصول؟

ملاحظات عن المزاج الجنسي في الخرطوم خلال الأعوام ١٩٩٠- ٢٠١٠:

ملاحظة (١)

ضِمن مُخططاتها لاستمرار سيادتها العالمية ولمواصلة استغلال الدول الضعيفة تشن أمريكا وإسرائيل الحرب على الدول الأخرى بدون توقف. الجيل الرابع من الحروب يتضمن تهييج الغريزة الجنسية، مع تهييج التعصب الديني والأثني. هذه الشعوب تعاني من الأمية ولهذا تسهل السيطرة عليها بخلق أجواء تضر بها ذواتها. خلق الفوضى الجنسية، مع خلق أجواء التعصب الديني الذي يحرم الجنس ويمنعه. ينتج عن هذا التناقض شخصيات مهووسة عصابياً ومُهيأة لارتكاب أفظع الأفعال- جنوناً- جهلاً بالذات وحرمانا بدائياً.

ملاحظة (٢)

المزاج الجنسي رد فعل لموجات متتالية من الدعاية الاستهلاكية المدروسة بتخطيط متقن. الشعوب التي تهدف إسرائيل وأمريكا للقضاء عليها لا تمتلك وعي علمي يمكنها من مواجهة مثل هذا التخطيط.

الجيل الرابع من الحروب يتضمن خلق مزاج جنسي يقود إلى أن تدمر الشعوب ذاتها بأفعالها وبدون أن تعي وبدون وعي للتناقض وللحرمان الذي يشكلها. تسير الشعوب وكأنها مسحورة إلى عوالم: البيتزا، والبيرغر، والهامبيرغر، الهوت- دوغ، والساندويتش على الطريقة الأمريكية والقضمة الأمريكية والمضغة الأمريكية. المزاج الجنسي كامن وظاهر في تدفق الموضة: في الملابس قبل المُمارسة الجسدية، في ما تنطق به الشفاه قبل أن تلتقي. المزاج الجنسي كامن وظاهر في الصيدليات والكوافير، وفي عيادات الإجهاض السرية والسرية جداً. في وكالات السفر والسياحة وفي البحث عن حلم العمر بالخروج من جحيم هنا إلى نعيم هناك!؟

ملاحظة (٣)

انتهى دور الأب القائد الذي يتمتع بالمهابة المحيط عِلماً بكل شيء. لم يكن التليفزيون يوجد في أي بيت. فقط لدى الأسر المرتاحة، أو المتوسطة، وكذلك التليفون. وكان الأب يغلق التليفون- الهاتف- بالقفل. أما الآن فلا يستطيع الأب أن يفك شفرة جهاز ابنته ليعرف مع من تتكلم، ومحتوى الكلام. هذا إذا كانت التليفونات الآن كلاما فقط!؟ التليفونات الآن مزاج مُتخيل كامل يبدأ باثنين إلى مجموعة كاملة، والصور مع التعليقات تعبر عن مزاج عام ومستمر ومتجدد.. ما بين الصديقات بعضهن البعض وبين أصدقائهم من الذكور.

انتهى نموذج الأم التي تراقب وتضبط وتوجه. الأمهات انتبهن إلى أن لهن نصيباً وأن لديهن متأخرات لم يحصلن عليها. تلك المُتأخرات أثناء الخدمة الطويلة كخادمة للزوج تحت مُسمى (ربة البيت وأم الولدِ) مُتأخرات ما بين حق طبيعي في الحياة الجنسية لم يكتمل،

بل وربما لم يتحقق أبداً على مدى عقود، ومُتأخرات تحمل الازدراء كنوع من المزاج الجنسي المنحرف أو غير الطبيعي. فكثرة العنف وتِكراره يُنتج حالة خنوع وتقبل للخضوع كوضع لا مفر منه.

لكن خلال التسعينات والأعوام ألفين وحتى ألفين وعشرة، ظهر جلياً تغير المزاج الجنسي. غالبية الأمهات في الفئة العمرية: أربعين إلى خمسين، لهن مزاج جنسي يرتبط بتحقيق الذات. أصبح لديهن جرأة على خوض التجربة المحرمة. الغالبية العظمى من النساء المتزوجات يؤكدن حرصهن على المحافظة على الأسرة والأولاد وأبو العيال، ولكن في نفس الوقت ينتزعن حقهن في التمتع بصحبة الصديق. الغالبية العظمى من النساء المتزوجات لديهن علاقات مع رجال، وتتراوح العلاقة ما بين المعرفة والاستلطاف، مروراً بالممارسة الجنسية كحدث عادي مُكمل وليس حدثاً مُقدسا تراق له الدماء. قمة العلاقة هي الارتياح للرجل الثاني الذي يمنح ما لا يمنحه أبو العيال من إصغاء حنون، وما يدلقه عليهن من اهتمام مما لا يوفره أبو العيال الذي يدلق حنانه عند زوجة رجل آخر. تسود فوضى جنسية ووجدانية مثل أمواج طوفان غاضب يتدفق مُكتسحا كل شيء، والجميع بلا استثناء تتلاعب به الأمواج الطوفان. وفي نفس الوقت ستجد أنهن يؤكدن على كامل محبتهن لأبو العيال وحرصهن الشديد على لم شمل أسرتهن.

هببت على يد أختي تهزني بقوة، جلست على السرير الكبير وقالت لي بغضب: طبعاً رجعت تبلع الحبوب المهدئة والمنومة، ساعة وأنا أنادي وأضربك في أقدامك وأنت ميت مش نائم! وسألتها بصعوبة عن

الوقت، فقالت لي إنني نمت كثيراً لأن المغرب يؤذن الآن، لكن الأهم أننا سنخرج بسرعة. فقلت: إلى أين؟ لا خروج اليوم. قالت: بلاش خوف، المحاكمة تأجلت، والحياة عادية، ناس المعمل اتصلوا وقالوا ممكن نستلم النتائج .

– ممكن الصباح.

– أنا خلاص زهجت من البيت، عايزة أمشي في الشارع، أنسى همومي شوية!

خرجنا، ولما تقدمنا في الشارع الذي اعتدنا أن نمشى فيه في الأيام الماضية قالت لي: نغير الشارع فقلت: هل سنجد تاكسي بسهولة؟ رغم أن يدي في يدها إلا أنها كانت تمضي في اتجاه الشارع الآخر. كررت السؤال عن إمكانية العثور على تاكسي، فقالت إن إيناس أكدت لها أننا سنجد تاكسي تحت الكافيه في العمارة التي بها الست السودانية! قلت:

– متى قالت إيناس هذا الكلام؟

– لما كنت نائم، وسألت عن صحتي وحكت لي عن سودانية في العمارة اللي خلفنا وقالت لي إنها تتعالج..

ساد الصمت. ووجد سائق التاكسي فرصته ليعيد حكاية كل مشاهد الصباح. لكن كان كل منا في عالم لوحده. لماذا اتصلت إيناس؟ لم يكن ذلك حلماً. لماذا نتصل بالسيدة السودانية؟ نصيحة أم تهديد؟

قلت لسائق التاكسي أن ينتظرنا، فقالت بسرعة إنها ستنتظر في التاكسي ولن تصعد معي للمعمل. انتابني مزيج دهشة وغضب! قلت لها: لنعود ونأتي غداً! قالت بغضب: بطل خوف وأوهام واكسب الزمن! فتحت باب التاكسي الخلفي وقلت لها أن تنزل. مستحيل أن اتركها لوحدها وحيدة مع سائق التاكسي.

تسلمت التقرير الطبي في صمت ووضعته بين يديها قائلاً:

- سلامة وكرامة، ما فيش أي حاجة مخيفة.

كنت منتبهاً تماماً إلى سائق التاكسي وهو يقود ببطء شديد رغم أن الشوارع لم تكن مزدحمة، ولأكثر من مرة توقفت بمحاذاته تماماً سيارة تطلب وصفاً أو تحديداً لشارع. حينما أوقفنا أمام العمارة التي بها الست السودانية التي تعالج قلت له:

- أنت تعرف أين نسكن؟ هل تريد أن تصعد معنا؟

- أيه!؟ بتقول أيه حضرتك؟

في شقتنا جلسنا صامتين. حينما لا يعود أمامك سوى الصمت، ما الذي يمكن أن أقدمه لها؟ لقد انتهى كل شيء، وانتهى توقيت كل شيء. أقسى ما يواجهه إنسان هو اختيار التوقيت الخاطئ لمحاولة بداية جديدة يعوض فيها كل ما فاته، وكل ما افتقده.

- ولكن ما الحل؟ ماذا تُريدين بالضبط؟

- سأبقى هنا في القاهرة! هناك دار للمكفوفين في جسر السويس، وأخرى قرب ميدان المحكمة. سأستقر هنا! قالوا يقدمون للكفيف سرير، ويعيشون مع بعضهم البعض. أريد أن أعيش مع ناس، لا يمكن أن أعود إلى البيت وأبقى أياماً لا أتبادل فيها حديثاً مع أحد.

دهشت إذ لم أستطع تحديد مصدر معلوماتها عن دور المكفوفين. كانت كل تحركاتها معي ولم أسمعها أبداً تتحدث مع أحد عن المكفوفين. نظرت إليها ودموعها تسيل وأضحى صعباً توجيه سؤال في مثل هذه اللحظة.

جهزت لها الطعام وناولتها الحبوب، وأخذنا نستمع لأخبار السودان. قامت للصلاة ثم عادت وجلست لتقرأ الأوراد. رن الجرس

ففتحت ووجدت مدحت، أخذ ينظر إلي وعلى وجهه تعبير يقول إنه يريد أن يدخل. لم يكن لدي أدنى رغبة في الحديث لكنني أحسست بتحدي في نظراته وكأنه ممسك بمذلة ما تجعلني أخضع لرغباته، كرهته لكن فكرت في أنه سيشغل أختي لبعض الوقت. جلس على كرسي في الصالة وقال لأختي إن الله سيقدر صبرها وسيجازيها خيراً. اكتفيت بالصمت ومتابعة الحديث حتى جاءت اللحظة التي أخرج فيها موبايلا حديثا:

- أولادي يا باشا... الولد والبنت.

نظرت لصور الأطفال فقام من مقعده وجاء بقربي موضحاً أكثر. أخرجت عشرين جنيها وناولتها له في صمت. كنت أتوقع أن ينهض وينصرف لكنه مد ساقه وأخرج علبة سجائر أجنبية وأشعل سيجارة فهببت واقفاً وأنا أقول له:

- الدخان يتعب أختي.

ولم يتركني أكمل جملتي، مد يده نحو طفاية السجائر وهو يردد كلمات الأسف. أختي من جانبها قالت لي بنبرة ملامة:

- الدخان مزاج، وهو ضيف.. خليهو يأخذ راحتو.

- تسلمي يا حاجة، بس بعد إذنك حاخذ راحتي مع البيه في الغرفة، ندخن ونتكلم.

ونهض واقفاً وتقدمني بخطوات واثقة في الممر نحو غرفة النوم. جلس على السرير وأعاد إشعال السيجارة التي أطفئها في الصالة ونظر إلي في عيني وقال:

- مالك يا باشا؟ البنت عمرها عشرين سنة وجسمها زي الرقاصة والله، والمطرح مضمون وعملت لك تخفيض ١٠٠ جنيه! أيه بقى اللي معطلك؟

حينما أوصلت مدحت إلى باب الشقة أصر أن يمسك بيدي وهو يقسم بالله أن كل شيء في السر، ووجدت نفسي في نفس النقطة، على مسافة ثلاثة خطوات من باب شقتي وعلى مقربة من باب المصعد ومسافة مظلمة دوماً من جهة السلم. وقبل أن أقول له تصبح على خير، انفتح باب الشقة المواجه للشقة التي نسكن فيها أنا وأختي ورأيت رجلا يقف أمام الباب دون أن يتحرك. كان نسخة مني. لم يكن هناك أي فرق في الطول أو الحجم أو حتى الملابس. ظل ينظر إلي وظللت أنظر إليه مثلما أنظر لذاتي في المرآة ، ولم أدر أين اختفى مدحت في غمرة دهشتي تلك.

ملاحظات عن المزاج الجنسي في الخرطوم خلال الأعوام ١٩٩٠- ٢٠١٠:

ملاحظة (٤)

هذه الملاحظات تقوم على فكرة استبعاد العامل الرئيسي في ممارسة بيع الجسد، وهو العامل المادي. لا تلغي هذا العامل لكنها تنظر في عوامل أخرى.

ملاحظة (٥)

ظاهرة الطوفان الجنسي الغريزي البدائي تتزايد بمعدل يومي حتى تكاد أن تصبح محور حياة الناس اليومي. المزاج الجنسي يتحول من مزاج متعلق بالجنس إلى نمط حياة وأسلوب لمواجهة الحياة والى أداة للتعبير عن الذات ولتحقيق الذات.

ملاحظة (٦)

المُطلقات.. الانفصال النفسي أم الطلاق بالورقة الشرعية؟

الصحف في الخرطوم:

ظاهرة ارتفاع نسبة الطلاق... أسباب أخرى..

ملاحظة:

الظروف الاقتصادية الصعبة. لكن الملاحظ أن الطلاق أصبح يقع بعد زواج متفق عليه وقصة حب بين اثنين يكون قمة أملهما أن يجمعهما منزل. أي أن العامل الاقتصادي معلوم ومن ضمن ما تم نقاشه بينهما. ما العوامل الأخرى التي تجعل الطلاق الذي كان حدثاً جللاً يحدث بكل هذه البساطة؟ وبكل هذا اليأس من فرصة استمرارية المعيشة المشتركة؟

المطلقات لهن دافع خاص بهن، وهو البحث عن الانتقام. الانتقام من الذات ضمن حالة النقيضين والتي عليها الأنثى دوماً طبع وجينة، الأنثى طبعاً على النقيضين دوماً عاكفة، لا تدين نفسها علانية ولا تقبل بأي تقويم عقلاني للحادث الشخصي.

السودانيات من الخرطوم، سيما من الأسر التقليدية، لا يستطعن التصريح الصريح بفشلهن الجنسي في الفراش. هذه كانت حالة نازك، وهى شابة جامعية من أسرة تقليدية شعارها السُترة. كان هناك إعلان بل اتفاق جماعي واجتماعي: نازك جميلة جداً وبالتالي سيكون زوجها مميزاً. من اختار نازك، كان هو الآخر رجلاً وسيماً وذو حسب ومال. وحينما شاهدها عرف أنها محافظة ولا وصول إليها إلا بالزواج، فخطبها رغبة في الامتلاك أولاً ثم فرض السيطرة لاحقاً. وافقت وِفق حيلة القسمة والنصيب المكتوب. وسرعان ما ظهر أن الرجل كان صاحب تجارب في عالم الجنس بكافة أنواعه، لم يكن أسيراً لتابوهات مقدسة تمنعه عن لذة الجنس خالصة، ولم يكن في مقدور نازك مُجاراته، وكادت أعصابها أن تنهار وهى تستميت في البحث عن

موازنة، ومنها تحمل فضيحة طلب طلاق سريع! تأزم وضعها نتاج حمل سريع، وجاء طفلهما. هل تترك المنزل إلى منزل أبوها بحجة سهر الزوج الكثير وإفراطه في الشرب؟ ستعيدها الوصفة التقليدية المتداولة منذ ما قبل ميلادهما معاً: لا تخربي بيتك! هذا هو حال الرجال، ومصيره إلى الإصلاح وسيصبح عاقلاً! عليك واجب تقويمه وإصلاحه! انهارت أعصابها تماماً ليلة حديثه معها عن ممارسة الجنس الجماعي مع أعز أصدقائه وزوجته، تبادل الزوجات في ليلة واحدة. تلك كانت هي الليلة التي حملت فيها حقيبتها وخرجت من المنزل رغم كلامه الواضح عن أن خروجها سيعنى عدم رجوعها، وأن أي محاولة منها للزواج ستعني انتزاع الطفل منها. زوجة صديق زوجها العزيز سعت للصلح بينهما، كانت تحاول التقرب منها. وأخيراً:

– انتي معقدة! النفوس لو أحبت بعضها البعض واستلطفت بعضها ممكن الفراش يسعنا كلنا، الفراش ما لاثنين بس! كيف ترفضي حاجة وانتي لم تجربيها؟

صفاء طلقت زوجها في الخليج وعادت للخرطوم. قالت إن كل شيء هناك متوفر، الرجال متوفرين ولكن كل شيء مصنوع! الرجل حينما يكون على قلق دائم وتوتر وخائف لا يصلح للأنثى. قالت: حتى وأنا تحته أحس بأن شيء ثالث راكب فوقنا، يقذف كما يقذف متسلل لبيت صديقته، ولم يحدث أن سعى لنقذف معاً. قلق من أن يُقذف به خارج عمله، الخوف والقلق والتوتر! المرتب والإقامة والخوف من فقدانهما، ولا يعود هناك طعم سوى طعم الترقب والانتظار. لم يعد يهمني صحوه المبكر ولا مجيئه المتأخر خاصة بعد أن أضاف إليهما نيشان تضحيته: كل تعبي لكم.. انتي شريكتي. إنسان قديم، قديم شديد. وأمه وأخواته احتلوا دواخله وأعلامهم ترفرف لا تكف ثانية. والله

مرات أحس أن من فوقى هن أخواته وأشوف وجوههن في وجهه. مالهم الرجال؟ ما قدرت! وكان لازم أعيش حياتي. الحياة فيها الجديد، والخطر متعة الحياة، وضروري ضروري الإثارة. ممكن رنة تليفون تكون جواك يوم كامل، أما لو كان زولك وزول ظريف وبيعرف يجيبك بمزاج.. فده الكلام!

آيات أكدت أن سبب طلاقها أنه لم يكن هناك شيء ناقص، وأن زوجها أطيب مخلوق في الدنيا، لكنها كرهت هذه الطيبة الزائدة، وقالت إنها تعلم يقيناً أن المشكلة مشكلتها، ومنذ وقت مبكر تحب أن تكون دائماً في قلب المشاكل. صادقت الميكانيكي الذي أصلح لها سيارتها، ثم صادقت صديقا لزوجها. وأقسمت أنها حاولت أن تنبهه لكنه أخذ يزيد لها تأزمها بمزيد من حالة الصواب التي يعيش عليها. قالت إن الملل الرهيب الذي سببه لها زوجها كاد أن يسبب لها الذبحة الصدرية، لا شيء يقتل الأنثى مثل رجل منظم ممل، لاشيء أعفن رائحة من زواج يستميت فيه الزوج ليرضي زوجته في كل لمحة ورمشة عين.



(٥)

صعدنا السلالم بالصعوبة المعتادة. وقلت للممرض أن يُدخل نتيجة التحاليل للدكتورة. وحال ما جلسنا في نفس الكنبة التي جلسنا عليها يوم المقابلة الأولى جاء أبي وجلس، لكن تركيزي كان مع الرجل المصري الذي كان يجلس مواجهاً لنا يوم مقابلة الدكتورة، وقلت لها إنه لم ير السودان، فصمتت للحظة ثم سألتني:

- والمرأة اللي معه؟

أختي بدأت تدخل في مزاج آخر مُخالف لتهديدها بأنها لن تعود وستبقى في مصر، أخذت تتحدث عن الأشياء التي طلبها منها ناس البيت، والأشياء التي تُريد أن تشتريها لهم. قلت لها لا مانع ولكن أتوقع زيادة كبيرة في أسعار الدواء بسبب سعر الدولار، وأكيد أنك ستحتاجين لكمية من أدوية الضغط والسكر.

عندما دخلنا على الدكتورة أخذت تنظر إليها بتركيز شديد، ورأيتها تكتب في أعلى الورقة بقلم الرصاص شيئاً، ثم قالت لي وهي تنهض: ساعدني. فقمت وأمسكت بيد أختي، أشارت لي إشارة خفية لورقة على سطح المكتب، وتوقفت أمام الستارة التي خلفها يتم الكشف الطبي.

تقدمت الدكتورة، وعدت خطوتين للخلف واستدرت ونظرت للطاولة وتناولت الورقة التي وجدت بها رقم هاتف وسطر واحد: دائماً بعد العاشرة مساء وقبل الثانية عشر.

- نتائج كويسة في السكر اللي متزبط ع الآخر، ومافيش دلالات أورام، بس الضغط بيتمرد على العلاج ، لكن في حاجة مش مرتاحة لها!

والتفتت إلي وكأنها ترسل رسالة :

- الضغط بيرتفع برغم إني زودت جرعة الدواء. مين بقى اللي مزعلها للدرجة دي؟

أعادت الدكتورة قياس الضغط عدة مرات في أوضاع مختلفة، ثم أعلنت حالما جلست على مقعدها أن هناك زيادة في ضربات القلب وأنها مُضطرة لكتابة حبوب إضافية (ما كنتش أحب أكتبها) لتنظيم ضربات القلب، ثم بتأكيد:

- الأقراص دي لمدة ثلاثة أسابيع، ضروري جداً أشوفك بعدها .

سارعت أقول:

- لا يمكن.. ولا حتى أسبوع!

قالت أختي بلهجة تخفف بها:

- يا دكتورة ليس معنا ما يكفي للبقاء ثلاثة أسابيع، السكن غالى وبلدكم كلها غالية.

- أيوه صحيح! بس انتم جئتم للعلاج ونحن في بداية العلاج ولازم نشوف نتائج الأدوية اللي حتدخل الجسم واستجابته لها. يعنى لازم أشوفك تاني، بعد أسبوعين مثلاً.. اطلبوا فلوس من أهلكم في الخرطوم، أو السعودية..! مش مشكلة كبيرة يعنى.

في كل خطوة نخطوها الأسعار تزيد بمعدل خطوتين. أقسى لحظة في حياة رهينة الدولار هي لحظة صرفه، حين يُصرف الدولار تتحول دقائق وساعات وأياماً وشهور من الصبر والسهر والتحمل والحديث الداخلي الذي لا ينقطع أبداً، يتحول في لحظة من يد الرهينة إلى يد الصراف عبر حائط زجاجي، وتتحول أيام الحياة إلى أوراق يتم حسابها والعين تنظر. لحظة فيها الامتلاك والحيازة وفقدان الامتلاك والحيازة. دخلنا صرافة لتحويل الدولار إلى فلوس مصرية. ضربنا ارتفاع الأسعار في سوق الدواء بعنف. لاحظت أن أرفف الصيدليات ليست كمثل السنوات التي جئنا فيها. صيدليات كثيرة لكن أرففها شبه خاوية من الأدوية، أو أدوية بأسعار لا يستطيع إلا من هو قادر الاقتراب منها. علبة الدواء الألماني بمائة وتسعين جنيه، والدواء المحلى بسعر أقل بكثير. وقلت لها أن تشترى من الدواء المستورد الغالي.

- لا، ليه التبذير ده؟ كلها أدوية!

لو حاولت أن أتحدث معها بوضوح فستردد كلامها عن جنوني! فقلت:

- المثل يقول: اشترى الغالي تتذوق حلاوته، واشترى الرخيص تتذوق المغص! صدقيني الشفاء في الدواء الأجنبي الغالي.

كنت قد اكتشفت منذ زمن بعيد أن الخواجات يحتفظون بالدواء الفعال لخاصتهم وللأثرياء جداً من الشعوب الأخرى والذين يصلون إليهم. وكنت قد شاهدت فيلماً يكشف كيف تتلاعب شركات تصنيع الأدوية بالتركيبات الدوائية، فيسمحون لشركات– أي كلام– بتصنيع تركيبة دوائية بمقاييس كيميائية أقل جودة، أو بزيادة مادة بعينها، أو تقليل تركيز مادة، بحسب مواصفاتهم للإنسان الذي سيصدرون له الدواء

ليربحون فقط. وزاد قناعتي بأفعالهم فيلم هاريسون فورد وتومي لي جونز(الهارب) والذي يكشف عن تحالف الفساد ما بين الأطباء الكبار وعالم شركات الأدوية العالمية العملاقة، وكيف أنهم لا يترددون في سبيل الربح، في الخداع في الأمانة العلمية عبثاً بأرواح البشر، بل يمارسون الجريمة المنظمة بتدبير محكم. واضطررنا للعودة مرة أخرى لصرف الدولار. اشترت مع الأدوية كميات من زيت للشعر وكريمات للوجه. وسألت الصيدلي عن المعينات البصرية فقال إنها توجد في أماكن بيع النظارات والعدسات الطبية.

من الصيدلية إلى محل ملابس. وقفت مُرتبكة للحظات. وازداد ارتباكها وهى تبحث عن التصرف الملائم! ابتعادي عنها؟ ربما! خطوت خطوة واحدة مُبتعداً عنها! لكنها استجمعت كل ما لديها، وهمست للبائع قائلة: إنها تريد بيجاما.

المصري لم يكن رجل سترة بحسب خيالها، فأعلن بالصوت المصري المشهور أنهم لا يبيعون بيجامات ولكنهم يبيعون إستريتش للبيت، وممكن يكون برضك بيجاما يا حاجة.. هو مش للبيت برضو؟

قالت بخجل:

– أختي قالت إنها تريد واحدة، وبنت أختي تريد واحدة، أنا لا ألبس الحاجات دي! أنا الحمد لله زُرت بيت الله، ممكن تقول لي الألوان اللي عندك؟ لأنهم طالبين أسود ورمادي وبني داكن وبس! ما عايزين أي ألوان أخرى!

– أهو قدامك، اختاري اللي انتي نفسك فيه؟

– نفسي أشوف الألوان تاني. أنا عمياء.. لا أرى.

ثمة طقس مقدس ملازم للملابس الداخلية خاصتهن. ذلك التوتر الخفي المُصاحب لحالة الطوارئ أو إعلان حظر التجوال، يقع موقع السروال الأنثوي أو السوتيان في المخيلة وكأنما لحظة الشراء تلازم لحظة ارتدائه أو خلعه، ولحظتها تقوم القيامة السرية.

قلت لها ونحن نمشى على مهل:

- محل فخم لشيء تُحبينهُ.

- آيس كريم!

- كيف عرفتي؟ ذاكرتك قوية جداً؟ لأننا مررنا في نفس الشارع في العام الماضي؟

- تاني بقول لك: ربنا لا يظلم عبيده، وشال منى نعمة البصر وعوضني بنعمة الشم والسمع. رائحة الآيس كريم، رهيبة ولازم أتذوقه.

- لكن السكر..!؟

- لا تخاف، أخذت حبة السكر الصباح، وانت لازم تذوق الآيس كريم! انت لا تأكل أبداً بس تشرب شاي كثير.

جلسنا وجاء الجرسون وناولنا قائمة الأصناف، لكنني أشرت إليه بأنها لا ترى. وطلبت منه أن يعدد لنا الأصناف لتسمعها منه وتختار. أخذ- على مضض- يعدد في الأصناف. واختارت الفانيلا والشوكولاتة في قالب من ورق البسكوت الملفوف، وأخذت تلعق في الطرف المدبب للآيس كريم وتتحدث عن أيام الفقر في طفولتنا. وضحكت وهى تذكرني بأول يوم دخلت فيه البيت ثلاجة صغيرة، وكنت أضع خليط اللبن والسكر في كوب بلاستيكي صغير وأظل واقفاً أمام باب الثلاجة لأوقات طويلة في انتظار تحول الحليب إلى آيس كريم، ثم فجأة قالت لي بصوت جاد:

- انت حصل لك شيء ليلة أمس!؟ كنت نائمة، لكنني أحسست، أو تهيأ لي بين حلم ويقظة إنني أسمع أصوات، ما قدرت ارفع رأسي وأظنني ناديت عليك! هل سمعتني ليلة أمس أنادي عليك؟

أنقذني الموبايل من الإجابة، تناولت حقيبة يدها وناولتها الهاتف قائلاً: إنهم ناس البيت.

صوتها فيه حماس كبير:

- لا لا ما عيب! أنا حرة.. آكل آيس كريم في الشارع. انتم فاكرين ان الناس مشغولة بالناس زيكم وكل زول يعاين للتاني!؟ لا، هنا كل زول في حاله.

واستمعت لفترة ثم قالت:

- أحاول أقنعه إننا نمشى ندعو لها في الحسين والسيدة نفيسة. أيوه ما نسيت البن سأشتري كل شيء، بس أقابل دكتور عيون تاني، الدكتور الأول كل حاجة اتلخبطت في رأسه.

أشارت لي بأن أتحدث فنهضت مُبتعداً عدة خطوات. ثم سمعتها تنادي فعُدت وسألتها عن أمي كي لا أبدو فظاً، فردت بصوت حانق:

- مُستكثر تسمعها صوتك، والا مُستكثر انك تسمع صوتها؟

لم أهتم بالرد على تقييمها لحالتي، فمنذ زمن بعيد لم تعد ترعبني التهيؤات عن الذين خرجوا من رحم واحد، المُتشكلين من دم واحد، والذين رضعوا لبن واحد من ثدي واحد. خداع الإنسان لِذاته يكتمل في لِذة تواطئه مع ذاته بأن أعذب أوهامه هي مطلق صوابه، وأن الآخرين لن يفهمون بالضبط ما هو عليه من مطلق الصواب. أمي عندها مرض الزهايمر وصار صعباً جداً عليها أن تُميز حتى في بعض أحيان من أنجبت وأرضعت. وصارت تمثيلية الاقتراب منها بين فينة وأخرى

محاولة للتطهر الذاتي. ومنذ زمن بعيد مللتُ من عبثية الميل للتطهر مُفضلاً الاستغراق حتى قاع نقيض التطهر، طمعاً في القبض على لحظة النقيض: لماذا تصرفت الذات الإنسانية في تلك اللحظة وِفق تلك الطريقة بالذات؟

وقفنا وقالت بثقة:

– نمشى نشوف المعينات البصرية، وبعدها نسأل عن دكتور العيون.

– بصراحة لا يوجد شيء اسمه المُعينات البصرية، مجرد عدسات قوية لازم لها وجود نظر ورؤية في العيون، انتي..

قاطعتني بصوت لا يوصف:

– خلاص.. نسيتها.. وانسى الدكتور الثاني لأنه لن يَقول إلا ما قاله الأول، ومنذ خمسة سنين، صحيح والله.. بجد كلامك صحيح.

توقف التاكسي ولم أكن على رأي محدد. وسألتها أين نذهب؟

ظلت صامتة. فصاح سائق التاكسي:

– اييه! مش رايحين أي مكان! طب ليه رفعت ايدك؟

– عايزة أقعد في قهوة.

اعتذرت للسائق الغاضب بأن الدكتور المصري أزعجنا بكلامه، فشتم الدكاترة ثم شتم كل شيء وأكد لنا أن كل شيء خلاص راح في ستين داهية.

في العمارة التي سكنا فيها في العام الماضي توجد قهوة كنا نمر بها يومياً، لكن لم نجلس فيها أبداً. نزلنا من التاكسي، وقلت لها إننا في القهوة في العمارة التي سكنا فيها العام الماضي. جلسنا وأحسست بها

مرتاحة أو مبسوطة. وجاء الجرسون وبدأ يردد الكلام المصري وأخذت ترد عليه ثم تسأله.

لم يكن بالمقهى عدد كبير، لكن على قلتهم أخذوا يختلسون النظر إلينا، البعض كان ينظر بتعاطف، والبعض كان يريد أن يقول شيئاً! وسألتني عن صوت الشيشة وهى تكركر، ثم اكتملت إثارتها حين سمعت شتيمة بذيئة تم تبادلها بين اثنين وأخذت تضحك بشدة وتردد الكلمة. في دواخل الإنسان ميل طبيعي مخفي للتخفف وترديد ما لا يقال، بِمُتعة واستمتاع في لحظة بعينها، حتى ولو مرة واحدة، لِحظة واحدة يتعاطى فيها اللسان خرق السائد المتفق عليه وينتمي ولو بجملة واحدة، بل بكلمة واحدة إلى فئة ما.. ظلت دائِماً مُدانة.

تذكرت ما قاله عن عميق استمتاعه بالكلام من أفواههن أكثر من فعل الإيلاج. قال إنهن ينطقن الكلام الجنسي بمتعة تفوق كل شيء. وحكى عن طقس معين لابد منه: قال إنه يصر على الأنثى أن تمسك بذكره أولاً ثم يهمس في إذنها:

- ده اسمه شنو؟

- انت عارف اسمه.

- عايز اسمع اسمه منك! قولي انتِ اسمه شنو؟

- اسمه ذكر.

- بيعملوا به شنو؟

- بيضاجعوا به .

- أين؟

- في... أمك! يا أخي ما تخلص ، ورانا أشغال! أيه الفراغ ده؟

نهضت وأخرجت الفلوس، فأقسم صاحب القهوة بأن لا أدفع، وبدأت أحلف وأقسم. ووقف المصريون وبالصوت العالي المعروف عنهم يُقسمون، وقلت له إننا كنا هنا في العام الماضي، فقال إنه يعرف وإنه لن يرتاح إذا اخذ مننا ثمن الضيافة وخاصة أن الحاجة تعبانة. واستمر يدعو لها.

تقدمنا في الشارع ببطء، ألقينا بالسلام على بائع الفاكهة، وسألته إن كان يذكرنا فرد بالإيجاب وسلم علينا وأخذ يدعو لها ويسأل عن العملية. سألته عن صاحب السوبر ماركت فقال إنه انتقل إلى تجارة أخرى. أصرت أن تشترى فاكهة وقلت لها همساً إنني من سيحمل وليس انتي. فضربتني بهدوء في يدي، وفهمت أنها تمارس ما تسميه الصدقة الخفية. اشترت جوافة وبرتقال وعنب، وقالت لبائع الفاكهة أن يدعو لها. تقدمنا في الشارع الذي كنا نمشي فيه يومياً في طريقنا للعيادة، أو لمعمل التحاليل، أو للعثور على تاكسي في الشارع الرئيسي. وقلت لها إن الشارع لم يتغير كثيراً لكن الجدران عليها شتائم سياسية كثيرة جداً. وصمت عن أكوام، بل جبال الزبالة.

فاحت رائحة اللحم المتبل والخل فقالت:

- شاورما..؟ دجاج؟ ولا لحم؟

- جعانة؟

- بصراحة نفسي في حاجة! لكن مش الشاورما، نفسي في الفول! تتذكر عربية الفول اللي كنا بنشوفها في المسلسلات المصرية، لما المصريين كل يوم الصباح بيكونوا واقفين في الشارع وبياكلوا الفول من القدرة وهم يتحدثون، من زمان نفسي في الحاجة دي، وكل مرة

أقول نفسي في حاجة أعملها وما أقدر أعملها، لكن المرة دي لازم أعملها.

لم نكن بعد قد خرجنا من الشارع الذي كنا قد سكنا فيه. ومنذ العام الماضي شغل بصري وخيالي قصر قديم مهجور، مبنى على طراز هندسة الخمسينات في القرن الماضي وكان مطلي بلون اصفر، لكن الطلاء باهت إلى حد الزوال بفعل تعاقب الأيام والسنين وبفعل هجرة أصحابه. أصحابه– لاشك – من المصريين المهاجرين، وكانوا– بدون شك– من سادة مصر في ذلك التاريخ الذي كانت فيه منطقة روكسي منطقة لأصحاب النفوذ. وتذكرت أن اسم الشارع هو: غربال شفيق، وتذكرت عربة الفول التي تقف أمام ذلك القصر المهجور!

وقفنا أمام عربة الفول: حولها ناس تشترى وآخرين جالسين ينظرون ويتحدثون وناس أخرى عابرة تلقي بالسلام. رحب بنا البائع بحفاوة مؤكداً أننا أكثر من حبايب، وتحت أمركم. وانبسطت من ذلك المصري إذ تدفقت جرعة إنسانيته في خلايا أختي بما جعلها أشد انشراحاً. طلب منها أن تختار ما تشاء وأن تقول وهو تحت أمرها. فنطقت كلمة المرور الخاصة بها، وهى أنها لا ترى. لم أر حزناً عفوياً ابن لحظته كحزن ذلك الكهل المصري، غمرني وفاض بي صِدق إنسانيته حتى كِدت أرتدُ مُصدِقاً في الإنسان. وتمهلت يده السريعة التي تنقل الفول بكبشة طويلة من داخل قدر الفول إلى صحن، وردد ببطء:

– الحمد لله يا بنتي، ربنا سيعوضك خيراً كثيراً، وإن شاء الله يرد لك بصرك.

اهتم بضبط مقادير الفول، وكأن لم يبق له إلا أن يُطعمها بيديه. جلسنا على كراسي خشبية من الطراز المصري الذي به نقوش وتفوح

منه رائحة مصر التي كانت. أخذت تتحدث بمزاج رائق عن فول المصريين الذي لا مثيل له في العالم. وكنت أجاريها في الكلام وأفكر في أن أصحاب القصر المهجور هم غالباً في كندا الآن! وقلت لها إن مصر مقسمة إلى طبقات حتى أن بعضهم لا يعرف بعض. قالت إنها تحس بهم كشعب واحد. قلت لها: فعلاً، هناك سر فيهم في كل الأحوال، يمكن لأنهم موجودين من سبعة آلاف سنة؟

– انت مسكين، الوهم حَيدِّخلك العباسية زى ما بيقولوا في أفلامهم.

وضحكنا ونحن نستعيد المشهد المصري الشهير في أفلامهم التي عشنا عليها، حين تظهر عربة المستشفى البيضاء ويهبط منها مجموعة رجال– ممرضين، ذوى بنية قوية ويلقون بملاءة بيضاء على البطل الدرامي الذي يجاهر بما لا يجب أن يقال، ويحملونه بالقوة للمستشفى وهو يهتف بكل ما آمن به صواباً.

كانت اللحظة لها: مُنشغلة بحديث مع المصريين، حتى حانت لحظة أخرى رائعة: صاحب عربة الفول يُقسم أن لا يأخذ ثمن الطعام، وأنا أقسمت بالطلاق إننا لابد أن ندفع! كان انفعال المصري أصيلاً وضحك مصري لا يقل طيبة قائلاً:

– يا زول يا سوداني ده انت بِتتلكك على أم العيال وعايز تخلص منها! حد يحلف طلاق على طبق فول؟ شوف بقى يا سيدي، انت تدفع ثمن الطبق اللي حلفت عليه، وهى ضيفة عندنا، منورين والله، ولازم ترجعوا تاني.

بين لحظة وأخرى كانت تتوقف وتشترى أشياء لناس البيت، وتسرح للحظات ثم تنتبه. وكنت حاول أن استنتج ما يدور في رأسها.

– لازم طبعاً نقابل طبيب العيون التاني.. اليوم لو ممكن.

- اليوم! الأول لابد أن نحجز، ولابد أن نتأكد من مكان العيادة.. العنوان معك؟

أمسكت بيدها لنعبر الشارع الرئيسي، ثم أصبحنا أمام طريقين: الأول يقود إلى الشارع الذي به السينما ويمكن أن نركب التاكسي لنعود للشقة. والشارع الثاني به عمارة كنت قد سكنت فيها قبل أعوام طويلة.

تلازمني- لا فكاك منها- عادة المرور فوق أي أرض مشت فوقها أقدامي ذات مرة، إذا عادت بي الأقدار إلى المكان. وقلت لها إنني أريد أن أرى شيئاً في دكان قريب. قالت ما هو؟ قلت لها: فريم للنظارة، وإذا بالإمكان كشف النظر لنظارة جديدة. مشينا صامتين وأحسست بتوترها من اقتراب احتمال صرف دولار آخر. في مدخل الشارع كشك الرجل المصري ذي الوجه الباسم دوماً، ورأيت آثار السنين عليه. ونظرت للأرض حول الجراج: مغمورة بالزيوت وكميات من الصواميل ومن قطع غيار السيارات. وحزنت بسبب أكوام الزبالة الهائلة حُزن من رأي غير هذا ذات يوم. العمارة كما هي: رقم ٩، والشقة ٩ الطابق الخامس. وماجدة، وفوزية، وآية، وبنت الفطاحلي. وضحكت! قالت: لماذا تضحك؟ لم أتمالك نفسي فضحكت بزيادة، وانفعلت عليّ بشدة، فكتمتُ نفسي وأمسكت بيدها وعدت للشارع الرئيسي وهي تسأل: أين محل النظارات؟

ملاحظات عن المزاج الجنسي في الخرطوم خلال الأعوام ١٩٩٠- ٢٠١٠:

ملاحظة (٧)

في بداية التسعينات: أشعلت القنوات الفضائية مزاجاً جديداً. أشعل هذا الوحي الفضائي والذي يُمثل ثقافات مُتعددة المزاج الجنسي

بشكل جديد. الذكر تعرف على نموذج جديد للأنثى، نموذج مختلف في مظهره، في اللبس وفي النطق وفي التصرف وفي طريقة اتخاذ القرار. والأنثى اكتشفت أن في الإمكان أن تتعرف على رجل- ذكر، مختلف عما اعتادت رؤيته. إذا كان المسلسل المصري قد نبه السودانيين في الخرطوم إلى أن في إمكانهم أن يتمتعوا بعاطفة الحب، فإن المسلسل المكسيكي الذي كان يعرض يومياً خلال التسعينات قد نبه السودانيين في الخرطوم بالذات إلى أن علاقة الرجل بالمرأة لا تكتمل بدون الجنس، وأشتعل المزاج الجنسي مُنتقلاً من حيز الخيال المرئي إلى حيز التطبيق العملي. تزايد معدل تدفق الطوفان وانكسرت قداسة الجنس. صار حدثاً يومياً وفي كل مكان: في المكاتب، في الشركات، في الدكاكين، في الأسواق، في المزارع، في السيارات، في المدارس..

منذ العام ألفين وحتى ألفين وعشرة توسعت شبكة الإنترنيت بشكل هائل في الخرطوم بحيث أصبحت في متناول الغالبية العظمى بسعر بسيط. ظهرت محلات خدمة الإنترنيت ومعلوم أن الممنوع مرغوب. تدفق الطوفان الجنسي بالجميع إلى مواقع الجنس الإباحية والجديد هو النقلة الخيالية والتطبيقية التي هزت المخيلة الجنسية بطاقة غير مسبوقة. المزاج السائد صار هو تقليد العرض. ولم تجد محاولات السلطات في حجب المواقع الإباحية الجنسية والتي أكدت التقارير العالمية أن السودانيين هم من أكثر شعوب الأرض إقبالاً عليها.

ومع ظهور التليفونات الذكية، صارت الغالبية تحمل أحلامها الجنسية: في مخيلتها وفي جسدها وتسير بها علانية وهى بين يديهـــا: لن يخلو جهاز الآن في الخرطوم من حلم جنسي. حدثت نقلة عملية تطبيقية هائلة في التصريح بالمتخيل الجنسي، النقلة الأكثر جرأة

في المزاج الجنسي هي في انتقال المبادرة من الذكور إلى الإنـــاث. بدايـــة سيادة وسيطرة الأنثى على المبادرة الجنسية بدون إعلان هذه السيطـــرة.

ملاحظة (٨)

بنات الجامعات- الكليات:

البنات القادمات للتعليم الجامعي لديهن تجارب جنسية قبل الدخول للجامعة، فالوقائع تؤكد أن التجارب الجنسية لأجيال الألفين وألفين وعشرة تبدأ منذ مرحلة الأساس. والحياة الجامعية تتيح لهن الفرصة لتجارب أكثر... السؤال هو: هل يتم تقويم التجارب الجنسية على إنها اختيار شخصي؟ أم كحدث عام مرتبط بالجريمة والعقاب؟

صحيفة الرأي العام: أغسطس ٢٠٠٦:

في العام ٢٠٠٢ في ورشة في نادى الشرطة، الأرقام الواردة توضح أن هناك ارتفاعاً كبيراً في جرائم الطالبات تصل إلى آلاف البلاغات، تعاطي الخمور وصناعتها إضافة إلى جرائم الدعارة والأفعال الفاضحة وذلك في ولاية الخرطوم تحديداً.

شرطة امن المجتمع قامت خلال عام واحد بضبط أكثر من ٣١ ألف بلاغ دعارة و١٠٦٥ بلاغ مخدرات. ٤٨٤ بلاغ في مواجهة ٥٤٢ طالبة جامعية بالخرطوم وحدها.

فيما مضى في السبعينات كانت قصة الحب بين اثنين حدثاً يسير به الطلاب (قصة.. ريد) كان طلاب الجامعات يستخدمون كلمة (بريدك) ثم في الثمانينات أصبحت الكلمة هي (كيس) وحين الهمس بأن فلان

وفلانة بينهما: كيس، أي علاقة حب، لكن بدون جنس، أو على الأقل في الظاهر. أقصى ما يصل إليه طالب الجامعة في الثمانينات هو قبلة في السنة الرابعة وهو متجه إلى منزل والدها ليخطبها. مع بداية أمواج الطوفان الجنسي في التسعينات أصبحت البنت التي لا علاقة لها بولد هي النشاز. وأصبحت حالة العلاقة غير الجنسية علامة ريبة في سلوك الولد المتأخر عن طلب الجنس.

المزاج الجنسي الجديد يقوم على تقليد نمط حياة يتيح للبنت فرصة التعبير عن أنوثتها كاملة، انتزاع فرصة حياة جديدة من خلال علاقة مع رجل. وهنا يتأخر العامل الاقتصادي خطوة وتتقدم الرغبة في اكتشاف الحياة، أو يشتغلان معاً. الجميع، وبالأخص الفتيات، في حالة تصالح تام مع التناقض. يصلين قبل ممارسة الجنس ويغتسلن تواً بعده، بل ويوقفن العملية الجنسية إذا صادف الأذان سمعهن وهن على ذلك الحال.

بنات الشهادة العربية، القادمات من دول البترول حيث يعمل الأب منذ سنوات طويلة، لا مشاكل مادية ملحة لديهن. من الحبس في شقق الاغتراب لسنوات طويلة، ثم فجأة يجدن أنفسهن في رحابة عالم جديد وبدون رقابة مباشرة. تتولد لديهن الرغبة في خوض تجارب وممارسة شيء شخصي جداً وخاص جداً بعيداً عن رقابة الأب والأم. بعضهن يفضلن استئجار شقق، والبعض يفضل السكن في داخليات خاصة- اسمها السكن الفاخر- وهى بيت كبير تشرف عليه إدارة الطلاب، ويتم تعيين مشرفة ومهمتها متابعة تنفيذ الضوابط واللوائح، ومراقبة البنات والإبلاغ عن أي شيء خارج حدود النظام. وتتشكل مجالس من أولياء الأمور وأصحاب العقار، ويتم توفير حراسة من إحدى شركات الحماية.

صحيفة الرأي العام: ٢٤- ٨- ٢٠٠٦:

(لأن شرطة أمن المجتمع، في تنويرها، أكدت أن عدداً كبيراً من الممارسات والمُمارسين هم من أبناء الأسر المحترمة والميسورة الحال).

حدث شيئان في لحظة واحدة بسرعة مدهشة. اقتربت مني سيدة مُسنة وهى تردد كلاماً عن الصدقات التي تمنع المصائب التي تقترب، وفى نفس اللحظة اقتربت بنت صغيرة مني كأنها تود الالتصاق بي فابتعدت خطوة للخلف. وفى نفس اللحظة سمعت صوت أختي تقول:

- أريد أن أدخل السينما!

وكنا بالضبط في مواجهة السينما، ولما فتحت فمي لأقول لها هل ترى حقاً إننا في مواجهة السينما ولهذا تقول ما قالت، أم أنها ترغب حقيقة في الدخول للسينما؟ وجدت البنت المصرية تضع في راحة يدي اليمنى شيئاً، وبخفة تسحب يديها وكأنها تتسلم مني شيئاً. بدا لي وكأن السيدة العجوز وهي تواصل الدعاء تنحني لتهمس في أذن أختي، وكنت أحاذر من فكرة النشل وخطف الحقائب وكان تركيزي مع البنت. التفت لأطلب من السيدة العجوز أن تبتعد فرأيتها تضع في يد أختي أوراق وتبتعد، ولم يعد هناك سوى أصوات السيارات وضجيج الشارع الكبير، ووقفت أنظر وأتحسس الشيء البلاستيكي، أو الورق المقوى في راحة يدي.

- كيف عرفتي أننا أمام السينما؟

- تستكثر عليا دخول السينما؟ شكراً لك، ما في داعي، نرجع الشقة.

لماذا السينما؟ والآن بالذات؟ وكان وقع عصا المكفوفين فوق بلاط الصالة ونحن نتقدم ناحية شباك التذاكر يقع في أذني مُختلفاً جداً، وحفظته بعدد الدقات، ولحظت أن في يدها التي أمسكها تصميم أكثر. سألت موظف الشبك، فقال سيبدأ فيلم بعد عشرة دقائق، فقطعت تذكرتين وتقدمنا للداخل.

صحيح أنها علي مدى أكثر من خمسين عاماً لم تر شاشة السينما! لم ترها وهي مبصرة ولم تر قط خشبة المسرح، ولم ترقص- سوى مرة واحدة- في زواج إحدى بنات أعمامنا وبإلحاح شديد من النساء والبنات وصل إلى حد جرها من يدها لتقف مشلولة تماماً وسط حلقة الرقص. ولم تستطع تحريك جسدها فتجمعت الدموع في عينيها! في تلك الليلة أصيبت بحمى شديدة وكانت تهذي حتى نقلت للمستشفى فطعنوها بحقنة مهدئة. أليس من حقها أن تختار الوقت والتوقيت والمكان والزمان؟ قادنا رجل مصري في أواخر الأربعينات في ظلام الصالة النسبي إلى مقاعدنا وهو يرحب بنا، ثم توقف وأخذ يردد عبارات الترحيب. لم أتضايق من مصري كما تضايقت منه لحظتها، ففي رأسي ألف شيء وفي رأسه شيء واحد فقط، ناولته له فكاد أن يقذف به في وجهي. لكن صوتها كان منشرحاً وهي تبدأ الأسئلة:

- هل الناس كثيرة؟

- لا أبداً.. لأن الوقت الآن وقت الشغل، ربما بالمساء يكونون أكثر.

- جالسين جوار بعض؟

- طبعاً! كل واحد يجلس جوار من جاء معه.

أخذت الشاشة تعرض الأفلام القادمة وكنت أنظر إليها بطرف عيني بتركيز: هل يمكن أن يكونوا قد وصلوا إليها؟ حديثها عن إنها لن

تعود وستبقى هنا في دار رعاية المكفوفين! تأكيدها أن لاشيء ستخسره: لا أب ولا زوج ولا أولاد، وشقيقاتها لا يهمهم شيء، مجرد مجاملات وتعاطف مظهري- يا روح ما بعدك روح-، هذا ما تردده وتصر عليه! وكنت أحاول أن أؤكد لها نقيض كلامها رغم صدقه. فالأخوة لا يتنافسون فقط خفية، بل قد يحقدون بعضهم على بعض سراً وعلانية وفى سرية تامة.

- انت متوتر ليه؟ وتتلفت..! انت متوقع حاجة تحصل؟

- الورق اللي أعطتك له المرأة العجوز..

ضحكت وقالت:

- قالت لي دواء روحاني، أذوبه في ماء وأغسل به وجهي فيرتد بصري.

أخرجت من جيبي ما أعطتني له البنت في الشارع. كرتون مقوى ملفوف علي شكل مظروف، فتحته فوجدت ورقة صغيرة. قلت لها أن لا تتحرك أبداً، وتحركت إلى جوار الحائط وضغطت على زر الإضاءة في الموبايل ونظرت للورقة. دعاية عن لعبة متقدمة من (بلاي- استيشن) طلب مني مراقب السينما العودة إلى مقعدي، فعدت وجلست والورقة في يدي. كان الفيلم عن التحكم في الطائرات من على الأرض باستخدام برامج الكترونية هي بالضبط برامج ألعاب (البلاي- استيشن) للصغار. الخطة هي التشويش على برنامج القيادة الالكتروني للطائرة، أثناء لعبة تشغيل الطائرة في البلاي- استيشن، والتي سيصعُب تعقبها كأداة جريمة. ولتحقيق الهدف لابد من وجود شريحة معينة تلتقط إشارات البلاي- استيشن، في داخل الطائرة. مع ضرورة وجود شخص يسكن أو يتواجد في مساحة قطرية محددة حال إقلاع الطائرة أو هبوطها.

- الفيلم قصته عن شنو؟

- عن الجيل الرابع من الحروب.

- يا سلام.. يا أخي! عارفين إنك خطير جداً، لكن أنا ما سمعت صوت رصاص مسدسات ولا مطاردة عربات.. الفيلم ده مش فيلم أمريكي؟

- أمريكا- إسرائيل، تشتغل الآن مع الجميع وبأكثر من طريقة، الجيل الرابع من الحروب.

- البطل من؟ والفكرة شنو؟ أنا ممكن أتخيل لأني شفت أفلام أمريكية كثيرة ومسلسلات أمريكية كثيرة، طبعاً لازم في بطل ولازم في خائن!

ملاحظات عن المزاج الجنسي في الخرطوم خلال الأعوام ١٩٩٠- ٢٠١٠:

ملاحظة (٩)

سقوط مفهوم العذرية:

سقط اجتماعياً وروحياً مفهوم كان هو الأساس الوجودي للأنثى- البنت بشكل عام- وباتفاق تام، وهو مفهوم العذرية، وسقوطه هو أحد أبرز علامات الطوفان الجنسي الهادر. لم يعد أمراً مهماً ولا مقدساً أن تكون البنت عذراء لم يمسها أحد قبل زوجها الشرعي، وأطلق الضمير الجمعي مقولته: ليس مهماً أن تكون قد سبق لها فعل شيء، المهم أن لا تكون قد توسعت في الممارسة إلى أوسع مدى.

فقدان العذرية لحظة هامة جداً في التاريخ الشخصي الخاص جداً للأنثى، أيا كانت تصنيف لحظة الحدث: ما بين حلال وحرام! قالت

سلمى إن محبة ابن خالتها لها ما كان لها مثيل، وابنة خالتها– أخته– هي صديقتها الحميمة وترعى تلك العلاقة. قالت سلمى: يوم الحادثة كنا نحن الثلاثة في البيت. لكن الشيطان بيقدر على ابن آدم حتى إذا كانوا ثلاثة. أخته كانت عايزة الحكاية دي تحصل! يعني يتمكن مني. أحضان وقبلات وطبعاً بتيجي لحظة لو أي بنت وصلت لها.. خلاص تاني ما في شيء بيرجعها أبداً عن إنها ترقد، والمفروض هو يمسك نفسه لأنه هو الرجل وكمان هو مسئول عن بنت خالته، يعنى عرضه وشرفه. المهم في النهاية حصل ما حصل وأنا انتهيت وبكيت شديد لما شفت نقط الدم وعرفت أني تحولت من بنت إلى امرأة، وهو يطمئنني ويؤكد لي أننا زوجان وأن هذا عادي. ولما جاءت أخته، لن أنسى التعبير الذي ظهر في وجهها: ارتياح شديد وتشفي.

سافر إلى السعودية للعمل، ووعدني أن يرسل أموال العرس في أول سنة. وكان بيننا مراسلات وكانت كلها وعود، ومع مرور الوقت أخذت الخطابات تقل حتى انقطعت الاتصالات. والكلمة الأكيدة قالتها لي أخته في وجهي بوضوح:

– إن من تفرط قبل الزواج لا يأمنها الرجل.

نسبة من البنات اللاتي فقدن عذريتهن نتاج علاقة حب، ولم يتم زواج بسبب تخلي الحبيب، يتحولن إلى الممارسة الاحترافية للجنس بقصد الانتقام من الذات. يبدأ بحث عن تفسير لمعنى ما حدث، ومحاولة لبداية جديدة من خلال الدخول في علاقة أخرى، وتعقبها علاقة أخرى. سهى تؤكد هذا: قالت إنه أفقدها عذريتها ثم تركها وارتبط بأخرى، لكنه عاد إليها مرة أخرى يطلب منها عودة علاقتهما والزواج.

- لكن خلاص، أنا كنت مشيت بعيد شديد، وهو ما ممكن يكون نفس الزول الأول اللي وعدني، وهو واثق جداً في يوم الجمعة ذاك في بيت بحري ذاك، أني زوجته وأبداً ما لغيره. لحظتها ضعفت، وبصراحة أنا نفسي في ذات نفسي من جوه، كنت مستعجلة على الموضوع، ما كان في شيء ممكن يوقفنا، الحمد لله اللي ما حصل حمل، لكن بعد فترة الظاهر هو تعود أو مثل كل الرجال شبع خلاص واتشبع من جسمي ومني، وعرفت إنه بيعرف واحدة ثانية في الجامعة، راقبته حتى وجدته معها ووقفت أمامه وناولته دبلة الخطوبة أمامها. لما استلم الدبلة مني ولم يقل أي شيء عرفت أن دي اللحظة اللي بيموت فيها الزول وبيواصل يتنفس.

عملية استعادة العذرية:

في الموروث الشعبي هناك تاريخ شعبي- شفاهي، عن كيفية استعادة العذرية. الحبوبات والأمهات والعمات والخالات والأخوات الأكبر سناً، يشرفن على إدارة هذه الأزمة بحرفنة نسائية وكيد عظيم.

للبنات مهارة في الإعداد لمشهد العذرية. مشهد لأن المطلوب هو فقط تمثيلية لا تجرح شعور الطرف الآخر. تماماً مثل إدراك كافة الزوجات التام يقيناً بأن للزوج صديقة وعشيقة. مشهد العذرية مشهد شكلي يتم الإعداد له إما بالتحالف مع الأمهات والخالات مباشرة بما تراكم لديهن من خبرة معرفية متوارثة، أو مع الصديقات المقربات واللاتي كن يخضن معهن المغامرات سوياً.

يتم استخدام الصباغ الصيني، وهو دهان شعبي يعيد قفل المهبل ويصبح من الصعوبة اختراقه بسهولة، ويحدث نزيف دم. هذا بالضبط ما يبحث عنه الرجل- الذكر، ليطمئن أنه الأول. بعض البنات يلجأن

إلى أطباء لعملية ختان فرعوني كاملة وتتم خياطة محكمة ويصبح من الصعوبة أن يدخل ذكر الرجل في الفرج بدون ألم ونزيف. تقدمت الخياطة خطوة فأصبحت بالليزر، لكنها تترك أثراً خفيفاً في منطقة الأعضاء الجنسية. يتم التمثيل وتصنع الخجل والخوف، وتلجأ بعض البنات إلى حيل مثل الوخز بالدبوس ليرى الرجل نقاط الدم .

كان غضبها هائلاً ونحن أمام مكتب مصر للطيران:

– لماذا تكرر هذه السخافة كل عام؟ تقرر فجأة أن نغير الحجز ونسافر الليلة وبسرعة! يا أخي شاورني؟ اعمل لي اعتبار؟

ظللت صامتاً، إذ لم يكن ممكناً أبداً أن أقول لها إنني لا أضمن ما سيحدث لها بعد ما سيحدث لي، وقلت لها بهدوء وصوت خافت: إنني أشعر بعدم الاطمئنان إلا إذا كنتي انتي مُطمئنة.

– ليه القلق ده؟ كلها باقي يومين؟ إذا كان السبب إني عاوزة دكتور العيون خلاص انسى الموضوع!؟ أما إذا كان السبب هو الشقة فممكن نغيرها، ممكن نمشي فندق.

في كل سفر أضع دوماً في جيب سروالي الداخلي جواز السفر والتذكرة ومقدار من المال. وحال ما نادى مايكرفون المكتب على رقمي نهضت وجلست مواجهاً لموظف ناولته جوازي السفر والتذاكر. أخذ ينظر ويدق في أزرار الجهاز، وسألني عن المواعيد التي أحب السفر عليها بعد تعديل الحجز. فقلت: اليوم وعلى أول طائرة، فقال: ممكن بس بعد دفع الغرامة، بعدها أعمل لك التعديل والحجز الجديد.

كان مبلغ الغرامة يعادل ثمن تذكرة كاملة. اندهشت من مقدار الغرامة. لم تكن المرة الأولى التي نقوم فيها بتعديل مواعيد السفر،

وأبديت انزعاجاً إلى حد الاحتجاج العالي، لكنهم اعتذروا بشكل جماعي قائلين بأن هذا الأمر ليس بيدهم وإنها تعليمات إتحاد الطيران العالمي، أسعار تذاكر الطيران أصبحت سوق عالمي والتذاكر تتغير أسعارها في كل لحظة، بل في كل ثانية بحسب زيادة سعر وقود الطائرات وتكلفة الصيانة وزيادة رسوم خدمات المطارات.

– أختي مريضة جداً، ولابد أن نسافر اليوم، سأدفع غرامة على تذكرة واحدة، وأرجو استثناءً أن تعفوها من الغرامة.

– آسف يا أفندم، التعليمات واضحة، لا نمنح أي استثناءات.

أخذوني للمدير فظهرت سيدة كان فشل أقراص الاستروجين بيناً في استعادة دورتها الشهرية، وتحدثت معي برجولة وبدون أن تنظر إلي: إنها لظروف إنسانية فقط ستخفض لنا خمسة وعشرين في المائة. عُدت وأمسكت بيدها وتابعتنا نظرات ما بين: أنتم محتاجين ونحن عرفنا هذا! الفقراء! الشفقة. توقفنا عند الباب لرجلين يحاولان الدخول، تراجعت مفسحاً لهما لكن أحدهما فتح الباب وسمح لنا بالمرور، فتقدمنا ويدي على يدها قائلاً: شكراً. وانحنى أحدهما فوق رأسي وهمس في أذني:

– تعديل الحجز.. مستحيل..

لم أحاول أن استمع لما يقوله سائق التاكسي، وكررت كلامي بثقة هذه المرة حينما طلبت منى أن آخذ رقم موبايله لكي يأتي ويوصلنا للمطار بعد يومين، فقلت لها إنه يعرف، فضحكت ضحكة طويلة وهى تُردد:

– جنينة، والله جنينة رسمي!

وقال سائق التاكسي:

- أيه!؟ أي جنينة! مافيش جنينة جنب العنوان يا حاجة! والا أيه؟.

نظر إلي فقلت له:

- جنينة يعنى واحد فيوزاتهُ ضاربة، حَيتجنن خالص.

ملاحظات عن المزاج الجنسي في الخرطوم خلال الأعوام ١٩٩٠- ٢٠١٠:

ملاحظة (١٠)..

الحكاية الواحدة:

الحكاية الواحدة المتكررة على تنويعات متعددة.. إنهن دائماً ضحايا وان ظلما وقع بهن مع تعمد إخفاء الجوانب السلبية في دورهن أثناء الأحداث.

البحث عن القوة والنفوذ:

هناك ميل عام للزعم بالانتساب للسلطة التنفيذية: الجيش، الأمن، الشرطة. ربما بسبب البحث عن النفوذ ومن أجل الإحساس بالأمان أو من أجل تأمين مورد الرزق. وربما يكون مفهوم السلطة كأداة للقهر لا لتنظيم المجتمع. قالت رؤى إنها تريد أن تلتحق بكلية الشرطة فقط ولن تدخل الجامعة، وحين حدثتها عن صلاحيات وكيل النيابة تحمست بشدة لكلية القانون.

الثقة في عالم الجان والشياطين:

من القوة المادية إلى قوة (الماورائيات). أكدت منال أن والدها لديه جان سفلي. وهي مثل كل الناس تعرف ذلك، ووالدها يقضي به كل الأغراض. كلهن على قناعة بهذا. أكدت لي نشوى أن صاحباتها هن اللاتي يقمن بعمل السحر لها حسداً منهن لأنها جميلة وتزوجت مرتين،

قالت إنها رافقتهن مرة إلى فلكي يمتلك جانا سفليا وكشف لهن كل الغيب، ولما رجعت إلى منزلها مرضت ورقدت إلى حد الشلل.

نغمة الموبايل:

الموبايل هو أداة الاتصال والتنسيق الرئيسية بين العرض والطلب. ونغمة الموبايل مفتاح أولي لفهم نفسية الشخصية: فأمل اختارت رغم مظهرها الهادئ نغمة صاخبة جداً وأغنية ملتهبة تقول: نار يا حبيبي.. نار... حبك نار يا حبيبي حبك نار. فهل تعبر الأغنية عن نفسية متناقضة مع المظهر الهادئ؟ واختارت انتصار مقطع من أغنية: لما ترجع بالسلامة.. وترجع أيامنا الجميلة. وواضح أنها تحن إلى حبيب قديم جداً تعرفه جيداً وتتوق إلى عودته بعد زواج من رجل غيره استمر لأربعة وعشرين عاماً. وطالبة بالجامعة الإسلامية والدها مغترب في السعودية في وظيفة ضعيفة جداً اختارت مقطع من أغنية حزينة كلها شكوى عن الزمن والفراق: شو في الزمن يا يمه، ساقتني بعيد خالص... جرعني كأس. انت اطلب يا حبيبنا وتلقى كل اللي دايره حاضر، انت اطلب نور عيونا ونحن بنقول ليك حاضر.. انت اطلب يا حبيبنا كل طلباتك أوامر.

القواد- القوادة:

الشخصية- الوسيط، بين من يريد أن يكسب من بيع المتعة الجسدية ومن يريد أن يصل إليها. السؤال الأكثر صعوبة هو: كيف الوصول للقواد أو للقوادة؟ لأنها مهنة مرفوضة اجتماعياً ومطلوبة قانونياً، وبالتالي تتم في الخفاء وبحذر شديد. والإجابة هي أن لا إجابة محددة سوى أن الوصول للأول سيقود إلى التالي، فمثل ما تجرى حبات المسبحة بين الأصابع سيجري تتالي معرفتهم، فقط إذا تم

الوصول إلى الأول. مثلها مثل البنت الأولى، والتي سرعان ما ستقود إلى الثانية.

الدوافع مختلفة والأساليب متعددة، لكن الاتفاق العام هو الحصول على المال وهذا جوهر الحراك. هناك دافع الرغبة في إثبات الذات، ودافع الرغبة في النجاح المهني ضمن منافسة في مهنة في سوق، وهناك الرغبة في الانتقامِ من شخصيات بعينها بسبب ثأر شخصي قديم، إهانة شخصية- مثلاً- سيما وإنهن يتحركن عن قناعة بل إيمان بمنظومة أحكام القيمة الجماعية، والتي- للمفارقة - أصدرت أحكامها ضدهن بالإدانة والنفي الاجتماعي.

تتمتع القوادة بصفات القدرة التنظيمية العالية، والقدرة على اتخاذ القرار، والقدرة العالية على إدارة وتوجيه السلوك والأفراد- البشر. لديها أيضاً القدرة على الإقناع وكسب ثقة الآخر، ومواجهة المشاكل أو المصاعب أو المتاعب.

ترتبط بالقوادة نزعة ذكورية، فهي تتواصل مع الآخرين بلهجة ذكورية، تنطق وتشتم بمفردات الذكور. ولا يعني هذا افتقارها للأنوثة، كما لا تعنى اللهجة الأنثوية للقواد أنه مُخنث أو أن لديه بالضرورة ميول كامنة.

أمام مدخل العمارة هاتفتني روحي بشأن كثافة التحليق حول مدارها: الأرواح تحس بالأرواح تحليقاً واقتراباً وانجذاباً وصداً ونفوراً. الشخصية هي التي تخوض وتمارس وتحتك. الأعين التي تتابعك ولا تتركك لحظة. القاعدة الأساسية هي الاستسلام التام لمن يراقبك، احترافاً منك تتعمد نفي الإحساس. وفى الشقة وجدت كل ما توقعته: في كل ركن تركوا لي إشارة.

أخرجت البطارية من جهاز الكمبيوتر المحمول، ثم دهنتها بزبد ووضعتها في كيس. انتزعت مركز المعلومات في الجهاز ثم أخرجت منه الشريحة السرية، الرئيسية- خاصتنا- وتناولت مقدار كبير من الزبد ثم دفنت الشريحة فيه ووضعتها في الثلاجة بعد أن زدت درجة التبريد إلى الدرجة القصوى. وانتظرت لدقائق ثم أخرجتها ووضعتها في نار البوتاجاز. فاحت الرائحة، وسمعت صوتها تسألني، فقلت إن شيئاً اندلق من يدي! فقالت: ماذا تعمل في المطبخ؟ فقلت: شاي. تركت الماء يغلي حتى وصل إلى درجة الغليان، ثم أسقطت الموبايلات فيه. ومرة أخرى سألتني عن الرائحة الغريبة، فقلت إنني أقوم بتنظيف غطاء بلاستيكي للموبايل. أخرجت الموبايلات وقمت بفتحها ثم انتزعت أجزاء دقيقة منها، وأعدت وضعها في الماء المغلي حتى ذابت الأجزاء التي استخرجتها. صاحت أختي مرة أخرى فقلت لها من مكاني في المطبخ: إن قطعة بلاستيك قد سقطت في لهب البوتاجاز لكنني تصرفت.

كانت أختي على الكنبة في الصالة، وبين لحظة وأخرى كانت تقول لي خبراً عما يحدث في السودان. وكنت أرد بكلمة، أو بتعقيب سريع. وضعت ملابسي في حقيبة السفر. ثم جئت وقلت لها أن تجهز حقيبتها لأننا سنتحرك طوالي إلى خارج الشقة.

قالت بغيظ:

- بسم الله، خلاص الجنون تمكن منك؟ أنا أعرفك! نتحرك الآن؟ إلى أين؟

عُدت للغرفة وحملت حقيبتي، ووقفت مُعلناً أن بقائي في هذه الشقة لم يعد ممكناً، ثم أسقطت حقيبتي بصوت مسموع.

- أيوه أيوه... أنا عارفة إنك قرفان من الشقة، وما عندي مانع نمشي شقة أخرى. بس الآن صعب، المساء جاء والحركة صعبة، بس قل لي انت مالك بصراحة كده!؟

– أنا مللت جداً ومتشائم من هذه الشقة.

– لن نترك شقتنا إلا في الصباح.

نهضت واتجهت نحو الغرفة التي بها حقيبتها ومشيت خلفها. جلست على السرير وطلبت مني أن أرفع لها حقيبتها. وقفت أساعدها في ترتيب حاجياتها. قالت لي إنها تأكدت أن إيناس حرامية تاني يوم لوصولنا لأنها وجدت شنطتها على خلاف ما كانت عليه.

– ذاك اليوم لما رجعنا وكانت إيناس جالسة في السلم، أول ما فتحت الحقيبة وجدت شريط الحبوب هذا في غير ما أضعه فعرفتها، لكنني لم أقل لك خوفاً من المشاكل.

قلت لها: لو كان معي ثمن الغرامة لدفعتها ولسافرنا الآن.

– لا تكن أنانياً لهذه الدرجة، لمجرد أنك تضايقت ومللت أخسر أنا آلاف الجنيهات. حاول أن تفكر في الناس اللي حولك! لابد أن أقابل طبيب عيون آخر، هذا اتفاقنا! باقي لنا يومين يعنى ما وقت طويل.

وانفجرت تبكي وتردد:

– انت عملت اللي الناس ممكن تلومك عليه! سافرت مع أختك للعلاج. لكن أنا أرجع اتحبس في الظلام تاني وللأبد؟ مستحيل ده يهمك، أنا لا ألومك لأنني أصلاً لا أسوي شيء، من يوم ما وجدت نفسي وجدت أن حياتي لا تساوي شيء، أنا حظي كده، غلطتي إني لقيت شوية قروش وافتكرت إني ممكن أعوض بيها بوهم العلاج، يا أخي حتى الوهم كثير علي؟

ورفعت يديها للأعلى وأخذت تصيح:

– يا الله.. يا الله تأخذ روحي الآن، عشان أنا بالجد أتعبت الناس دي في حياتها، وأتعبتها معي.

وبحركة أخرى أدخلت يديها في داخل ملابسها، وحركت شيئا ثم انتزعته من مكانه ورأيت محفظة والدتي القديمة، فتحتها ونثرت كمية من الدولارات على الأرض وصوتها يتعثر وسط دموعها:

– امشي ادفع الغرامة لتعديل الحجز ونسافر، كان مفروض أوافقك بس أنا دنيئة.

ساد صمت، وانحنيت أجمع ما نثرته على الأرض. صمت الإخوة حين يكون لا مفر من مواجهة الحقيقة. تمددت على الكنبة وأغمضت عيني وركزت فقط في اللاشيء. سمعت صوت أختي وهى تتحرك، وهى تصلي، وهى تتحدث مع نفسها. ثم هزتني وهى تمد الموبايل قائلةً إنها تريد أن تتحدث مع ناس البيت.

ضغطت على الأزرار وناولتها الموبايل. استمعت لفترة ثم قالت لي أن الخط متقطع والموبايل يفصل قبل إكمال الاتصال. تناولت منها الموبايل وراجعت الرصيد فوجدته كافياً عاودت محاولة الاتصال فبدأ ثم سرعان ما انفصلت الدائرة. حاولت مرة أخرى، ثم قلت لها: يبدو أن الشبكة سيئة اليوم، لننتظر قليلاً وستتحسن.

قالت إنها تريد أن تشرب النعناع فجهزته لها، وسألتني عن الأكل الموجود فقلت لها أن تحدد ما تريد أن تتعشى به، فقالت إن نفسها في الجبنة الرومي وأي شيء به سكر خفيف. وجدت في المطبخ بسكويت، والكيك الانجليزي، وقلت لها إن الجبنة غير موجودة. جلسنا نتابع في القنوات السودانية، وحاولنا الاتصال مرة أخرى ففشلنا. ساد الصمت بيننا بأكثر من المعتاد. قامت وصلت العشاء، وأخذت تقرأ في الأوراد وتلف حول الشقة وهى تحرك أصابعها مُرددةً الآيات.

ملاحظات عن المزاج الجنسي في الخرطوم خلال الأعوام ١٩٩٠- ٢٠١٠:

ملاحظة (١١)..

البرنامج:

المصطلح الذي يستخدم لممارسة العملية الجنسية بمقابل مادي أو بدونه، هو (البرنامج). مفردة- البرنامج- لم تكن مُستخدمة في العقود الماضية، ففي الثمانينات كانت تُستخدم مفردات مثل الفيلم أو الموضوع أو الشغلانة، الزعط، الزبيط. لكن لغة التقنية العصرية الحديثة وتأثيرها هي التي أنتجت الاسم. قالت مها إن كلمة البرنامج لأن العملية مرتبطة بجهاز الإنسان. وسألتها ماذا تقصد بجهاز الإنسان؟ فقالت: الذي تطلب مني أن أُسمعك اسمه وأنت تعرفه.

ولاحظت ندى أن الأمر يشبه خطوات عمل الكمبيوتر. فالعثور على البنت مثل العثور على كلمة السر للمرور إلى داخل الجهاز، ثم خطوات الاتفاق تشابه خطوات البرمجة. وهناك معدل سرعة، وذاكرة صوت. والأصوات وبرمجتها عامل مهم جداً في البرنامج.

المُعينات:

حكت لي عبير، التي فُصلت من كلية الصيدلة، عن سوق عامر بمختلف أنواع البضاعة: أنواع متعددة من المقويات الجنسية للرجال، موانع الحمل المتعددة، القضيب البلاستيكي مختلف الأحجام والألوان سواء كهربائي أو بالبطارية. وتذكرت ما حكته لي رانيا عن القضيب الذي يعمل بالكهرباء، ونبرة الفخر التي أكدت بها أنها أول سودانية تُدخل القضيب البلاستيكي في سوق الاستهلاك، وكيف أنها أنقذت بيوتا من الخراب! وحكت أن أول سيدة اشترته في الخرطوم كانت هي ريهام

اعز صديقاتها، والتي كانت تسر إليها بأسرار غرفة نومها ومنها أنانية زوجها، والذي لم تصل معه إلى لحظة ارتواء طيلة أعوام. قالت إنه كان لا يطيق التفاتة إليها بعد أن يقذف مائه، ولم تكن تعرف السبب، ولم تكن تعرف إلى من تشكو وتظل طيلة الليل ساهرة تحدق في ظلام الغرفة. قالت رانيا: كان لازم أفكر معها في حل للمشكلة، وقلت لها: النيئ للنار..! وكل شيء له نهاية! لو عاوزة تصاحبي ممكن أرتب ليكي أكثر من موعد واختاري اللي يناسبك، ولو عايزة تكوني مع نفسك وتسرحي جربي اللي معاي. قالت لها إنها ظلت مُترددة ثم حزمت أمرها وأغلقت غرفة نومهما ورقدت على سريرهما ثم تناولته بحذر أول لحظة، ثم بخوف وضعته في فرجها دون أن تخلع سروالها، ثم بحذر أشد ومن فتحة السروال الجانبية مررته فوق فرجها، ثم بدأت تحرك فيه بدون أن تدوس أزرار التشغيل، ومع مرور الوقت جمعت قوتها وداست على الزر.

قالت هيام أن صديقتها آمال كانت تعيش حياتها منذ ما قبل طلاقها بفضل الذكر البلاستيكي الذي جلبته لها خالتها (الدلالية) من الصين أو ماليزيا، وأكدت لها: أنه قد أنهى سيطرة الذكر وحوجتنا له. وقالت إن زوج آمال ضربها بعنف هائل يوم أن اكتشف إنها تمتلك اثنين احدهما بالكهرباء، والآخر بلاستيكي! وقالت لها رغم أن ضرباته كانت قوية وتركت آثاراً في جسدها لكن عيونه كانت تائهة وفيها ضعف رهيب، كان منهاراً ومندهشاً جداً وما قادر يصدق!

الأصوات– الكلام البذيء:

أثناء ممارسة العملية الجنسية تصدر الأنثى أصواتا، هذه الأصوات تُرضى الطرفين. فالرجل يستمتع بسطوته الذكورية وسيطرته على الأنثى (التي هي تحته) والأنثى تستعذب إحساس كونها

مفعول بها، عن رغبة ورضا. في الستينات، لم تكن الأنثى تجرؤ على إصدار صوت غير أنين خافت يؤكد للذكر الجاثم فوقها مدى سيطرته، ويرتبط هذا بالسائد في فضاء الوعي الجمعي- المزاجي، بأن الجنس عدوان لتأكيد تفوق نوع على نوع. وفي السبعينات، ظل الحال كما في الستينات مع بدايات تغيير خفيف. السبب هو العوامل الخارجية، وزيادة المدارس منذ العام ١٩٦٩، وخروج الأنثى للعمل وللدراسة بنسبة أكبر. في الثمانينات، أصبحت الأنثى تصدر أصوات واضحة أثناء العملية الجنسية، الأصوات تتضمن عبارات تؤكد للذكر مقدار ما ألحقه بها من ألم ومن عذاب، وكم هو قوى، وكم هو سيد على كل الرجال! أما في التسعينات والألفينات، فقد صارت الأصوات أمراً ضرورياً ملازماً للممارسة الجنسية، وارتبط بها الكلام البذيء أثناء الممارسة. أصبحت الأنثى الخرطومية تنادى الذكر بمفردات تصنف بالبذاءة، لكنها في لحظة الممارسة تلك تستكمل انسجام العملية الجنسية. الأصوات والكلام البذيء من الدلائل الأكيدة على أن التغيير في المزاج الجنسي يتم بقيادة الإناث، وأن الذكر هو تابع يظهر في مظهر القائد.

صفحة على الشبكة الالكترونية:

تعرض الصفحة معينات أنثوية تتعلق بالجنس كسلعة: حبوب لزيادة حجم الأرداف والمؤخرة، حقن لزيادة حجم الصدر والشفتين، المؤخرة البلاستيكية بحسب الحجم المطلوب. توضح الصفحات إقبالاً متزايداً ضمن مزاج عام بحجم المؤخرة. التكوين الطبيعي للأنثى في الخرطوم أن لها مؤخرة كبيرة، لكن صار هناك إصرار على أن تكون في وضع إعلاني مثير. مضغوطة بطريقة معينة بملابس داخلية معينة، ويتم تحريكها بطريقة معينة. وأصبحت هناك منافسة حامية صامتة

ومعلن عنها عن المؤخرة، كسلعة والطلب عليها، وتتردد الأغنيات التي تنبه لها في مجالس المتعة والتحفيز الجنسي، كما في الأغنيات والرقص الموجود على مواقع الكترونية. هذا المزاج للرجال وللنساء. دخل الجيل الجديد في سوق العرض والطلب باللجوء للمُعينات الكيميائية سواء أقراص طبية أو حقن اسمها (جارى الشحن) حيث يتم استخدامها لمدة حتى يكتمل الحجم الذي ترغبه الأنثى.

لقطة:

في موقع اليو- تيوب، أغنية: حركتك جبانة. وتؤديها أنثى لها مؤخرة كبيرة وتحركها بطريقة مثيرة. أغنية أخرى: وراء... وراء... وهي بي وراء.

شبكات تعرض بضاعتها من البنات والنساء والأولاد للحصول على المتعة. الشبكات مقسمة بحسب المناطق الجغرافية: بنات الخرطوم، ثم بحسب الأحياء. صور عارية أو صور شبه عارية، ثم أرقام التليفونات، وطرق التواصل.

استقبال:

نحتاج إلى تقرير عن بداية صناعة الأفلام الجنسية في الخرطوم.

رد:

لا معلومات لدى.

استقبال:

صحيفة الرأي العام: ٢٤- ٨- ٢٠٠٦:

(أخطر ما في الأمر الذي أصاب المشاهدين بصدمة كبيرة تلك الأفلام المصورة عن تلك الممارسات، وقد تم تصويرها من قبل

سودانيين وأجانب بواسطة كاميرات ولاب- توب، وأجهزة موبايل متطورة، وهى مناظر يصعب التمعن والتدقيق فيها. شابات في مقتبل العمر. أكد أحد الضباط المسئولين بأمن المجتمع بالشرطة أن معظمهن من طالبات الجامعات من العاصمة، كما أن طالبات الجامعات يشكلن نسبة كبيرة منهن)

ظهر على شاشة الموبايل عنوان فيلم: الشاهد الوحيد. مشهد: قبل يوم الأضحى:

شاهدت وجه هديل على الشاشة، وجسدها كان مُنحنياً وكأنها تميل على الأرض لتلتقط شيئاً. ظهر صدرها خارج سوتيانتها التي كان سيرها الرفيع معلقا على كتفها، وكانت عينيها مُغمضتين وجسدها يتحرك تلك الحركة المألوفة حين يكون هناك من هو ملتصق بمؤخرتها ويتحرك في تجويف جسدها طعناً ونزع. كُنت قد سمعت صوتاً غير مألوف فتوقفت وسألتها. لكنها كانت مستغرقة مع لذة جسدها. حاولت أن أنزع نفسي منها لأرى، فأخذت تهمس بإلحاح: اضغط، اضغط، خلاص أنا.. خلاص.. قربت، اضغط شديد انت يا.. وأخذ تجويفها يقبض ويبسط بحركة متتالية ويزداد انتصابه قوة حتى بلغ أقصى مدى مع الضغطة الأخيرة فتحركنا جسداً في جسد لنجد مصدر الصوت. عين خروف الأضحية كانت تنظر! لم ننتبه إلى إغلاق النافذة!؟ فُتحت علينا ونحن على تلك الحالة التي يصعب خلالها الانتباه. حين فتحت هديل عينيها صرخت بدهشة، ثم أعقبت صرختها بضحكة واحتضنتني وهى تسأل:

- فضولي ده.. واقف من البداية؟

نظرت بحذر خارج الشباك فرأيت برسيما وجردل ماء، فأغلقت الشباك وقلت لها:

- الشاهد الوحيد.. سيفارق الحياة.

ضحكت وقالت:

- من حسن حظي... فضيحتي أنا لو قابل أهلي.

كتبت ردا:

لا علاقة لي بهذا، هذه الصور تلفيق، هذا ابتزاز معنوي. أصبح من السهل جداً على أي طالب في الصف الأول الثانوي أن يركب ويشكل ما يشاء من الصور المتخيلة، وأصبح الناس معرضين لمواقف محرجة تهدد خصوصيتهم وتهدد حياتهم الأسرية وذلك نتيجة للاستخدام السلبي للصور.

المشهد أعلاه تم إرساله لي ضمن رسالة تهدد بكشفي على كافة المواقع إذا لم أقدم ملفا عن بدايات صناعة أفلام الجنس الإباحية في الخرطوم.

استقبال:

أمامك فرصة أخيرة وزمن قليل لتسليم ما نطلبه، لا تحاول التمويه بإرسال أي مواد. معلومة لك فقط لأنك- الآن- مهم لنا لحين تسليمنا ما نريد: لاشك أنك عليم بأن هناك من يُريدك أيضاً وهذا يشوش علينا، فنحن نراقبك وهو يراقبنا، فنضطر إلى مراقبته دون أن نعرف من هو. حدد لنا ما يريدونه منك فنحدد لك من هم؟

رن جرس الباب ووجدت مدحت واقفاً. ناولني الجبن الرومي وطبق به ستة حبات من البيض. وكان ينظر في عيني مباشرة.

دخلت المطبخ، وبدأت أبحث عن الرسالة التي ستكون وسط الطلبات التي جاء بها دون أن نتصل ونطلبها من السوبر ماركت! لكنهم

يسمعون كل شيء، وفهمت أنهم قطعوا الاتصال عن هواتفنا لأنني قطعت الاتصال معهم. ولم يعد أمامهم سوى إرسال الرسائل بطريقة مباشرة.

لم أجد شيئاً وسط شرائح الجبن الرومي، فوضعت شريحتين وسط قطعة خبز ووضعت قطعة صغيرة من الكيك في طبق وأعددت كوب نعناع ثاني ووضعت الطعام أمامها. وعدت للمطبخ مرة أخرى ووقفت أنظر. هنا بالضبط توجد الرسالة، قطع الاتصالات يعنى رفضي للتعليمات. لكن الرسالة الأخرى، والسينما: أي جهة هذه التي تطلب مني مثل هذا الطلب؟ غير مسموح لك أن تعرف مع من تتعامل بشكل مباشر، أيا كان لن يتركوني أمر مرور الكرام وبسلام. نادتني وسألتني عن أكلي فقلت سأشرب شايا مع ساندويتش الجبن الرومي لكن ليس الآن. تمددت على الكنبة فسمعت صوتها ينبهني إلى صوت ينبعث من المطبخ وقلت لها دون أن أفتح عيني: من المطبخ!؟ قالت:

– صوت متصل ومختلف عن صوت الثلاجة.

نهضت مُتصنعاً الانزعاج وقلت لها ربما نسيت الموبايل يشحن، ولما دخلت المطبخ وجدت أن استنتاجي كان في محله. ما كنت أبحث عنه جاء مع طبق البيض، أو جاء في طبق البيض. كان صوتا خافتا مثل أزيز تيار كهربائي ينبعث من طبق البيض، وكان لون قشرة البيض يتغير أمام نظري من اللون الأبيض إلى لون داكن، وبدا وكأن هناك شيء في داخل الطبق أو في تجويف البيض نفسه. رفعته لأنظر فلسعتني حرارة سرت كلسعة كهرباء في يدي حتى أسقطت الطبق على الأرض وأفلتت آهة ألم من فمي.

تناثر البيض على أرضية المطبخ وفاحت رائحة الزفر، لكن ثبتت نظرة عيني على ما أنساني ألم اليد. ظلت حبة بيض واحدة على حالها

وفى لونها الأبيض. ووصل لأذني الأزيز منبعثاً منها. سمعت صوت أختي تنادي عليّ، فقلت لها إن طبق البيض سقط واندلق وإنني أحاول تنظيف المطبخ من الرائحة، ولعنتها في سرى. كررت النداء فتركت المطبخ واندفعت إليها ووقفت أمامها قائلاً بغضب:

- نعم.

- قالوا في الخرطوم المظاهرات والموت في الشوارع والمعارضة قالت لازم تسقط الحكومة و...

وقفت أستمع لتقارير المُراسلين، لو فتحت فمي برأيي لأحرجتها فيما لا يستحق. صمت مُتصنعاً الاهتمام بما يحدث، كان ذلك منذ زمن بعيد جداً، ومنذ ذلك الزمان لم أعد أهتم أبداً بسقوط الحكومات في الخرطوم، أو بقيام حكومات جديدة أو باستمرار من يحكم، وسمعت صوتها حماسياً عن الشهداء في شوارع الخرطوم، فكان لابد من مجاملتها بافتعال حماس مماثل. أحسست بحزن حقيقي عليها وهى موقنة بذلك اليقين الذي انقضى عهده بأن دماء الشهداء هي التي تُسقط الحكومات، لأن- الآن- الخيانة فقط هي ما تُسقط الحكومات وتقتل القادة، وتُبدل الأوضاع. والخارج هو ما يصنع الأجيال القادمة ويكيف معيشتها ومزاجها ويبدلها من حال إلى حال. أما الفضائيات والتحليل ومقالات المواقع، فللناجين من نار المواجهة المباشرة والباحثين عن التعويض المثير.

- الحكومة لن تسقط أبداً.

- ليه!؟ والله يمين تسقط!؟

- خليني مع البيض أحسن... لأن الرائحة لا تطاق.

تناولت البيضة ورفعتها لأعلى لأتفحصها. ضغطت عليها فاستجابت بسرعة حينما انفصل الجزء الأسفل منها عن جزء ظل بين

أصابعي وأول سنتيمترات من راحة يدي، وأحكمت عليه حذر أن لا يسقط. ما كنت أبحث عنه أو ما كان يبحث عني، أو ما أُرسل إليّ كان في الجزء الأسفل. وجدت قرصا صغيرا في داخل التجويف وبين ثانية وأخرى ينبعث منه شعاع مع أزيز.

قالت لي:

- تعرف أمنية حياتي الوحيدة الآن؟ أن أقابل الدكتور، وأن يقول لي أي كلام! أكثر شيء قاسي للمريض أن تقول له أن كل شيء مستقر وكويس وكأنك لم تسمع ما يشكو. لماذا يتصرف الأطباء هكذا؟

غالبية الأطباء حين يتضح لهم أن لا أمل في علاج أو تحسن طبي، يقولون للمريض كلاماً عاماً مُطمئناً. ويكون مُتضمناً نفياً لما يشكو منه. ربما تكون قاعدة طبية، أو ربما تكون إحدى مثلهم الأخلاقية، حينما يصابون باليأس فيقررون إرجاع المريض لمنزله إذ بقي له بضعة خطوات وملاقاة حتفه. لكل شيء نهاية، لكن دناءة الإنسان تجعله ملحاحاً حتى في طلب المشاركة في صناعة النهاية.

تناولت موبايلها وكنت واثقاً من أن الاتصال لن يتم لكنني تركت الأمر يبدو عادياً. قمت وأغلقت باب الحمام من الخارج ووضعت مخدة أسفل الباب، أغلقت الغرفة الأخرى ووضعت كرسي على الباب حتى إذ ما استجاب مفتوحاً لأحد يسقط الكرسي فننتبه. ثم وضعت كرسي على باب الشقة وعدت وتمددت على الكنبة وأغلقت عيني.

كان على أن أجهز رد فعل لِما أتوقع! لم يكن النوم ضمن ما استعد به للمواجهة، وفكرت أنهم إذا تركوني لهذه الليلة فقط فيمكن أن أكسب وقتاً في محاولة الإقناع أو التأجيل. بدأت في مُمارسة التمارين التي تمنع النعاس والنوم، ثم بدأت في تنشيط الذكريات. شوش صوت التلفاز على

محاولاتي، وكان صعباً أن أغلِقه لأن نوم أختي موزون عليه. هل قطع النور فجأة في المطبخ والصالة؟ أم أنني غفوت؟ لم أكن متأكداً. لكن القاعدة تقول أن لا تتحرك إلى نقطة مظلمة سيما وقد قمت بتأمينها، الاستدراج حيلة كلاسيكية، وأكيد أنهم هم الذين بعثوا مدحت واستعانوا بإيناس. لماذا كان يحدق في عيني بكل ذلك الإصرار المتيقن من قدرته على الوصول إلي؟ وسمعت صوت إيناس وهى تضحك بسخرية وخلاعة في الهاتف:

– ما كان من الأول تقول لي وتخلص؟ كنت برضك خلصت لك وأحسن منه بكثير بس يلا.. كلها أرزاق.. بس أرزاق لا مؤاخذة، مش كده؟

ضحكت فأحسست بغضب هائل وجمعت قوتي لأنهض وأوجه لها صفعة، لكن وجهه كان ملتصقاً بشدة بالمخدة وانكشف إصراره على الخمسمائة جنيه ودِقة توصيفه لمؤخرة البنت التي لا مثيل لها. وعبارة: أي حاجة يا بيه، كل اللي انت عايزه، اللي تتخيله ونفسك فيه. وحاولت النهوض مرة أخرى وجرس الباب يدق بإلحاح. جرجرت أقدامي وظلام أمامي. لم أكن متأكداً، ولم أسمع صوت أختي تنبهني أو تناديني، لكنني وصلت لباب الشقة ولم أجد الكرسي الذي وضعته، وقلت ربما لم أضعه لأنني لم أضع كرسي من قبل. دق الجرس ففتحت الباب. هناك دوماً ثواني فاصلة يحدث فيها كل شيء. وجدته أمامي مثلما رأيته من قبل. نسخة طبق الأصل مني. ثواني فقط هي التي فصلت، ثواني تفصل ما بين حدث كبير حاسم وبين حالة التساؤل والبحث للتأكد. رغم هيكل كل منا الذي يبدو ضئيلاً إلا أن القوة التي جذبني بها جعلتني في الهواء بحيث صرت في مواجهة باب شقته المواجهة لشقتنا وكان الباب مفتوحاً،

ثواني أخرى كان يمكنني أن أفعل فيها شيئاً ولكنني تجمدت إذ نظرت فوجدت أختي نائمة في نفس الكنبة الموجودة في شقتنا المواجهة لشقته: نسخة منها أم أنها هي؟ تقدمت نحوها ومددت يدي لكي أيقظها لكنني أحسست بضربة قوية على رأسي، وساد ظلام.

رواية جريئة من مؤلف كتاب "يوميات الدولة الإسلامية في السودان" تكشف المستور عن الحياة الجنسية بكل من الخرطوم والقاهرة وما طرأ عليها من تغيرات في العقود الأخيرة.

سوداني مهووس بإحساس المطارد يطير إلي القاهرة بصحبة أخته المهددة بالعمى ليعرضها علي الأطباء وليحصل لنفسه علي متعة سرية. ..

لكنه يتلقي تعليمات غامضة وتلاحقه منظمات عالمية وتنتابه هلاوس حقيقية تنتهي بلحظة كشف غير متوقعة.



